

جامعة الأزهر
قطاع اللغة العربية
قسم الأدب والنقد

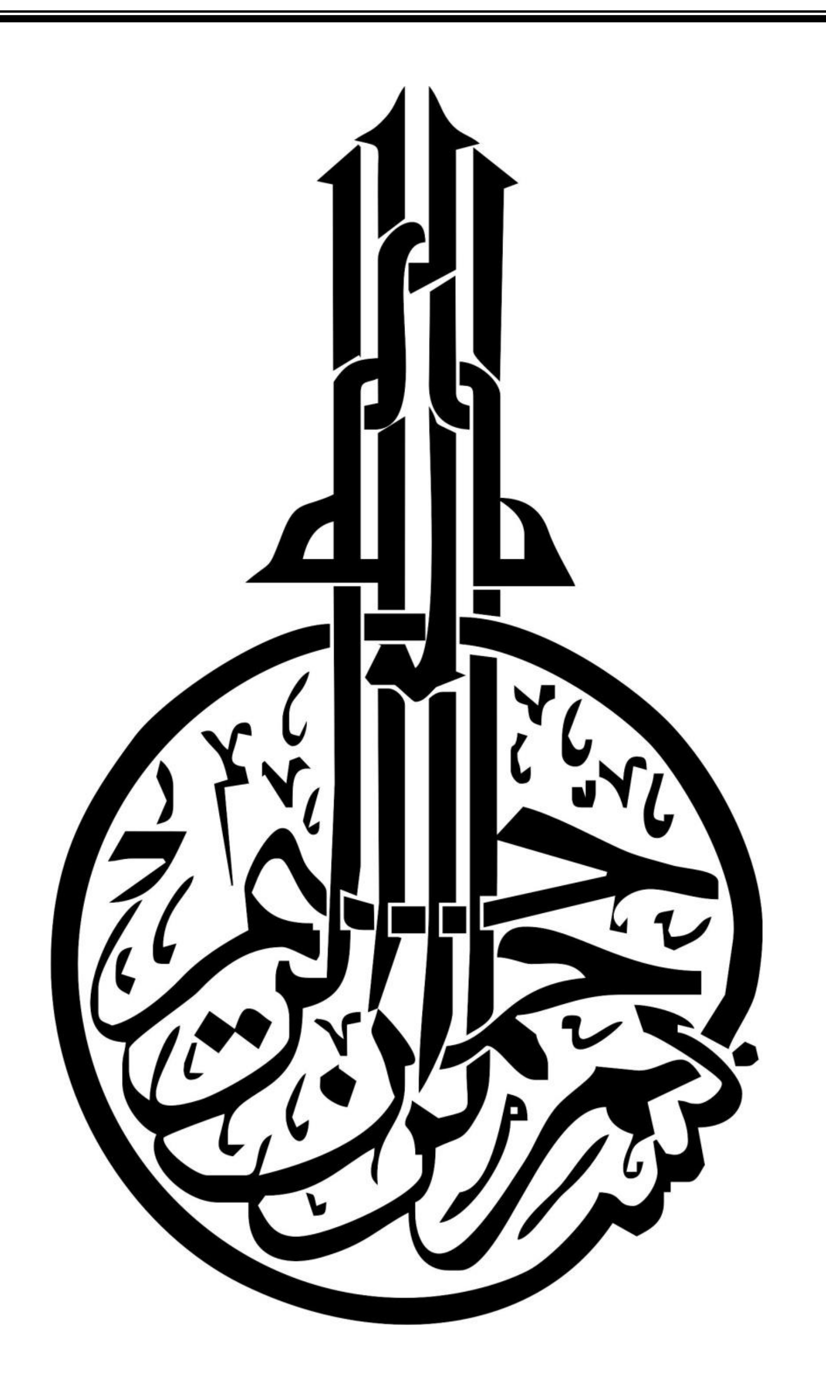
***

في النصّ الأدبيّ

العصر العباسيّ

تأليف دكتور
زكريا النوتي
واشترك في التأليف
أ.د/ عاطف عبداللطيف أ.د/ صبري أبو حسين

طبعة
٢٠١٩/٢٠٢٠م


بسم الله الرحمن الرحيم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، والصلاة والسلام على النّبيّ المصطفى .. وبعد ؛

فالعصر العباسي يمتد لأكثر من خمسة قرون ، وهو ذاخر بأعلام الأدباء – شعراء وناثرين – أوليس عصر بشار ، وأبي نواس ، ومسلم بن الوليد ، والعباس بن الأحنف ، وأبي تمام ، والبحتري ، والمتنبي ، وأبي العلاء ... والجاحظ ، وابن العميد ، وابن المقفع ، وبديع الزمان ... ؟!

من هنا تأتي صعوبة الاختيار للنصوص – شعرها ونثرها – .. غير أننا آثرنا في اختياراتنا أن نأتي بنصوص لأعلام الأدباء الذين ما ينبغي لطالب اللّغة العربيّة أن يجهلها .. واخترنا لهؤلاء الأعلام نصوصًا تؤرخ لظواهر ، وترصد صراعات ، وتعكس الحياة في ذلك العصر :

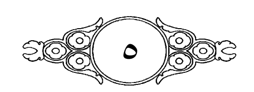
١ – فنص بشار يأتي نموذجًا للشعوبية التي ازدهرت على ألسنة الأعاجم .

٢ – وبائية أبي تمام تسجل مرحلة من مراحل الصراع الممتد بين الروم والمسلمين ..

٣ – وجريمة قتل في قصر الجعفري تصور تردّي الأخلاق ، والعقوق ، إلى حدّ أن يتآمر الابن على أبيه .

٤ – وسينية البحتريّ .. ما ينبغي أن تترك ، أو يجهلها طالب اللّغة العربيّة ، فهي من عيون الشِّعْر العربيّ بعامة .

٥ – وميمية المتنبي – في وصف الحمى – اجتمع فيها من صفات المتنبي وأخلاقه الكثير – وهذه النصوص من تحليل أ.د/ زكريا النوتي..



٦- نونيــة أبــي العــلاء المعــري فــي فقــد أبيــه (تحليـل أ.د/ عــاطف عبداللطيف).

أمّا النّثر :

١ – فأوردنـا وصـية للخليفـة (المـأمون) وهـو علـى سـرير موتـه ، وهـو يوصي أخاه بأن لا يحيد عن نهجه في مسألة (خلق القرآن) !!

٢ – وما كان ينبغي أن نغفل المقامات ورائدها (بديع الزمان الهمذاني) فأوردنـا لـه (المقامـة البغداديـة) – وهـذان النصـان مـن تحليـل أ.د/ زكريا النوتي..

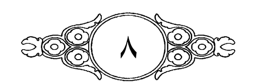
٣- واقصوصة (مريم الصناع) من كتاب البخلاء للجاحظ .

٤- رسالة العماد الأصفهاني في البشرى بالانتصار في موقعة حطين – وكلتاهما من تحليل أ.د/ صبري أبو حسين.

نسأل الله أن نكون قد وفقنا فيما رجونا ، ولله الحمد أوّلاً وآخرًا ..

المؤلفون


أولاً
النصوص



بائيّة بشار (نشيد الشُّعُوبيّة)

بَشّار بن بُرْد

(من مخضرمي الدولتين ٩٥/٩٦ – ١٦٧هـ)

هو[1] : بشار بن بُرد بن يرجوخ ، ويرجوخ هذا كان من طُخارُستان ، من سَبْي المُهلّب بن أبي صُفرة .. فهو مولى ، فارسي الأصل .

أما أمه فروميّة .

كنيته : أبو معاذ .

لقبه : المرعّث ، وذلك لشعر قاله ، وقيل : بسبب قميص كان يلبسه ، وقيل : لأنه كان في أذنه رِعاث وهو صغير ، والرّعاث : القِرَطة ... وقيل غير ذلك .

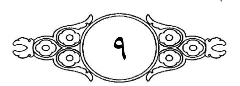
ولد بشار أعمى ، وهو (الأكمه) ، يقول في ذلك :

إذَا وُلِدَ المَولود أعمى وجَدْتَه ∴ وجدكَ أهدى من بصيرٍ وأجولا
عميتُ جَنِينا والذكاءُ من العَمَى ∴ فجئتُ عجيبَ الظن للعِلم مَوْئِلاَ
وغَاضَ ضياءُ العينِ للقلب فاغْتَدَى ∴ بقلْبٍ إذَا مَا ضَيَّعَ النَّاسُ حَصَّلا
وشعر كنور الروضِ لاءمتُ بينهُ ∴ بقَوْلٍ إذَا ما أَحْزنَ الشِّعْرُ أَسْهَلاَ

باعت أم بشار بشارًا على أم الظباء السدوسية بدينارين ، فأعتقته .. وكانت أسرة بشار موبوءة ، فكلهم من أصحاب العاهات : فله أخ اسمه (بشر) ، وآخر اسمه (بشير) ، أحدهما أعرج ، والثاني ناقص اليد ..

---

(١) راجع : ترجمته وأخباره في الأغاني (دار) ١٣٥/٣ وما بعدها ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، تح/ مُحمّد محيي الدِّين عبد الحميد ٢٤٥/١ – مكتبة النهضة المصرية – ط/ أولى ١٩٤٨م – ترجمة رقم ١١٠ ، شخصية بشار د/ مُحمّد النويهي .



فليس لهم من أسمائهم أدنى نصيب .

وكان له أخوان قصابان – جزاران – وكان بشار بارًّا بهما .. وكان إخوته يستعيرون ثيابه فيوسخونها ويُنتنون ريحها ، فاتخذ قميصًا له جيبان ، وحلف ألاّ يعيرهم ثوبًا من ثيابه ، فكانوا يأخذونها بغير إذنه ، فإذا دعا بثوبه فلبسه فأنكر رائحته ، فيقول : " أينما أتوجه ألق سعدًا " ، فإذا أعياه الأمر خرج إلى الناس في تلك الثياب على نتنها ووسخها ، فيقال له : ما هذا يا أبا معاذ ؟ فيقول : هذه ثمرة صلة الرحم .

وكان أبوه (طيانًا) يصنع الطوب اللبن .. وقد هجاه حماد عجرد فقال[١] :

يا ابنَ بُردٍ إخسَأ إلَيكَ فَمِثْلُ الـ ∴ ـكَلبِ في الناسِ أنتَ لا الإنسانِ
وَلَعَمري لأَنتَ شَرٌّ مِنَ الكَلـ ∴ ـبِ وَأَولى مِنهُ بِكُلِّ هَوانِ
وَلَريحُ الخِنزيرِ أَطيَبُ مِن ريـ ∴ ـحِكَ يا ابنَ الطَّيّانِ ذي التَّبانِ

قال الأصمعي : كان بشار ضخمًا ، عظيم الخَلْق والوجه ، مجدورًا ، طويلاً ، جاحظ المقلتين ، قد تغشاهما لحم أحمر ، فكان أقبح الناس عمى ، وأفظعه منظرًا ، وكان إذا أراد أن ينشد صفق بيديه وتنحنح ، وبصق عن يمينه وشماله ، ثم ينشد فيأتي بالعجب[٢] .

لم يجد بشار أمامه من سبيل إلى حرفة يحترفها – بسبب عماه – ، فاضطر إلى التردد على حلقات العلم في المساجد ..

وظهرت موهبته الشعرية في سن مبكرة ، وتردد على سوق المربد بالبصرة ، وكانت حينئذ مسرحًا للنقائض المستعرة بين جرير والفرزدق ..

(١) الأغاني ١٣٧/٣ .. و" **التَّبانِ** " : سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط ، يكون للملاحين ، اللسان مادة (ت ب ن) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ووفيات الأعيان ٢٤٦/١ .



فأتيحت له فرصة التلمذة على أيدي هؤلاء الفحول ، والإفادة من السجال الشعري هناك ، مما كان سببًا في صقل فن الهجاء عنده .

قال بشار الشعر وله عشر سنين .. وكان متمكنًا من العربية ، مجيدًا لها ، لا يكاد يخطئ ، وقد قيل له :

ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلاّ وقد قال فيه شيئًا استنكرته العرب من ألفاظهم ، وشُك فيه ، وإنه ليس في شعرك ما يُشك فيه !! فقال :

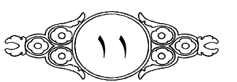
ومن أين يأتيني الخطأ ؟ ولدت هاهنا ، ونشأت في حجور ثمانين شيخًا من فصحاء بني عقيل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت [أي أرسلت إلى البادية] إلى أن أدركت ، فمن أين يأتيني الخطأ ؟!

كانت بيئة بشار الصغرى باعثة على الغمّ والنكد .. فأبوه رجل جاهل ، على حظ كبير من الغباء وبلادة العقل ... فكان يقبل شكوى الناس من بشار وينهال عليه ضربًا .. فإذا ما أقنعه بشار بقول الله تعالى ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾[1] خرج إلى الناس يردد ما لقنه ابنه إيّاه دون فهم ..

لم يقدّر هذا الأب الجاهل الغبي تلك الموهبة الشعرية ، ولم ينتبه إلى فرط حساسية ابنه ، فعامله بفظاظة ..

وإخوته أيضًا كانوا من سوقة البشر ، من الأجلاف غلاظ القلوب .. فهم يستغلون عماه ، بدلاً من أن يحنوا عليه ..

(١) سورة النور – من الآية ٦١ .



فإذا ما خرج بشار إلى الناس ازدروه واحتقروه ونفروا منه[1] ..

شعوبية بشار :

منذ قتل أبو لؤلؤة المجوسي الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أثار الفرس حفيظة العرب ..

وكان الجو العام في أواخر العصر الأموي – الذي عاش فيه بشار – وأوائل العصر العباسي مفعمًا بالعصبية (الشعوبية) .. وكان للعرب يد في إذكاء نيران هذه العصبية .

فقد كان كثير منهم يستفزون الموالي ويغضبونهم ، وكان بعض هؤلاء الموالي يحمل حقدًا دفينًا ، وكأنما استغل الفرصة عاملاً بمبدأ [من استغضب فلم يغضب فهو حمار] .

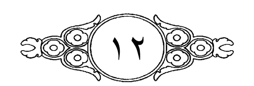
لقد تناسى كثير من الناس مبادئ الإسلام وتعاليمه من أن المعيار هو التقوى ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلاّ بها .. وراحوا يعاملون الموالي معاملة سيئة ، ويعيرونهم بأنسابهم .. فثارت ثائرة هؤلاء الأعاجم .

لقد كان بشار معتدًّا بنشأته في بني عقيل ، ولكنه لم ينس أصله الأعجمي ..

حكى الأصفهاني : أن بشارًا دخل على الخليفة المهدي ، فقال له : فيمن تعتد يا بشار ؟ فقلت : أما اللسان والزي فعربيان ، وأما الأصل فعجمي ، كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين[2] :

---

(١) شخصية بشار ، النويهي ص٩٨-١٠٠ (بتصرف وإيجاز) .
(٢) الأغاني ١٣٨/٣ .



وَنُبِّئْتُ قومًا بِهِم جِنّة ∴ يَقولونَ مَن ذا وَكُنتُ العَلَم
ألا أيُّها السائِلي جاهِدًا ∴ لِيَعرِفَني أنا انفُ الكَرَم
نَمَت في الكِرامِ بِني عامِرٍ ∴ فروعي وَأصلي قُرَيشُ العَجَم
فَإنّي لأغني مَقامَ الفَتى ∴ وَأصبي الفَتاةَ فَما تَعتَصِم

وهذا النص " يكشف عن التوازن ، والصدق مع النفس ، وعدم مجاوزة الحق ، بل يدل على أن ميزان بشار في العربيّة أرجح من ميزانه في غيرها ... فاللسان ليس أمرًا عارضًا في حياة الإنسان ، بل هو فكره ووجدانه وعواطفه ... فما بالك بالشاعر الأديب ؟!

وأما الزي فصدى النفس وترجمان الشخصية ... وأما الأصل الأعجمي فهو حقيقة .. ثم إنه كريم ، بل هو أنف الكرم لأن فروعه نمت في بني عامر .. ثم إنه حين يفاخر بأصوله البعيدة يشبههم بقريش .. فقريش العجم تشبه قريش العرب ... "(١) .

ونجده يفتخر بولائه في بني عقيل قائلاً(٢) :

إنّني مِن بَني عُقَيلِ بنِ كَعبٍ ∴ مَوضِعَ السَيفِ مِن طَلى الأعناقِ

ثم مرة أخرى يتبرأ من ولاء العرب :

أصبَحتُ مَولى ذي الجَلالِ وَبَعضُهُم ∴ مَولى العُرَيبِ فَجُد بِفَضلِكَ وَافخَرِ
مَولاكَ أكرَمُ مِن تَميمٍ كُلِّها ∴ أهلِ الفَعالِ وَمِن قُرَيشِ المَعشَرِ
فَارجِعْ إلى مَولاكَ غَيرَ مُدافعٍ ∴ سُبحانَ مَولاكَ الأجَلِّ الأكبَرِ

ومن ثَمّ حكم الأصفهاني عليه بأنه " كان كثير التلون في ولائه .. "(٣) .

غير أن الدكتور أبا الأنوار يرى أن بشارًا كان يستثار ، ومن هنا راح

---

(١) الشعر العباسي د/ أبو الأنوار ص١٢٦ ، ١٢٧ (بإيجاز) .
(٢) الأغاني ١٣٩/٣ .. والـ " **طُلى** " : أصول الأعناق ، واحدتها : طلية أو طلاة .
(٣) الأغاني ١٣٩/٣ .

يدافع عن نفسه[1] .. وأبرز مثال لذلك ما رواه صاحب الأغاني قال :

دخل أعرابي على مَجْزَأة بن ثور السّدُوسي وبشار عنده وعليه بزة الشعراء ، فقال الأعرابي : من الرجل ؟ فقالوا : رجل شاعر ، فقال : أمولى هو أم عربي ؟ قالوا : بل مولى ، فقال الأعرابي : وما للموالي وللشعر ؟!

فغضب بشار وسكت هنيهة ، ثم قال : أتأذن لي يا أبا ثور ؟ قال : قل ما شئت يا أبا معاذ ، فأنشأ بشار يقول[2] :

خليلي لا أنامُ عَلى اقتِسارِ ∴ وَلا آبَى عَلى مَولىً وَجارِ
سَأُخبِرُ فاخِرَ الأعرابِ عَنّي ∴ وَعَنهُ حينَ بارَزَ لِلفَخارِ
أحينَ لَبِستَ بَعدَ العُريِ خَزّا ∴ وَنادَمتَ الكِرامَ عَلى العُقارِ
تُفاخِرُ يا ابنَ راعِيَةٍ وَراعٍ ∴ بَني الأحرارِ حَسبُكَ مِن خَسارِ
وَكُنتَ إذا ظَمِئتَ إلى قَراحٍ ∴ شَرِكتَ الكَلبَ في ذاكَ الإطارِ
تُريغُ بِخُطبَةٍ كَسْرَ المَوالي ∴ وَيُنسيكَ المَكارِمَ صَيدُ فارِ
وَتغدو لِلقَنافِذِ تَدَّريها ∴ وَلا تُعنى بِدُرّاجِ الدِيارِ
وَتَتّشِحُ الشِمالَ لِلابِسيها ∴ وَتَرعى الضَأنَ بِالبَلَدِ القَفارِ
مَقامُكَ بَينَنا دَنَسٌ عَلَينا ∴ فَلَيتَكَ غائِبٌ في حَرِّ نارِ
وَفَخرُكَ بَينَ يَربوعٍ وَضَبٍّ ∴ عَلى مِثلي مِنَ الحَدَثِ الكُبارِ

فقال مجزأة للأعرابي : قبحك الله ! فأنت كسبت هذا الشر لنفسك ولأمثالك[3] .

يعلق الدكتور أبو الأنوار على هذه القصة فيقول :

" إن بشارًا كان يدافع عن نفسه .. وفي النص دلالات :

---

(١) الشعر العباسي ص١٢٧ وما بعدها .

(٢) الأغاني ٣/١٦٦ .. والـ " **اقتِسارِ** " : القهر والذل .. و" **الإطارِ** " : الحفرة بها الماء الراكد .. و" **تُريغُ** " : تطلب وتريد .. و" **تَدَّريها** " : تكمن لها لتصيدها .. والـ " **دُرّاج** " : القنفذ .

(٣) الأغاني ٣/١٦٦ ، ١٦٧ .

أولها : قول الأعرابي : أمولى هو أم أعرابي ؟ ففيه تجريح مباشر ، كأنه قال : أسيد هو أم عبد ؟ ..

وحين رأى بزة الشعراء استكثرها عليه .. وكان حريًّا به أن يعرف قدره ، وأن يتجه إلى تكريمه ، لأنه شاعر وضرير .. ثم إنه يقول : وما للموالي وللشعر ؟! فعلى الرغم من أن الأعاجم تفوقوا في اللّغة والأدب ، وأقبلوا على الإسلام دينًا وعلمًا ، إلاّ أن بعض العرب لا يزالون يعيشون فكرة موهومة ، هي أن العرب – فقط – هم أصحاب الشعر واللغة ، وهي حكر عليهم .

ومن هنا رأينا (مجزأة) يسمح لبشار بالرد .. ثم لا يكتفي بذلك وإنما يدعو عليه وعلى أمثاله الذين يجلبون لأنفسهم الشر "[1] .

ثم إن لبشار شعرًا يفتخر فيه بولائه لقيس ، ومنه قوله :

أمِنتُ مَضَرَّةَ الفَحشاءِ إنّي ∴ أرى قَيَسًا تَضُرُّ وَلا تُضارُ
لَقَد عَلِمَ القَبائِلُ غَيرَ فَخرٍ ∴ عَلى أحَدٍ وَإن كانَ افتِخارُ
بِأنّا العاصِمونَ إذا اشتَجَرنا ∴ وَأنّا الحازِمونَ إذا استَشاروا

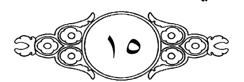
... الخ .

فيقول الدكتور الشكعة معلقًا :

" ... إن المعاني الفخرية المنساحة على مدرجة القصيدة حتى آخرها من أرفع درجات الفخر بنزار وما تفرع عنها من قبائل "[2] .

أما الدكتور يوسف خليف فيورد النص دون ملابساته ، ويبني على ذلك أن بشارًا كان شعوبيًّا ، " بل كان النافخ الأكبر في أبواقها

(١) الشعر العباسي ص١٢٨ ، ١٢٩ (بتصرف وإيجاز) .
(٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص١٢٨ .. وقد نقل النص د/ أبو الأنوار ص١٣٢ .



الفارسية " ، ويعلل لذلك بما كان يعانيه الموالي من اضطهاد وعنصرية متعصبة للجنس العربي ، فامتلأت نفسه بالحقد والمرارة والسخط التي امتلأت بها نفوس الموالي في ذلك العصر ... وما أن جاء العصر العباسي وارتفعت منزلة الموالي حتى راح بشار يتنفس ملء صدره ليعبر عن فرحته بانتصار الفرس ، وشماتته في هزيمة العرب وانهيار دولتهم في جرأة غير مسبوقة في العصر الأموي "[١] .

(١) في الشعر العباسي ص٣٥ د/ يوسف خليف (بتصرف) .



بائيّة بشار

(نشيد الشُّعُوبيّة)

١ – هــل مــن رســولٍ مُخبِــرٍ ∴ عنّــي جمِيــعَ الْعَــرَبِ
٢ – مــنْ كــان حيًّــا مِــنْهُمُ ∴ ومــن ثــوى فــي التــربِ
٣ – بِــأَنَّني ذو حَسَــبٍ ∴ عــالٍ عَلــى ذي الحَسَــبِ
٤ – جــدِّي الَّــذِي أسْــمُو بِــهِ ∴ كِسْــرَى ، وساســانُ أبِــي
٥ – وقيصــر خــالي إذا ∴ عَــددْتُ يوْمًــا نَسَــبِي
٦ – كــم لــي وكــم لــي مــن أبٍ ∴ بتاجِــهِ مُعْتَصِــبِ
٧ – أشْــوَسَ فِــي مجْلِسِــهِ ∴ يجثــى لــه بالركــب
٨ – يغــدو إلــى مجلســه ∴ فــي الجَــوهَرِ المُلتَهِــبِ
٩ – مستفضــلٌ فــي فنــك ∴ وقــائمٌ فــي الحجــبِ
١٠ – يَسْــعَى الْهبــانِيقُ لــهُ ∴ بِآنيــاتِ الــذَّهبِ
١١ – لَــمْ يُسْــقَ أقْطــابَ سِــقًى ∴ يَشْــرَبُها فِــي الْعُلَــبِ
١٢ – ولاَ حــدا قــطُّ أبِــي ∴ خَلْــفَ بعِيــرٍ جَــرِب
١٣ – ولاَ أتــى حنْظلــةً ∴ يثقبهــا مــن ســغب
١٤ – ولاَ أتــى عُرْفُطَــةً ∴ يخْبِطُهــا بِالْخشــبِ
١٥ – ولا شــوينا ورلاً ∴ مُنضْنِضًــا بِالــذَّنَبِ
١٦ – ولاَ تقصَّــعْتُ ولاَ ∴ أكلــتُ ضــبَّ الحــزب
١٧ – ولا اصــطلى قــطُّ أبــي ∴ مفحجًــا للهــبِ
١٨ – كــلاَّ ولا كــان أبــي ∴ يرْكــبُ شــرْجيْ قَتَــبِ
١٩ – إنَّــا مُلُــوكٌ لــمْ نــزلْ ∴ فــي ســالفات الحقــب

٢٠ – نحـــن جلبنـــا الخيـــل مـــن ∴ بلْـــــخٍ بِغيْـــــرِ الْكـــــذِب
٢١ – حتَّـــــى سَـــــقَيْناها ومـــــا ∴ نبْـــــدهُ نَهْـــــرَيْ حَلَـــــبِ
٢٢ – حتَّـــــى إذا مـــــا دوَّخـــــتْ ∴ بالشـــــام أرض الصـــــلب
٢٣ – ســـرنا إلـــى مصـــر بهـــا ∴ فـــي جحفـــلٍ ذي لجـــب
٢٤ – حتـــى اســـتلبنا ملكهـــا ∴ بِمُلْكِنـــــا الْمُسْـــــتَلَبِ
٢٥ – وجـــادت الْخَيْـــلُ بِنـــا ∴ طَنْجَـــةَ ذَاتَ الْعَجَـــبِ
٢٦ – حتـــى رددنـــا الملـــك فـــي ∴ أهـــل النبـــيّ العربـــي
٢٧ – يَهْـــزَ أبـــا الفَضْـــل بِهَـــا ∴ أولـــى قـــريشٍ بـــالنبي
٢٨ – مـن ذا الـذي عـادى الهـدى ∴ والـــدين لـــم يســـتلب
٢٩ – ومـــن ومـــن عانـــده ∴ أو جـــار لـــم ينتهـــبِ
٣٠ – نغْضَـــبُ لله ولِـــلإ ∴ ســـلام أســـرى الغضـــبِ
٣١ – أنـــا ابـــنُ فرعـــي فـــارسٍ ∴ عنهـــا المحـــامي العصـــبِ
٣٢ – نحْـــنُ ذوُو التِّيجـــانِ والْـــ ∴ ـــمُلْكِ الأَشَـــمِّ الأَغْلَـــبِ

تعليق على البائية :

لم نقع على أسباب نظم بشار هذه القصيدة ، ولا نعرف ظروفها أو مناسبتها ، لكن يبدو أن بشارًا كان ضائقًا حنقًا مغضبًا ، فلربما استفزه واستثاره جِلف من أولئك الأجلاف الغلاظ قساة القلوب " الذين خرجوا على تعاليم دينهم ، والذين دمغهم القرآن الكريم نفسه في أكثر من سورة ، ووصمهم بأنهم لما يدخل الإيمان في قلوبهم ، وبأنهم أشد كفرًا ونفاقًا ، وأجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، وسجل حوادث نفاقهم ، وتخلفهم عن نصرة الدِّين في آيات كثيرة ، كما سجل عنجهيتهم

وغلظتهم وسوء أدبهم وجفاوتهم على الرسول نفسه ... "[1] .

أذكر أنني في التسعينات من أواخر القرن الـ ٢٠ وبمناسبة عيد الفطر سمعت الرئيس الأمريكي [ويليام بيل كلينتون] وهو يهنئ مسلمي أمريكا بالعيد ، ويقدم شكره لهم على ما أسهموا به في نهضة الولايات المتحدة .. وفي نشرة الأخبار نفسها افتتح زعيم عربي مسلم بعض المشروعات الكبرى في بلده فقال : أشكر المواطنين .. فقيل له : والمقيمون ، فردّ بغلظة وجلافة قائلاً : هؤلاء أخذوا حقوقهم [يقصد رواتب ومكافآت] .. !!

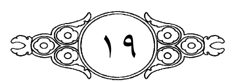
ولذا لا تعجب حين يقول ابن تيمية : [إن الله يقيم الدولة العادلة ولو كانت كافرة ، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة] !!

نعود إلى بائيّة بشار ، فنجدها طافحة بالشُّعُوبيّة التي تقيم موازنة بين العرب والفرس ، فترفع الفرس إلى ذُرَا المجد والرفعة ، وتحط العرب إلى أدنى منزلة .. والشُّعُوبيّون حين يعقدون هذه الموازنة لا يجافون الحقيقة ولا يَعْدون الواقع .. فتلك حياة الفرس ، وهذه حياة العرب .. وحقًّا ، كان العرب كذلك ، لا قيمة لهم ولا وزن ، والإسلام هو الذي رفع ذكرهم ، وجعل لهم مكانة ومنزلة .. وهو ما أكّده عمر بن الخطاب بقوله : " إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ ، فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالإِسْلاَمِ ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ ، أَذَلَّنَا اللَّهُ " .

أما ما تقرأه في كتب المستشرقين من حضارة عربية جاهلية وأخلاق وعادات ، وما تقرأه عند (فيليب حتى) في تاريخ العرب ..

---

(١) شخصية بشار ص٥٢ .



ومَن سار في ركابهم وانطلى عليه زورهم وبهتانهم .. فإنما هدفهم أن يقنعوا الناس – بمَن فيهم المسلمون – أن الإسلام لم يغيّر من عادات العرب وأخلاقهم وعاداتهم .

وهو إفك مبين ، نربأ بعقلاء المسلمين أن يقعوا فيه[1] .. وأن يتعصبوا للعربيّة تعصبًا أعمى ، حتى في الجاهلية .

بشار لم يبعد عن تصوير الحياة العربيّة الجاهلية ، تلك الحياة التي تتسم بالفقر والضنك .. لقد أغلق العرب عقولهم ، ولم يفكروا في طريقة للتوسعة على أنفسهم ، وإنما أسلموا أنفسهم للصحراء .. لتدوّخهم هنا وهناك وراء الأمطار والعشب ، ومصادر المياه ..

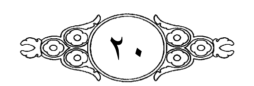
وإلاّ أغاروا على إخوانهم فقتلوا وأسروا ونهبوا .. والعجيب أنهم يفخرون بذلك :

وأحيانًا على بَكرٍ أخينا ∴ إذا ما لم نَجِد إلا أخانا

إن بشارًا يريد أن يذيع في العرب جميعهم دونما استثناء ، أمواتًا وأحياء ، بأنه ذو حسب ونسب .. وهنا يظهر جليًّا أن مسألة الأنساب هذه كانت نقطة ضعف خطيرة لدى الموالي تؤرقهم وتقض مضاجعهم .. فاعتزاز العربي بنسبه والحط من شأن الموالي الذين لا نسب لهم أمر ما كان ينبغي أن يظهر بهذه الصورة في مجتمع ذاخر بشتى الجنسيات .. وكان على العرب أن يلتفتوا إلى تعاليم الإسلام والتطبيقات العملية للرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ، فيتأسوا بهم ،

---

(١) راجع كتابنا : قراءة جديدة في نصوص قديمة (خطبة حجة الوداع) فقد سقنا عددًا من الأدلة تثبت ما ذهبنا إليه .



ويطرحوا تلك العصبية المقيتة .. ألم يقل الرسول ﷺ عن سلمان الفارسي : « **سلمان منَّا آل البيت** » ؟! ألم يؤثر الرسول ﷺ بلالاً الحبشي بالأذان في مسجده ﷺ ؟!

... الخ الخ .

إن بشارًا فيما يظهر نظم هذه القصيدة بعد أن تكررت اعتداءات العرب عليه ، وحطهم من شأنه ، وهو يرد عليهم بأن حسبه يعلو أحسابهم .. فجدّه كسرى ، وساسان أبوه ، وقيصر خاله ..

إن آبائي متوجون كرام ، سادة وأمراء .. كان الناس يدخلون عليهم فيركعون احترامًا وتقديرًا .. وكانوا يلبسون التيجان مرصعة بالجواهر الثمينة .. ويرتدون الفراء الغالية التي لا يقدر عليها إلاّ هم .

كما أنهم يشربون في آنية الذهب والفضة ، يسعى بها عليهم الغلمان والخدم .. ويشربون أجود أنواع الخمور المعتّقة الصافية غير المخلوطة ، بينما أولئك يشربون في جلود الإبل أو الخشب يُحلب لهم فيها ..

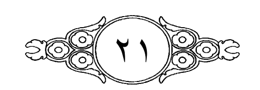
وهؤلاء الأعراب الرعاة يسعون خلف البعير الأجرب ، ويكسرون الحنظل المر ليستخرجوا ما فيه ليأكلوه ، أو يكلوا الضب الضخم السام ، الذي يحاول الإفلات بتحريك ذنبه ..

ولا جلس آباؤنا وأجدادنا مفرقين أرجلهم ليستدفئوا بالنار من شدة البرد ..

هانحن ، وهاأنتم .. إنا نحن الملوك ولم نزل ..

ويبيّن أياديهم على الدولة العباسية التي قامت على أكتافهم ، حيث بدأت الدعوة في (بلخ) دار الإمارة بخراسان .

وأخذوا يتتبعون مروان بن مُحمّد حتى أسقطوه ، وفي سبيل ذلك



انطلقت جيوش الفرس صوب الشام ثم مصر .. وهناك استولوا على مصر فعوضوا ما افتقدوه من ملكهم المسلوب ..

وهم يعتقدون أنهم إنما فعلوا ذلك ليردوا الحق إلى أصحابه ، فالخلافة حق لبني هاشم ، كان الأمويون قد اغتصبوها منهم .

وفي نهاية القصيدة يهنئ بني العباس بالخلافة ، ويبدي شماتته في الأمويين ، ويتهمهم بالعداء للهدى والدين .. وأن ما حدث لهم إنما هو الجزاء العادل .. ويفخر بانتسابه إلى الفرس ..

وهكذا أظهر بشار كراهيته للأمويين من جهة ، وأبان عن دور أهل فارس في قيام الدولة العباسية ، وكأنه يُذكّر الخلفاء بألاّ ينسوا هذه اليد ، وأن يدفعوا عنهم ظلم العرب الذي كان سببًا أساسًا في ضياع دولة الأمويين ، وهو يتحدث بلسان الموالي جميعًا ، فيطلب إلى الخلفاء من طرف خفي أن يضربوا بيد من حديد على أولئك الأعراب الذين يثيرون هذه النعرات العصبية البغيضة ..

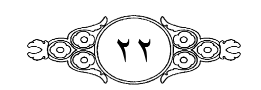
ملاحظات على القصيدة :

* السهولة الشديدة التي تغيّاها بشار ، وكأنه يريد أن تنتشر بين سائر الموالي ، فتكون لسانهم جميعًا في الفخر بأصولهم ، ومحاولة إسكات الأعراب الذين يحاولون الحط من الموالي ومن كل ما ليس عربيًّا .

إنه يريد أن تكون هذه البائيّة بين الموالي مثل معلقة عمرو بن كلثوم بين قبيلة تغلب .

وهاهي ذي **الشّعبيّة** تعانق **الشُّعُوبيّة** ..

* لم يبدأ بشار قصيدته بطلل أو مقدمة تقليدية ، بل إنه لم



يصرع المطلع ، ويبدو لي أنه هنا متمرد على التقاليد العربيّة في القصيدة القديمة .. فكيف ينهج نهجهم وهو يرفض سلوكياتهم ومعاملاتهم ؟! إنه هنا يذكرنا بالصعاليك الجاهليين (ذؤبان العرب) الذين تمردوا على قبائلهم ، فخُلعوا منها ، أو خرجوا بإرادتهم ، وكانت لهم تقاليدهم الشعرية الخاصة .

* تحقق في القصيدة – نتيجة للاستغناء عن المقدمات – الوحدة الموضوعية ، فالقصيدة تدور حول موضوع واحد – من بدايتها إلى نهايتها – وهو الموازنة بين الحياة العربيّة والحياة الفارسية .
* يلفت النظر في القصيدة ويسترعي الانتباه : التكرار ..

(كم لي .. وكم لي ..) ، ولا (سبع مرات) بالإضافة إلى (كلا) و(لم) وهو يشعرك أنه مغيظ محنق ، ولكنه حين ينفي عن قومه كُلّ هذه الأفعال .. لم يقل بطريق مباشر إنها صفات العرب ؛ لأنها مشهورة معروفة .. فلا يزال بشار مالكًا نفسه عند الغضب ..

ثم يكرر ضمير المتكلم (أنا – نحن) .. ومن ثَمّ فهو قد نصّب نفسه متحدّثًا رسميًّا عن الموالي والشُّعُوبيين .. وهم يقرون له بذلك ..

* القصيدة بُنيت على الباء المكسورة ، وهذا – في رأيي – يكشف عن النفس المنكسرة المحبطة ، رغم أن القصيدة فخرية .

ويعلق الدكتور مُحمّد النويهي على القصيدة قائلاً :

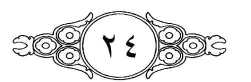
" هذه قصيدة واضحة الصِّدق العاطفي ، لكنها شديدة التفاوت الفني ، وفي أبياتها الأخيرة – بنوع خاص – ركاكة قلّ أن توجد في شعر بشار ، ويبدو أنه قد استمر ينظم حتى بعد

أن أتم عرضه الفني ، ولم يعرف متى ينبغي أن يقف ، وقد كان خليقًا بأن يعود على قصيدته بالتهذيب والحذف ... "[1] .

ونحن أسلفنا أن بشارًا قصد إلى ذلك قصدًا ، فكانت القصيدة شعوبيّة شعبيّة .. لقد أراد بشار أن تكون قصيدته بمثابة (نشيد الشُّعُوبية) يرددها كل الشُّعُوبيين : مثقفين وأميين ، رجالاً ونساء ، شبابًا وشبّانًا ، ولذلك تجدها بهذه الصيغة الشّعبيّة .. فليس فيها ألفاظ غريبة ، ولا صور بيانية تحتاج إلى إمعان نظر ، وإنما هي ميسورة لكل أحد ..

إن شُعْرُورًا يمكنه أن ينظم أفضل منها ، وهي بالقياس إلى أشعاره العالية لا تساوي شيئًا .. كما أنها أقرب إلى النثر منها إلى الشعر " .

(١) شخصية بشار ص٥٢ .



فلسفة القوّة في شِّعْر أبي تمّام

(فتح عَمُّوريَّة نموذجًا)

(١) أبو تمام

اسمه ونسبه[*] :

هو : حبيب بن أوس الطائي .. قال الأصفهاني[١] : " هو من نفس طيء صليبة ، ولد بقرية (جاسم) ناحية (مَنْبِج) قرب دمشق على الطريق منها إلى طبرية " .

اختلف في العالم الذي ولد فيه ما بين (١٧٢ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢) .

وقد نُسب إليه أنه قال : ولدت سنة ١٩٠هـ ، وذكر ابنه (تمام) أنه ولد سنة ١٨٨ .

زعم قوم أن أباه كان نصرانيًّا[٢] ، يُسمّى (تدوس) أو (ثدوس) أو (بدوس) أو (ثيودوثيوس) ، وأنه حرفه إلى (أوس) .

(*) راجع ترجمته وأخباره في : الأغاني ٢٨٣/١٦ (دار) ، ووفيات الأعيان ١١/٢ ، وأخبار أبي تمام ص٥٩ وما بعدها ، والنجوم الزاهرة ٢٦١/٢ ، والعصر العباسي الأوّل ص٢٦٨ – د/ شوقي ضيف ، والشِّعْر والشعراء في العصر العباسي ص٦٣١ وما بعدها – د/ الشكعة ، والشِّعْر العباسي ص٢٩١ وما بعدها – د/ أبو الأنوار ، ومن حديث الشِّعْر والنثر ص٩٣ – د/ طه حسين ، وأبو تمام الطائي – البهبيتي .

(١) الأغاني ٢٨٣/١٦ ، وأخبار أبي تمام ص٥٩ .

(٢) أخبار أبي تمام – للصولي ص٢٤٦ ، وتاريخ بغداد ٢٤٨/٨ .



وقد ذهب الدكتور طه حسين إلى ذلك[1] .

ومرجليوث سبقه إليه في ترجمته لأبي تمام بدائرة المعارف الإسلاميّة ..

وقال بروكلمان : إن اسم (تدوس) شائع بين نصارى السريان[2] .

ويبدو أن موقف أبي تمام في صراع المسلمين مع الروم ، ودعوته المسلمين للذود عن الحرمات ، واسترداد الحقوق المسلوبة ، والأراضي المغصوبة ، وتَشَفّيه فيهم عندما حقق المسلمون النصر عليهم .. كان السبب وراء حقد المستشرقين عليه ، وافتراءاتهم ضده[3] ..

* * *

(٢) دوافع اعتناق أبي تمام مذهب القوّة

(أ) ظروف نشأته :

ذكر مَن أرّخوا له أن أباه كان خمّارًا ، وقيل : كان عطّارًا ، وتُحدثنا مصادر ترجمته أن أبا تمام كان قد عهد به أبوه – وهو صغير – إلى حائك أو قزّاز بدمشق ليعمل صبيًّا عنده .. وقيل : كانت مهمته زخرفة الثياب وتزيينها ، وقد كان لذلك صدى في صناعة الشِّعْر عنده ..

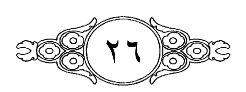
كانت الأسرة إذًا فقيرة ، رقيقة الحال ، وتفتحت عينا الطفل الصغير على تلك الحياة الضيقة .. وأصبح مضطرًّا للبحث عن وسيلة للارتزاق تغير حياته، فكان العزم على الرحيل.. فإلى أين يُولّي وجهته؟

---

(١) من حديث الشِّعْر والنثر ص٩٣ .

(٢) تاريخ الأدب العربيّ ٧٢/٢ .

(٣) الدكتور مصطفى الشكعة – تفسير وجيه لطعن الطاعنين في نسب أبي تمام .. الشِّعْر والشعراء ص٦٢٢ ، ٦٢٣ .



(ب) سفره إلى مصر :

اختار الفتى (مصر) دون غيرها من البلدان ، وكان يبغي تحقيق هدفين معًا : الغنى والثراء ، والثقافة والعلم والأدب .. وقد صرّح بذلك حين قال في إحدى قصائده :

وطال قطوني أرض مصر لحاجة ∴ يُقال لها أقبح بهائي وأسمج

كان الفتى وهو راحل إلى مصر تراوده أحلام اليسار والنعمة ، وتطليق حياة الفقر والضيق إلى غير رجعة .

وكان عمره آنذاك اثنتي عشرة سنة – كما رجّح البهبيتي – وربما كان عمره عشرين[1] .

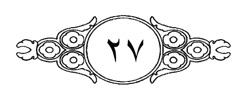
وهناك لازم حلقات العلم في مسجد (الفسطاط) الذي كان آنئذ موئلاً لطلاب العلم والدارسين ، إذ كان بمثابة جامعة ، ازدهر العلم في رحابها ، ونشطت الحياة الثقافية فيه نشاطًا عظيمًا .

لقد كانت مصر حينئذ قبلة للعلماء ، فقد نزلها (الشافعي) في تلك الآونة (١٩٥ أو ١٩٨هـ) ، وألف فيها كتبه العظيمة ، وكان قبله الفقيه المصري العظيم (الليث بن سعد) ثم (إسحاق بن الفرات) و(ابن هشام) الذي اختصر سيرة ابن إسحاق[2] ..

واستعان الفتى على ضرورات الحياة بسقاية الماء في المسجد ، وصرف

(١) أبو تمام الطائي – البهبيتي .. وانظر مقالة الدكتور مُحمّد عبد المنعم خفاجي بعنوان (جامعة الفسطاط الجامعة الأولى في مصر الإسلامية) – مجلة فكر وإبداع – العدد ٢ مايو ١٩٩٩م ص١٠٩-١١٥ .

(٢) أبو تمام الطائي – البهبيتي .. وانظر مقالة الدكتور مُحمّد عبد المنعم خفاجي بعنوان (جامعة الفسطاط الجامعة الأولى في مصر الإسلامية) – مجلة فكر وإبداع – العدد ٢ مايو ١٩٩٩م ص١٠٩-١١٥ .



كُلّ همّه إلى تحصيل العلم ، فكان (يسقي الماء ، ويشرب العلم)[1] .

ويبدو أنه أحب السفر بعد ذلك ، فتعددت أسفاره ، وكان لذلك صداه في شعره .. وظل سائحًا ما بين مصر ، والشام ، والعراق ، فكانت أوطانه ظهور العيس ، يقول الدكتور طه حسين[2] : " ومما لا شك فيه أن هذا السفر المتصل إذا صادف عقلاً كعقل أبي تمام ، وقلبًا كقلبه ، وشعورًا رقيقًا حادًّا كشعوره ، ترك في هذا العقل ، وفي هذا القلب والشعور أشد الأثر وأحدّه ، ظهر هذا كله في شعره " .

كانت نشأته الفقيرة ، واضطراره إلى الكفاح منذ نعومة أظفاره ، وجهاده المتصل في سبيل تحسين مستوى حياته .. كُلّ ذلك – بالضرورة – قد حرمه من اللهو واللعب الطفولي البريء .

" إن جهاد الوحيد في مضطرب الحياة جهاد ثقيل مُضْنٍ ، وخاصة إذا بدأه وغصنه رطيب ، فإن هذا الكفاح مهما ينته بالنصر ، يترك في القلب كلْمًا داميًا أبدًا ، فبسمة النصر تمزجها الذكرى بعبوس الألم ، وشعور صاحبهما بين فرح وقور شاك ، أو حزن هادئ مبتسم ، ولكم يطبع الكفاح الأوّل الحياة كلها بطابع أبدي ... "[3] .

وهكذا " نزل أبو تمام مصر طفلاً لم ييفع يطلب الغنى ، فوهبت له علمًا ، وغمرت قلبه نورًا ، وفتحت عينيه على دنيا جديدة ، وأشاعت فيه أملاً واسعًا ، ولكنها لم تهب له من المال ما كان يطمح إليه .

(١) أبو تمام الطائي .
(٢) من حديث الشِّعْر والنثر ص٩٩ ، ١٠٠ ، والشِّعْر العباسي ص٢٩٢ – د/ أبو الأنوار .
(٣) أبو تمام الطائي ص٧٩ .



" وقذفت به إلى الدنيا بعد أن أعدّته أحسن الإعداد ، وزوّدته بسراج يستعين به على اقتحام الدهر وأحداثه ، ولكنه كان ممدود اليدين ، يريد أن ينال بهما جميعًا ، فلما لم يجد بإحداهما ما طلب ، ألهاه ذلك عمّا باليد الأخرى ، فانفتل غاضبًا في شيء من يأس الشباب ، ولكنه لم يكن نذلاً ، فلم يخلط بين الوطن الذي آواه ، وبين الرجل الذي ضنّ عليه ... "(١) .

(ج) حب المغامرة ، والهمة العالية ، والعزيمة الماضية :

تلك هي مفاتيح شخصية أبي تمام .. فهو مغامر منذ حداثة سنه ، وأوّل مغامراته سفرته إلى مصر ، التي – وإن لم يحقق فيها الثراء المنشود إلاّ أنه – حقق ما هو أغنى وأبقى ، إنه العلم والأدب .. فقد بدأ نجمه يبزغ في سمائها ..

وهو يدرك أن الراحة الكبرى لا سبيل إليها إلاّ بالتعب والنصب ، أليس هو القائل للمعتصم(٢) :

بَصُرتَ بِالراحَةِ الكُبرى فَلَم تَرَها ∴ تُنالُ إِلّا عَلى جِسرٍ مِنَ التَعَبِ

ويقول لعاذلته(٣) :

أَعاذِلَتي ما أَخشَنَ اللَيلَ مَركَبًا ∴ وَأَخشَنُ مِنهُ في المُلِمّاتِ راكِبُه
ذَريني وَأَهوالَ الزَمانِ أُفانِها ∴ فَأَهوالُهُ العُظمى تَليها رَغائِبُه
أَلَم تَعلَمي أَنَّ الزِماعَ عَلى السُرى ∴ أَخو النُجحِ عِندَ النائِباتِ وَصاحِبُه
دَعيني عَلى أَخلاقِيَ الصُمِّ لِلَّتي ∴ هِيَ الوَفرُ أَو سِربٌ تُرِنُّ نَوادِبُه

---

(١) أبو تمام الطائي ص٨٩ ، ٩٠ .. ويبدو أن فيه تعريضًا بالمتنبي حين نزل مصر طامعًا في ولاية ، فلما لم يحقق (كافور) أمله انطلق غاضبًا من مصر وواليها ، وكان هجاؤه لمصر وللمصريين وللوالي .
(٢) البائية .. وسيأتي البيت .
(٣) الديوان ١/٢١٨-٢٢٠ ق١٦ .



فَـــإِنَّ الحُســـامَ الهُنـــدُوانِيَّ إِنَّمـــا ∴ خُشــونَتُهُ مــا لَــم تُفَلَّــل مَضــارِبُه

إنها نفس مفعمة بالقوة ، ممتلئة بالبسالة ، عاشقة للمغامرة ، مولعة بركوب الأهوال ، كارهة للخمول والكسل .

وشعره ذاخر بهذه المعاني الدالة على علو الهمّة ، ومضي العزيمة .. وهو يذكرنا في هذه الأبيات بشعر (عروة بن الورد) الصعلوك الجاهليّ القائل(١) :

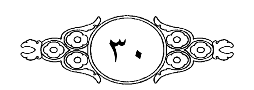
دَعينــي أُطَـوِّف فــي الـبِلادِ لَعَلَّنــي ∴ أُفيـدُ غِنـىً فيـهِ لِـذي الحَـقِّ مُحمِـلُ
أَلَـــيسَ عَظيمًـــا أَن تُلِـــمَّ مُلِمَّـــةٌ ∴ وَلَـيسَ عَلَينـا فـي الحُقـوقِ مُعَـوَّلُ
فَـإِن نَحـنُ لَـم نَملِـك دِفاعًـا بِحـادِثٍ ∴ تُلِـمُّ بِــهِ الأَيّــامُ فَــالمَوتُ أَجمَــلُ

لقد أيقن أبو تمام أن " الحياة حرب ضروس ، علاقة الإنسان فيها بالإنسان علاقة المقاتل بالمقاتل ، فهو يركب سنانًا من صنعته في كُلّ قناة ينبتها الزمان ، وما المَوَدّة فيها إلاّ حيلة من حيل الحروب ، أو هدفه في حومة القتال ... "(٢) .

مثل هذه الشخصية لا تستسلم لهزيمة ، بل " إذا هزم في الحياة لم يصخب كما يصخب تلميذه المتنبي ، وإنما يستقبل الحياة بعد أن تذهب عنه سورة اليأس الأولى ، في رضى بما فيها ، وقناعة بما تنيله من عطائها ، قلّ أو كثر "(٣) .

ولذا لاقى الزمان محاربًا ، لم يحْن رأسه لعاصفة ، وإنما يقف

(١) ديوان الحماسة – شرح التبريزي ٢/٤٥ ، ٤٦ .
(٢) العقاد – مطالعات ص٤٠٩ .
(٣) البهبيتي ص٣٩ .



كالطود الأشم ، يقول[١] :

وَغَرَّبْتُ حَتّى لَم أَجِد ذِكرَ مَشرِقٍ ⠐ وَشَرَّقتُ حَتّى قَد نَسيتُ المَغارِبا
خُطوبٌ إِذا لاقَيتُهُنَّ رَدَدنَني ⠐ جَريحًا كَأَنّي قَد لَقيتُ الكَتائِبا

إلى أن يقول :

وَكُنتُ امرَءًا أَلقى الزَمانَ مُسالِمًا ⠐ فَآلَيتُ لا أَلقاهُ إِلّا مُحارِبا

(د) حدة الطبع والشعور ، والاعتداد بالنفس :

كان أبو تمام حادّ الطبع ، حادّ الشعور ، وهذا من عوامل قوة شخصيته ، وشدة استعلائه ، حتى ذهب بعض الدارسين إلى أن (المتنبي) – وهو مشهور بذلك – كان يقلّد أبا تمام[٢] .

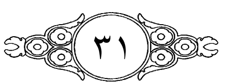
وتروي الكتب التي ترجمت له شاهدًا على ذلك ، وهو : ترفعه عن قبول ألف دينار ، كأفأه بها الأمير أبو العباس ، حيث نثرها عليه ، فلم يُعِرْها اهتمامًا ، والتقطها الغلمان ، مما أغضب الأمير[٣] .

وأبو تمام يرى شعره أعظم وأجل من ممدوحه ، يقول في إحدى مدائحه[٤] :

خُذها مُغَرِّبَةً في الأَرضِ آنِسَةً ⠐ بِكُلِّ فَهمٍ غَريبٍ حينَ تَغتَرِبُ
مِن كُلِّ قافِيَةٍ فيها إِذا اجتُنِيَت ⠐ مِن كُلِّ ما يَجتَنيهِ المُدنَفُ الوَصِبُ
الجِدُّ وَالهَزلُ في تَوشيعِ لُحمَتِها ⠐ وَالنُّبلُ وَالسُّخفُ وَالأَشجانُ وَالطَّرَبُ
لا يُستَقى مِن جَفيرِ الكُتْبِ رَونَقُها ⠐ وَلَم تَزَل تَستَقي مِن بَحرِها الكُتُبُ
حَسيبَةٌ في صَميمِ المَدحِ مَنصِبُها ⠐ إِذ أَكثَرُ الشِعرِ مُلقىً ما لَهُ حَسَبُ

---

(١) الديوان ١/١٤٠-١٤٣ .
(٢) راجع : الشِّعْر العباسي ص٢٩٤ – د/ أبو الأنوار .
(٣) راجع : الأغاني ٣٠٨/١٦ ، والديوان ٢١٦/١ ق١٦ ، وأبو تمام الطائي ص١٢١ .
(٤) الديوان ٢٥٨/١ ، ٢٥٩ ق١٨ .



(هـ) عصــــره :

كان عصر أبي تمام عصر المتناقضات ، فهو عصر اللهو والمجون ، والزهد والتصوف ، والترف والثراء والنعيم ، والفقر والحاجة والخصاصة .. يقول أحمد أمين : " وتنصف إن اعتقدت أن الحياة كانت ذات صنوف وألوان ، وأن المدنية العباسية كانت ككل المدنيّات : مسجد وحانة ، وقارئ وزامر ، ومتهجد يرتقب الفجر ، ومصطبح في الحدائق ، وساهر في تهجد ، وساهر في طرب ، وتخمة من غنى ، ومسكنة من إملاق ، وشك في دين ، وإيمان في يقين ... كُلّ هذا كان في العصر العباسي " .

وما أدق تصوير العقاد لذلك القرن – الثّالث الهجري – حين قال مقتبسًا كلام (تشارلز دكنز) في الثورة الفرنسية[1] : " كان أحسن الأزمان ، وكان أسوأ الأزمان ، كان عصر الحكمة ، وكان عصر الجهالة ، كان عهد اليقين والإيمان ، وكان عهد الحيرة والشكوك ، بين أيدينا كُلّ شيء ، وليس بين أيدينا شيء قط " .

" ... كانت الدولة أشبه بالمرج الأخضر ، ينمو فيه الحب والفاكهة ، والشوك والعشب المسموم ، خضرة زاهية فيها الغذاء والسم ، اختلطا اختلاطًا لا سبيل فيه إلى التنقية والتمييز ، فهو العصر الذي بلغ فيه كُلّ شيء أقصاه ، وأثمر كُلّ عمل نتاجه المحتوم .. فبدا التمام وبدا النقص في حين واحد .. واجتمع خليط من عوامل القوة والضعف ، والبشارة والإنذار ، فكان نسيجًا من ألوان الزمان ، لا تشبع

(١) اللّغة بين البلاغة والأسلوبية ص٣١٠ وما بعدها – د/ مصطفى ناصف .



منه عين الفنان ولا رؤية الحكيم " .

" من الصعب أن تجد في تشخيص بعض أطوار الثقافة العربيّة موقفًا أو نمطًا يعدل هذا النمط العقلي والوجداني الذي اجتمع لباحث شاعر " ..

" ومن الصعب أن نقرأ شعر أبي تمام بمعزل عن هذا التقرير ... "[1] .

إنه عصر مصطبغ بالدم ، أحد خلفائه يلقب بـ (السّفّاح) ، " وأبو تمام ثمرة هذا العصر بخيره وشره ، فشعر أبي تمام مصطبغ بالدم كما كان عصره مصطبغًا بالدم ، ولا يكاد يثير شاعريته شيء كما تثيرها الحروب والدماء .. وأجمل شعره وأعرقه في الشّاعريّة هو الذي يصف فيه خرابًا أو تحريقًا "[2] .

(و) عفته ووقاره ، وصدقه مع نفسه وممدوحيه :

مما جعل ممدوحيه يُكْبرونه ويُقدّرونه ؛ لأنه لم يكن طامعًا في عطاياهم ، بقدر ما كان معجبًا بشخصية الممدوح وفعاله ..

لربما كان المال هدفًا له في بدء حياته حينما رحل إلى مصر – كما أسلفت – إلاّ أن همّته علت ، وآماله سمت .. فصار همّه الأكبر رد الظلم ودحر المعتدين .

ولذا ظهرت فلسفة القوة عنده في مدائحه ، فممدوحوه تجسدت فيهم البطولة ، فكان هذا سر توفيقه في مدائحه ، تلك التي نستطيع " أن نصنع من مجموعها ملحمة إسلامية ، تعدّد البطولات ، وترسم الغزوات ، لو انتظم عقدها في كتاب لكانت أسبق من (الشاهنامة) في

---

(١) اللّغة بين البلاغة والأسلوبية ص٣١٠ وما بعدها – د/ مصطفى ناصف .
(٢) أبو تمام الطائي ص٢٠٤ .



وصف الأمجاد والمفاخر ... "[1] .

وعلى يدي أبي تمام تحول المدح الذي كان يدور قبله ، حول جود الممدوح وعطاياه وكرمه ، استحال إلى تصوير البطولة ، في عهد كان أبرز خلال الممدوح فيه قدرته في الحرب ، وإصابته في الرأي ..

" فممدوح أبي تمام يرتسم أمامك بطلاً من أبطال القصص ، مستوفي الأركان والشرائط ، واضح السمات ، ترتفع به النفس ، ولا تنحط به الكرامة "[2] .

* * *

(٣) أصداء إيمانه بمبدأ القوة

(أ) غموض شعره :

حين نتصفح ديوان الشِّعْر العربيّ نجد أن مثل هذه النفس العاشقة للقوة تسمو بالشِّعْر ، وتحلق به ، ولا تعبأ إلاّ بأولي الألباب ، الذين يستحقون أن يَفْتَنَّ لهم هؤلاء الشعراء .

فالشعر في نظرهم أكبر وأسمى من أن ينزل إلى طبقة دونهم في الثقافة والفكر .. ومهمة الشِّعْر وغايته أروع من أن تفهمها الطبقة الدونية .

هذه النماذج من الشعراء لا تعبأ إذًا بسيرورة شعرهم بين الدهماء ..

ومن أبرز النماذج لذلك : الفرزدق ، ومن أعلاهم وأرفعهم شاعرنا أبو تمام .

---

(١) المديح ص٥٨ – سامي الدهان – دار المعارف .

(٢) تاريخ الشِّعْر العربيّ حتى آخر القرن الثّالث الهجري ص٤٩٣ ، ٤٩٤ – نجيب مُحمّد البهبيتي – دار الفكر – مكتبة الخانجي – ط/ رابعة ١٩٧٠م .



لقد رأى أبو تمام أن الشِّعْر ليس لكل الناس ، وإنما هو لطبقة معينة منهم ، تتميز هذه الطبقة على مَن عداها بسمو التفكير ، وعمق الثقافة ، وتنوع المعرفة .

وتبعًا لذلك كان الشِّعْر لديه مزيجًا من العقل والعاطفة ، والفكر والشعور .. ومواقفه مع النقاد في هذا الصدد تشهد بقوة شخصيته ، وإيمانه بصحة معتقده في الشِّعْر ، فهو لم يبال بنقدهم له ، ومآخذهم عليه .. على أنهم أكثروا في ذلك :

- قال ابن الأعرابي – وأنشد شعرًا لأبي تمام – : " إن كان هذا شعرًا فما قالته العرب باطل "[(١)] .
- وقال دعبل بن عليّ الخزاعي[(٢)] : " لم يكن أبو تمام شاعرًا ، وإنما كان خطيبًا ، وشعره بالكلام أشبه منه بالشِّعْر " .
- وأحيانًا كان يفحمهم فلم يستطيعوا جوابًا ، ومن ذلك :

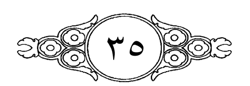
أنهم أرسلوا له غلامًا يقول له : " يا أبا تمام ابعث لنا شيئًا من ماء الملام ... "[(٣)] ، فكان أن ردّ عليهم : " ابعثوا لي ريشة من جناح الذل " .

فهو يقول لهم : إنكم لم تفهموا شعري ، ولم أخترع تلك الاستعارات ، بل نظرت فيها إلى أفصح الكلام وهو القرآن الكريم ، فيتهمهم إذًا بالعجز عن تدبر كتاب الله .

---

(١) الموشح ص٤٦٥ ، ٤٦٦ ، وأخبار أبي تمام ص٢٤٤ .
(٢) أخبار أبي تمام – للصولي ص١٠٤ ، ١٠٥ ، والموازنة ص٤ .
(٣) يقصدون قوله : =

= **لا تَسقِني ماءَ المَلامِ فإنّني ∴ صَبٌّ قَدِ استَعذَبتُ ماءَ بُكائي**
الديوان ١/٢٢ ق٢ .



- وحين قال له أبو العميثل : " يا أبا تمام ، لم تقول ما لا يُفهم ؟ " ، فقال : " ولم لا تفهمون ما يُقال ؟ " .

وهو يذكرنا بشخصية الفرزدق حين قال للنقاد : " عليّ أن أقول ، وعليكم أن تحتجوا " .

كان أبو تمام ماضيًا نحو التجديد الشِّعْريّ ، ضاربًا عرض الحائط بكل صوت يعوقه عن ذلك ، ويعطل مسيرته .

ولا ينبغي أن يغيب عنا ما كان لهؤلاء النقاد من قدر ومكانة لدى الخلفاء ، فكان الشعراء يعملون لهم ألف حساب ، إذ كانوا جواز مرور الشِّعْر والشعراء إلى الحكام والمتلقين .. لكن ذلك كله لم يكن يعني أبا تمام ، أو يشغل نصيبًا من اهتمامه ..

وإن القارئ لشعره يدرك أن له من ورائه غايات ممزوجة بفلسفة القوة عنده ، تأمل قوله[1] :

خُذها مُثَقَّفَةَ القَوافي رَبُّها ... لِسَوابِغِ النَّعماءِ غَيرُ كَنودِ
حَذّاءُ تَملَأُ كُلَّ أُذنٍ حِكمَةً ... وَبَلاغَةً وَتُدِرُّ كُلَّ وَريدِ
كَالطَّعنَةِ النَّجلاءِ مِن يَدِ ثائِرٍ ... بِأَخيهِ أَو كَالضَّربَةِ الأُخدودِ
كَالدُّرِّ وَالمَرجانِ أُلِّفَ نَظمُهُ ... بِالشَّذرِ في عُنُقِ الفَتاةِ الرودِ
كَشَقيقَةِ البُردِ المُنَمنَمِ وَشيُهُ ... في أَرضِ مَهرَةَ أَو بِلادِ تَزيدِ

فانظر بتمعن بيتيه الثّاني والثالث ، تجده شبه قوافيه بالصواعق المرسلة ، أو السيوف الباترة ، والرماح المصوّبة .

(١) الديوان ١/٣٩٧ ، ٣٩٨ ق٣٧ .



(ب) وطنــــه :

كان وطن أبي تمام هو المكان الذي تتحقق فيه آماله ، وقد اعتقد ذلك وآمن به مذ ترك وطنه مهاجرًا إلى مصر .. ولذلك تجده يحث على السفر والترحال ، يقول[1] :

وَلَكِنَّني لَم أَحوِ وَفرًا مُجَمَّعًا ∴ فَفُزتُ بِهِ إِلّا بِشَملٍ مُبَدَّدِ
وَلَم تُعطِني الأَيّامُ نَومًا مُسَكِّنًا ∴ أَلَذُّ بِهِ إِلّا بِنَومٍ مُشَرَّدِ
وَطولُ مُقامِ المَرءِ في الحَيِّ مُخلِقٌ ∴ لِديباجَتَيهِ فَاغتَرِب تَتَجَدَّدِ
فَإِنّي رَأَيتُ الشَمسَ زيدَت مَحَبَّةً ∴ إِلى الناسِ أَن لَيسَت عَلَيهِم بِسَرمَدِ

وليس عجيبًا أن ترى مثل هذه الشخصية وطنها في المكان الذي تحقق فيه هدفها ، فمن قبله خرج (طرفة بن العبد) متمرّدًا ، معتزًّا بنفسه[2] .. ومن بعده خرج (المتنبي)[3] ، يضرب في الأرض الواسعة ، باحثًا عن وطن يحقق فيه مراده ، ويحيل حلمه علمًا ، وقال في ذلك[4] :

غَنِيٌّ عَنِ الأَوطانِ لا يَستَفِزُّني ∴ إِلى بَلَدٍ سافَرتُ عَنهُ إِيابُ

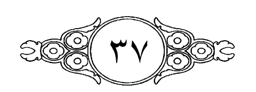
(ج) روح التشفي والانتقام :

وقد ظهر ذلك واضحًا في كثير من قصائده ، ففي البائية نجده في مشهد خراب عمورية ، كما نجده في قوله مادحًا مُحمّد بن يوسف الطائي[5] :

قَسَمناهُم فَشَطرٌ لِلعَوالي ∴ وَآخَرُ في لَظىً حَرِقِ الوَقودِ
كَأَنَّ جَهَنَّمَ انضَمَّت عَلَيهِم ∴ كِلاها غَيرَ تَبديلِ الجُلودِ

---

(١) الديوان ٣٩٧/١ ، ٣٩٨ ق٣٧ .
(٢) راجع كتابنا : تمرد طرفة .
(٣) راجع كتابنا : ميمية المتنبي .
(٤) ديوانه ٣١٦/١ ، وراجع : ميمية المتنبي ص٣٦ ، ٣٧ .
(٥) الديوان ٣٩/٢ وما بعدها .



وكان ذلك أوضح في قصيدته الرائية في حرق (الأفشين)[1] .

الصراع مع الروم وموقعة عموريّة

(أ) الصراع مع الروم :

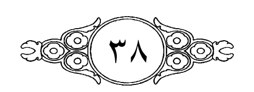
هذا الصراع قديم ، منذ عصر صدر الإسلام ، حيث انطلق المسلمون ينشرون دين الله في ربوع الأرض ، وكان للروم سلطانهم ، يتقاسمون مع الفرس سيادة العالم .. وقد بعث الرسول ﷺ (الحارث بن عمير الأزدي) إلى (شرحبيل بن عمرو الغساني) حاكم (بصرى) التابع لقيصر ملك الروم بكتاب .. فأوثقه رباطًا ، ثم قدّمه ، فضرب عنقه ..

وكان لابد من تأديبه ، فجهز الرسول ﷺ جيشًا في السنة الثّامنة للهجرة .. وكانت غزوة (مؤتة)[2] .

ثم توالت المواجهات بعد وفاة الرسول ﷺ إلى يومنا هذا .. وتاريخ الصراع مع الروم يشهد بانعدام ضمائرهم ، وغياب الإنسانية عنهم ، فهم لا يرقبون في مسلم إلاً ولا ذمّة : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة : من ١٢٠) ، ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (آل عمران : من ١١٨) .

وما أكثر نقضهم للعهود ، وخيانتهم المواثيق .. ولذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ

(١) السابق ٢٧/٢ ، وانظر : ١٧/٢ ، ٨٦/٣ ، ١٤/١ ، ١٥ ... وغيرها .
(٢) راجع : السِّيرة النّبويّة – أبو الحسن الندوي ص٢٧٧ وما بعدها ، وزاد المعاد =
= لابن القيم ، وكتب السيرة .



﴿قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ۝١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ (التوبة : ١٤ ، من ١٥) .

وفي العصر العباسي عاث الروم فسادًا في الأرض ، فهتكوا الأعراض واستحلوا الحرمات ، وكان للعباسيين معهم صولات وجولات .

ففي عهد (المهدي) ساءت العلاقات بين العرب والروم ، فأرسل ابنه (هارون الرشيد) لتأديبهم ..

وكان (أبو سعيد الثغري) قد انتصر عليهم في إحدى المعارك ، فامتدحه أبو تمام ، وأثنى على شدة عزمه ، وقوة إصراره ، قائلاً[1] :

لَقَدِ انصَعتَ وَالشِتاءُ لَهُ وَجـ ـهٌ يَراهُ الكُماةُ جَهمًا قَطوبا

طاعِنًا مَنحَرَ الشَمالِ مُتيحًا .:. لِبِلادِ العَدُوِّ مَوتًا جَنوبا

في لَيالٍ تَكادُ تُبقي بِخَدِّ الـ ـشَمسِ مِن ريحِها البَليلِ شُحوبا

فَضَرَبتَ الشِتاءَ في أَخدَعَيهِ .:. ضَربَةً غادَرَتهُ عَودًا رَكوبا

لَو أَصَخنا مِن بَعدِها لَسَمِعنا .:. لِقُلوبِ الأَيّامِ مِنكَ وَجيبا

أرأيت كيف صور هذا الانتصار على الصليبيين ؟ ولو أن أبا تمام كان نصرانيًّا لما سعد كُلّ هذه السعادة ، وانتشى كُلّ هذا الانتشاء ..

بل إن موقفه من صراع العرب مع الروم كان – فيما يبدو – السبب وراء اتهامه بالنصرانية – كما أسلفت – ..

(ب) معركة عمورية في التاريخ(*) :

تولى المعتصم الخلافة ، وكانت هناك فتنة كبرى قائمة منذ عهد

---

(١) الديوان ١/١٦٥ ، ١٦٦ .

(*) راجع لذلك : تاريخ الطبري ٩/٥٥ – دار المعارف – مصر ، وفتوح البلدان للبلاذري ١/٢٢٨ – تح/ د/ صلاح الدّين المنجد – مكتبة النهضة المصرية ، وتاريخ ابن خلدون ٣/٢٦٢-٢٦٤ – مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت ١٩٧١م .

المأمون ، يتزعمها (بابك الخرمي) الذي رفع راية التمرد والعصيان ضد الخلافة العباسية .. وقد تحصّن بالجبال ، وأعمل القتل والسلب والتمثيل بمَن لم يتبعه .. ولم تستطع جيوش المأمون القضاء على هذه الفتنة ، إذ كان (بابك) يستغل انشغال جيوش المسلمين ضد الروم فيشن هجماته ..

حتى جاء (المعتصم) فركّز كُلّ جهوده للقضاء على هذه الفتنة ، واستغل (بابك) ذلك وأرسل إلى (تيوفيل) قائد الروم يحثه على الهجوم على أراضي المسلمين المشغولين بـ (بابك) ..

واهتبل (تيوفيل) الفرصة فأوقع بأهل (زِبَطْرة) فأسرهم ، وخرّب بلدهم ، ومضى من فوره إلى (ملطية) فأغار على أهلها ، وسبى من المسلمات – فيما قيل – أكثر من ألف امرأة ، ومثّل بمَن صار في يده من المسلمين ، وسمل أعينهم ، وقطع آذانهم ، وأنوفهم ..

فلما بلغ المعتصم ما فعله (تيوفيل) – وكان قد فرغ من قتال (بابك الخرمي) عن طريق قائده (الأفشين) – شخص إلى بلاد الروم ليستخلص القرى والأسرى من أيدي الصليبيين .

فكان فتح عمورية ، وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان ٢٣٣هـ – كما ذكر اليعقوبي – .

وكانت اعتداءات الروم قد هاجت مشاعر الشعراء ، فهبوا يستحثون أولي الأمر لوضع حدّ لتطاول الروم وإفسادهم ، فهاهو إبراهيم بن المهدي يقول[1] :

يا غَيْرة الله قد عاينْت فانتقمي ∴ تلك النساء وما منهن يُرتكب

---

(١) مروج الذهب – للسعودي ٤٧٢/٣ – دار الأندلس – بيروت ١٩٧٣م .

هـبِ الرجـال علـى إجرامهـا قُتِلَـتْ ∴ مـا بـال أطفالهـا بالـذّبْح تُنْتَهـبُ

وا معتصماه !

هذا نداء يَرِد على مسامع المسلمين كثيرًا ، فما أكثر النوازل ، وما أعظم المحن التي تنزل ببلاد المسلمين في هذا العصر !! **فلماذا المعتصم ؟**

لأنه استجاب للنداء الصادر من (زِبَطْرة) وهبّ من فوره يعدّ العدّة لتخليصها من الصليبيين .. وسواء أكان النداء صادرًا من امرأة عربية – شريفة أو من عامة المسلمين – أم كان صادرًا من المدينة بأكملها ، وسواء أكانت (زبطرة) مسقط رأس المعتصم أم لا .. المهم أنه لبّى النداء ، وبصُر بالراحة الكبرى ، وترك حياة الرفاهية والنعيم ، وقام لنجدة المسلمين .. وبذلك صار (المعتصم) رمزًا للإباء العربيّ ، والعزة الإسلاميّة ، يستدعيه الشعراء ، والأدباء ، والخطباء في كُلّ خَطْب يلم بالمسلمين ، أو اعتداء ينزل بهم ..

غير أن كتب التاريخ – أو بعضها – تأبى إلاّ أن تضع القارئ في شك وحيرة من أمر هذا الخليفة :

١ – فقد ذكر ابن الأثير : أن المعتصم بلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم : وا معتصماه ! فأجابها وهو جالس على السرير : لبيك ، لبيك ! ونهض من ساعته ، وصاح في قصره : النفير ! النفير !

٢ – وقال ابن العماد الحنبلي[1] : " كان المعتصم قاعدًا في مجلس أنسه ، والكأس في يده ، فبلغه أن امرأة شريفة في الأسر ، في

(١) شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب ص٦٣ ، ٦٤ .



(عمورية) عند الروم ، وأن آسرها لطمها على وجهها يومًا ، فصاحت : وا معتصماه !

فقال لها الرومي : ما يجيء إليك إلاّ على أبلق .. فختم المعتصم الكأس ، وناولها للساقي ، وقال : والله ما شربته إلاّ بعد فك الشريفة من الأسر ، وقتل آسرها .. ثم نادى العساكر المحمدية بالرحيل إلى غزو عمورية ، وأمر العسكر ألا يخرج أحد منهم إلاّ على أبلق ، فخرجوا معه في سبعين ألف أبلق .. ثم لما حضر قال للساقي : ائتني بكأسي المختوم ، ففك ختمه ، وشربه ، وقال : الآن طاب الشراب .. سامحه الله تعالى ، وجزاه خيرًا .

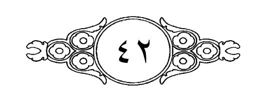
٣ – وقيل : إن المعتصم كان يتهيّأ من فترة لغزو شامل لبلاد الروم ، وعرف أن أمنع حصونها (عمورية) فهي عين النصرانية ، وأصلها ، وأشرف مكان عندهم .

وكان قد استحضر القضاة والشهود ، ووزّع أملاكه أمامهم أثلاثًا : ثلثًا لله تعالى ، وثلثًا لولده وأقاربه ، وثلثًا لمواليه .. وخرج في جيش عرمرم جرار سنة ٢٢٣هـ ، حتى أشرف على (عمورية) ، فحاصرها ، وكان عليها بطريق اسمه (ياطيس) .. وكان أبو تمام مرافقًا للجيش .

المنجمون :

كان المعتصم حين عزم على المسير قال له منجمو العرب : إنا نجد في كتبنا أنها لا تُفتح هذه الأيام .

أمّا منجمو الروم فقالوا : إنما يفتح مدينتنا أولاد الزنا ، فإن أقاموا فيها إلى زمن التين والعنب لم يفلت منهم أحد .



فلما بلغ المعتصم ذلك قال : أرجو أن يكفيني الله أمرهم قبل نضج التين والعنب .. ثم علّق على قولهم : " أولاد الزنا " بقوله : معي من أبناء الروم الكفاية ، ولم يعر كلام منجمي العرب اهتمامًا ، وأتم الله الفتح على المسلمين ، ووقع (ياطيس) في الأسر .

وبالنظر إلى هذه الروايات تستوقفنا عدة نقاط :

١ – أن امرأة – وقيل : شريفة – صاحت : وا معتصماه !

٢ – أن الكأس كانت في يده .. فناولها الساقي ، وقال : والله ما شربته إلاّ بعد فك الشريفة من الأسر .. ثم لما حضر قال للساقي : ائتني بكأسي المختوم ، ففك ختمه ، وشربه ، وقال : الآن طاب الشراب .

٣ – تعليق ابن العماد الحنبلي قائلاً : سامحه الله تعالى ، وجزاه خيرًا .

ونقول :

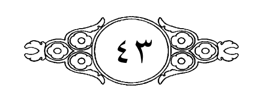
الأرجح الذي تقبله العقول من هذه الروايات : أن مدينة (زِبَطْرة) كانت هي المستغيثة التي صدر منها نداء (وا معتصماه) .. وقد تكرر هذا النداء مع اعتداءات الصليبيين عليها ، فالصوت الزبطري الذي ذكره أبو تمام في قوله :

لَبَّيـتَ صَـوتًا زِبَطرِيًّـا هَرَقـتَ لَـهُ ∴ كَأسَ الكَرى وَرُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

هو صوت (زِبَطْرة) .

مسألة الكأس هذه ، ربما اختُرعت لتوافق كلام أبي تمام في هذا البيت ، فكون الخليفة يشرب كأسًا – هي بالطبع كأس خمر أو نبيذ – يتناقض مع فعله :

* فلو أنه كان سكيرًا ما أجاب النداء ، ولرضخ لكلام المنجمين .



* ولو أنه كان كذلك لما جاهر بشربها .

ويؤيد ما ذهبنا إليه ما سقناه في الرواية الأخرى من أنه استحضر القضاة والشهود ، ووزع أملاكه ثلاثًا .. وكيف يشرب الخمر ثم يستعين بالله قائلاً : أرجو أن يكفيني الله أمرهم قبل نضج التين والعنب ؟!

ولو سلمنا بأنه كان كذلك قبل الغزو ، أمن اللائق أن ينصره الله ثم يعود لشرب الخمر بعد ؟!

على كُلّ حال : فالقصيدة " راية مركوزة أبدًا على قمة عالية في التاريخ ، وفي الشِّعْر ، وتمثل اعتزازًا قوميًّا عربيًّا ، ونخوة الخلفاء العباسيين "(١) .

ولذلك فإن الإمام (أحمد بن حنبل –**رحمه الله**–) – رغم تعذيبه على يد المعتصم – قد سامحه على ذلك ، وغفر له إيذاءه ؛ لأنه رفع راية الإسلام ، وذاد عن حياضه ، ودحر النصارى في عقر دارهم ..

وبقدر ما كان لهذه الوقعة من أثر هائل في تاريخ الصراع مع الروم ، فإن القصيدة البائية لأبي تمام قد خلدت هذا النصر ، وصارت وثيقة تاريخية في ذلك الصراع الممتد ..

ولعلها " أجود روميّات أبي تمام الثماني ، فهي شديدة الأسر للنفس ، وفيها أفرغ أبو تمام عاطفته الدينية والقومية ، حتى باتت تلك القصيدة تمثل روح الصراع بين العرب والروم ... "(٢) .

---

(١) دراسات في النص الشِّعْريّ – العصر العباسي – د/ عبده بدوي .

(٢) شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ – العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع ص١٨٣ – د/ نصرت عبد الرحمن – مكتبة الأقصى – عمان – ط/ أولى ١٩٧٧م .

إن " تلك الظروف المحيطة بهذه القصيدة ساعدت على تحويلها إلى (قصيدة مثالية) في نظر الأجيال المتعاقبة التي لا تفتأ تقارن لحظة الانتصار العربيّ والإسلامي في أي عصر من العصور بذلك الانتصار الذي حققه المعتصم عندما كانت الدولة الإسلاميّة في أوج عزها وقوتها " .

" ففي القوة يكمن المثل – الحلم ، واستحضاره في مخيلة الشّاعر ما هو إلاّ حنين إلى الماضي المجيد ، وأمل بالحاضر والمستقبل ، هذا الإحساس المزدوج : الحنين والأمل ، ظل ملازمًا لكل شاعر عربي منذ الحروب الصليبية إلى يومنا هذا " .

" وأبو تمام الذي عاش لحظة الانتصار ونشوته كرّس كُلّ قدراته ومواهبه الشِّعْريّة للتعبير عن فرحته الغامرة وعاطفته الدينية المتوقدة بعبارة شعرية قوية ، وكأنه يعلن فخره بمعاصرته لهذا البطل العظيم "[١] .

والقصيدة " فتح جديد في آفاق الشِّعْر العربيّ ، وهي درة فريدة من درر أبي تمام الكثيرة التي قالها في حياته القصيرة ، ولقد وضع فيها جل المعاني الحربية التي ركزت أساس شعر الحرب ، بحيث إن كُلّ مَن طرقوا باب شعر الحرب بعده – وفي مقدمتهم المتنبي – كانوا عيالاً على صوره ، أطفالاً على معانيه "[٢] .

---

(١) المعارضات الشِّعْريّة – دراسة تاريخية نقدية ص١٦٦ ، ١٦٧ – د/ عبد الرحمن إسماعيل السماعيل – النادي الأدبي – جدة .
(٢) الشِّعْر والشعراء في العصر العباسي ص٦٧٣ ، ٦٧٤ – د/ مصطفى الشكعة .



(١) النـــــص[*]

١ – السَّـيفُ أَصـدَقُ أَنبـاءً مِـنَ الكُتُـبِ ∴ فـي حَدِّهِ الحَـدُّ بَـينَ الجِـدِّ وَاللَعِـبِ[١]

٢ – بـيضُ الصَـفائحِ لا سـودُ الصَـحائِفِ فـي ∴ مُتـونِهِنَّ جَـلاءُ الشَّـكِّ وَالرِّيَـبِ[٢]

٣ – وَالعِلـمُ فـي شُـهُبِ الأَرمـاحِ لامِعَـةً ∴ بَـينَ الخَميسَـينِ لا فـي السَّـبعَةِ الشُّـهُبِ[٣]

٤ – أَيـنَ الرِوايَـةُ بَـل أَيـنَ النُجـومُ وَمـا ∴ صـاغوهُ مِـن زُخـرُفٍ فيهـا وَمِـن كَـذِبِ[٤]

٥ – تَخَرُّصًـا وَأَحاديثًـا مُلَفَّقَـةً ∴ لَيسَـت بِنَبـعٍ إِذا عُـدَّت وَلا غَـرَبِ[٥]

٦ – عَجائِبًـا زَعَمـوا الأَيّـامَ مُجفِلَـةً ∴ عَـنهُنَّ فـي صَـفَرِ الأَصـفارِ أَو رَجَـبِ[٦]

٧ – وَخَوَّفـوا النـاسَ مِـن دَهيـاءَ مُظلِمَـةٍ ∴ إِذا بَـدا الكَوكَـبُ الغَربِـيُّ ذو الـذَّنَبِ[٧]

(*) الديوان ١/٤٠ وما بعدها – القصيدة الثّالثة – شرح الخطيب التبريزي – تح/ مُحمّد عبده عزام – دار المعارف – ط/ خامسة .

(١) الحد الأوّل : للسيف ، والحد الثّاني : هو ما يفصل بين الشيئين .

(٢) الصفائح : السيوف العراض . جلاء : كشف الأمر ورفع الغطاء عنه حتى يظهر المستتر .

(٣) العلم : يقصد به هنا الخبر اليقين . شهب الأرماح : أسنتها . الخميس : الجيش . السبعة الشهب : زحل ، المشترى ، المريخ ، الشمس ، الزُّهرة ، عطارد ، القمر .

(٤) الزخرف : ما يعجبك من متاع الدنيا ، وربما خص به الذهب .. ويقال للقول المحسن المكذوب : زخرف لأنه يغر .

(٥) تخرصا : التخرص : الكذب والاختلاق وافتراء القول ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ (الذاريات : ١٠) . ملفقة : أي ضم بعضها إلى بعض وليست من شكل واحد . النبع : شجر صلب ينبت في رءوس الجبال وتصنع منه القسي والسهام . الغرب : شجر رخو هش ينبت على الأنهار ، والمقصود : أن أقوالهم ليس لها من الحقيقة أدنى نصيب .

(٦) مجفلة : أي ليس لهم فيها حظ فهي معرضة عنهم . صفر الأصفار : عظم شأنه لأنه ينتظر فيه أمر شاق ، كما يُقال : فارس الفرسان .

(٧) دهياء : داهية عظيمة . ذو الذنب : إشارة إلى مذنب هالي ، وكان قد ظهر في ذلك الزمان (أنيس المقدسي ص٥٦) .



٨ – وَصَـيَّروا الأَبـرُجَ العُليـا مُرَتَّبَـةً .·. مـا كـانَ مُنقَلِبًـا أَو غَيـرَ مُنقَلِـبِ[١]

٩ – يَقضـونَ بِـالأَمرِ عَنهـا وَهـيَ غافِلَـةٌ .·. مـا دارَ فـي فَلَـكٍ مِنهـا وَفـي قُطُـبِ[٢]

١٠ – لَـو بَيَّنَـت قَـطُّ أَمـرًا قَبـلَ مَوقِعِـهِ .·. لَـم تُخـفِ مـا حَـلَّ بِالأَوثـانِ وَالصُـلُبِ

١١ – فَـتحُ الفُتـوحِ تَعـالى أَن يُحـيطَ بِـهِ .·. نَظـمٌ مِـنَ الشِـعرِ أَو نَثـرٌ مِـنَ الخُطَـبِ[٣]

١٢ – فَـتحٌ تَفَـتَّحُ أَبـوابُ السَـماءِ لَـهُ .·. وَتَبـرُزُ الأَرضُ فـي أَثوابِهـا القُشُـبِ[٤]

١٣ – يـا يَـومَ وَقعَـةِ عَمّورِيَّـةَ انصَـرَفَت .·. عنـكَ المُنـى حُفَّـلاً مَعسـولَةَ الحَلَـبِ[٥]

١٤ – أَبقَيـتَ جَـدَّ بَنـي الإِسـلامِ فـي صَـعَدٍ .·. وَالمُشـرِكينَ وَدارَ الشِـركِ فـي صَـبَبِ[٦]

١٥ – أُمٌّ لَهُـم لَـو رَجَـوا أَن تُفتَـدى جَعَلـوا .·. فِـداءَها كُـلَّ أُمٍّ مِـنهُمُ وَأَبِ[٧]

---

(١) الأبرج : بروج السماء التي أولها : الحمل ، وآخرها : الحوت ، والمنجمون يزعمون أنها على ثلاثة أقسام : أربعة منقلبة ، وهي : الحمل والسرطان والميزان والجدي ، وأربعة ثابتة ، وهي : الثور والأسد والعقرب والدلو ، وأربعة ذوات جسدين وهي : الجوزاء والسنبلة والقوس والحوت .

(٢) الفلك : مدار النجوم الذي يضمها . والقطب : كُلّ ما ثبت فدار عليه شيء ، والمقصود : المحور .

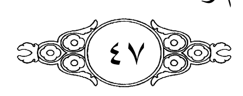
(٣) تعالى أن يحيط به : أي هو أكبر من أن يتناوله شاعر أو ناثر بالوصف .

(٤) تفتح أبواب السماء له : أي بالغيث والرحمة ، وسماه كذلك لأنه فتح عظيم . القشب : جمع قشيب وهو الجديد .

(٥) حفل : جمع حافل وهي الناقة التي امتلأ ضرعها باللبن . المعسولة التي فيها العسل . الحلب : ما حلب من اللّبن .

(٦) الجد : الحظ والنصيب . الصعد : المكان الذي يصعد فيه . الصبب : المكان الذي ينحدر فيه ، والمقصود : الارتفاع والانحدار .

(٧) الأم : أصل الشيء ومعدنه ، والأم رمز الحنان والعطف والشفقة والحنو ، فكانت عمورية تضمهم كما تضم الأم ولدها .



١٦ – وَبَـرزَةِ الوَجـهِ قَـد أعيَـت رِياضَـتُها ∴ كِسـرى وَصَـدَّت صُـدودًا عَـن أَبـي كَـرِبِ[١]

١٧ – بِكـرٌ فَمـا افتَرَعتَهـا كَـفُّ حادِثَـةٍ ∴ وَلا تَرَقَّـت إِلَيهـا هِمَّـةُ النُّـوَبِ[٢]

١٨ – مِـن عَهـدِ إِسـكَندَرٍ أَو قَبـلَ ذَلِـكَ قَـد ∴ شـابَت نَواصـي اللَّيـالي وَهـيَ لَـم تَشِـبِ

١٩ – حَتّـى إِذا مَخَّـضَ اللهُ السِـنينَ لَهـا ∴ مَخـضَ البَخيلَـةِ كانَـت زُبـدَةَ الحِقَـبِ[٣]

٢٠ – أَتَـتهُمُ الكُربَـةُ السَـوداءُ سـادِرَةً ∴ مِنهـا وَكـانَ اسـمُها فَرّاجَـةَ الكُـرَبِ[٤]

٢١ – جَـرى لَهـا الفَـألُ بَرحًـا يَـومَ أَنقَـرَةٍ ∴ إِذ غـودِرَت وَحشَـةَ السـاحاتِ وَالرُّحَـبِ[٥]

٢٢ – لَمّـا رَأَت أُختَهـا بِـالأَمسِ قَـد خَرِبَـت ∴ كـانَ الخَـرابُ لَهـا أَعـدى مِـنَ الجَـرَبِ[٦]

٢٣ – كَـم بَـينَ حيطانِهـا مِـن فـارِسٍ بَطَـلٍ ∴ قـاني الـذَوائِبِ مِـن آنـي دَمٍ سَـرَبِ[٧]

٢٤ – بِسُـنَّةِ السَّـيفِ وَالخَطِـيِّ مِـن دَمِـهِ ∴ لا سُـنَّةِ الـدينِ وَالإِسـلامِ مُختَضِـبِ[٨]

* * *

(١) برزة الوجه : المرأة البرزة هي التي تخاطب الرجال ولا تستر منهم . أعيت : أعجزت . أبو كرب : من ملوك اليمن التبابعة ، وهذه كنيته .
(٢) افترعتها : اقتضتها .
(٣) مخض اللبن : خضه لاستخراج الزبد منه ، وخص مخض البخيلة : لأنها تزيد المخض حيث لا تبقي في اللبن أثرًا لزبد . الحقب : جمع حقبة وهي المدة من الزمان ، وقيل : سنة .
(٤) سادرة : لا تهتم بشيء ، وقال الصولي : هي المتحيرة .
(٥) قال التبريزي : الفأل هنا معناه : الشر . برحا : من البارح وهو من ولاك ميامنه ، وقيل غير ذلك . أنقرة : هي عاصمة تركيا الآن . وحشة : أي موحشة الساحات . الرحب : جمع رحبة .
(٦) أختها : يقصد أنقرة .
(٧) قاني الذوائب : محمر الضفائر . الآني : الحار شديد الحرارة . سرب : سائل .
(٨) بسنة السيف : أي بما حكم به السيف .

٢٥ – لَقَد تَرَكتَ أَميرَ المُؤمِنينَ بِها ∴ لِلنارِ يَومًا ذَليلَ الصَخرِ وَالخَشَبِ[(١)]

٢٦ – غادَرتَ فيها بَهيمَ اللَيلِ وَهوَ ضُحىً ∴ يَشُلُّهُ وَسطَها صُبحٌ مِنَ اللَّهَبِ[(٢)]

٢٧ – حَتّى كَأَنَّ جَلابيبَ الدُجى رَغِبَت ∴ عَن لَونِها أَو كَأَنَّ الشَمسَ لَم تَغِبِ

٢٨ – ضَوءٌ مِنَ النارِ وَالظَلماءَ عاكِفَةٌ ∴ وَظُلمَةٌ مِن دُخانٍ في ضُحىً شَحِبِ

٢٩ – فَالشَّمسُ طالِعَةٌ مِن ذا وَقَد أَفَلَت ∴ وَالشَّمسُ واجِبَةٌ في ذا وَلَم تَجِبِ[(٣)]

٣٠ – تَصَرَّحَ الدَهرُ تَصريحَ الغَمامِ لَها ∴ عَن يَومِ هَيجاءَ مِنها طاهِرٍ جُنُبِ[(٤)]

٣١ – لَم تَطلُعِ الشَمسُ فيهِ يَومَ ذاكَ عَلى ∴ بانٍ بِأَهلٍ وَلَم تَغرُب عَلى عَزَبِ

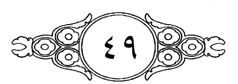
٣٢ – ما رَبعُ مَيَّةَ مَعمورًا يُطيفُ بِهِ ∴ غَيلانُ أَبهى رُبىً مِن رَبعِها الخَرِبِ[(٥)]

٣٣ – وَلا الخُدودُ وَقَد أُدمينَ مِن خَجَلٍ ∴ أَشهى إِلى ناظِرٍ مِن خَدِّها التَرِبِ[(٦)]

٣٤ – سَماجَةً غَنِيَت مِنّا العُيونُ بِها ∴ عَن كُلِّ حُسنٍ بَدا أَو مَنظَرٍ عَجَبِ[(٧)]

---

(١) ذليل الصخر والخشب : أي أحرقت عمورية فذل صخرها وخشبها للنار .
(٢) غادرت : تركت . بهيم الليل : أي الليل الذي لا ضوء فيه . يشله : يطرده .
(٣) من ذا : الأوّل يعني به لهيب النار ، الثّاني : يريد به الدخان . وأفلت : غابت . ووجبت الشمس : إذا سقطت في المغرب .
(٤) تصرح الدهر : تكشف الدهر كما ينكشف الغمام عن السماء . طاهر جنب : أي أن هذا اليوم كان ما فعل فيه حلا لأن الغزو مندوب إليه فهو طاهر من هذا الوجه ، وجنب لأنهم أخذوا السبي فوطئوه فاحتاجوا إلى الغسل ، وقال الصولي : نسب جنبًا إلى اليوم كما قالوا : ليل نائم ينام فيه ، ويوم عاصف لأن الريح عصفت فيه ، وقال المرزوقي : اليوم الطاهر على المسلمين الظافرين ، جنب على المظفور بهم المغار عليهم ، وقيل : طاهر أي اليوم طاهر في نفسه ، وجنب أي الناس جنب فيه .
(٥) مية : محبوبة غيلان وهو ذو الرمة الشّاعر الأموي المعروف . الربى : جمع ربوة وهو المرتفع من الأرض .
(٦) الترب : الذي لصق بالتراب .
(٧) سماجة : قبح . غنيت منا : أي استغنت .



٣٥ – وَحُسـنُ مُنقَلَبٍ تَبقى عَواقِبُـهُ ∴ جاءَت بَشاشَتُهُ مِن سوءِ مُنقَلَبِ
٣٦ – لَو يَعلَمُ الكُفرُ كَم مِن أَعصُرٍ كَمَنَت ∴ لَهُ المَنِيَّةُ بَينَ السُمرِ وَالقُضُبِ(١)

* * *

٣٧ – تَدبيرُ مُعتَصِمٍ بِاللَهِ مُنتَقِمٍ ∴ لِلَّهِ مُرتَقِبٍ في اللَهِ مُرتَغِبِ
٣٨ – وَمُطعَمِ النَصرِ لَم تَكهَم أَسِنَّتُهُ ∴ يَومًا وَلا حُجِبَت عَن رَوحِ مُحتَجِبِ(٢)
٣٩ – لَم يَغزُ قَومًا وَلَم يَنهَض إِلى بَلَدٍ ∴ إِلّا تَقَدَّمَهُ جَيشٌ مِنَ الرُعُبِ(٣)
٤٠ – لَو لَم يَقُد جَحفَلاً يَومَ الوَغى لَغَدا ∴ مِن نَفسِهِ وَحدَها في جَحفَلٍ لَجِبِ(٤)
٤١ – رَمى بِكَ اللَهُ بُرجَيها فَهَدَّمَها ∴ وَلَو رَمى بِكَ غَيرُ اللَهِ لَم يُصِبِ(٥)
٤٢ – مِن بَعدِ ما أَشَّبوها واثِقينَ بِها ∴ وَاللَهُ مِفتاحُ بابِ المَعقِلِ الأَشِبِ(٦)
٤٣ – وَقالَ ذو أَمرِهِم لا مَرتَعٌ صَدَدٌ ∴ لِلسارِحينَ وَلَيسَ الوِردُ مِن كَثَبِ(٧)
٤٤ – أَمانِيًا سَلَبَتهُم نُجحَ هاجِسِها ∴ ظُبى السُيوفِ وَأَطرافُ القَنا السُلُبِ(٨)

---

(١) السمر : الرماح . القضب : جمع قضيب وهو السيف .
(٢) مطعم النصر : يعني المعتصم ، وأصل هذه الكلمة في الصيد ، كما قالوا : مطعم الصيد . لم تكهم أسنته : لم تكِلّ ولم تَنْب .
(٣) لم ينهد : لم ينهض .
(٤) الجحفل : الجيش العظيم . اللجب : الصخب الكثير الأصوات . الوغى : الحرب .
(٥) في الديوان (لم يصب) وفي الشرح .. ولو كان قتالك لغير دين الله لم تنصر عليهم ولم تصبهم ، ويبدو أنها بالتاء (تصب) .
(٦) أشبوها : صعبوا أمرها ، وحقيقته : لففوا حولها الجند ، من قولهم : تأشبت الغيضة التفّت : أي منعوها بالرماح فصارت كالشجر الملتف بالجمع الكثير .
(٧) ذو أمرهم : رئيسهم . المرتع : الموضع الذي ترتع فيه الراعية . أمم : قريب . وصدد : مثله . والكثب : القرب .
(٨) الهاجس : ما يهجس في الصدر من فكر . ظبي السيوف : حدّها . أطراف القنا : نصل

٤٥ – إنَّ الحِمامَينِ مِن بيضٍ وَمِن سُمُرٍ ∴ دَلوا الحَياتَينِ مِن ماءٍ وَمِن عُشُبِ[١]

٤٦ – لَبَّيتَ صَوتًا زِبَطرِيًّا هَرَقتَ لَهُ ∴ كَأسَ الكَرى وَرُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ[٢]

٤٧ – عَداكَ حَرُّ الثُّغورِ المُستَضامَةِ عَن ∴ بَردِ الثُّغورِ وَعَن سَلسالِها الحَصِبِ[٣]

٤٨ – أَجَبتَهُ مُعلِنًا بالسَّيفِ مُنصَلِتًا ∴ وَلَو أَجَبتَ بِغَيرِ السَّيفِ لَم تُجِبِ[٤]

٤٩ – حَتّى تَرَكتَ عَمودَ الشِّركِ مُنعَفِرًا ∴ وَلَم تُعَرِّج عَلى الأَوتادِ وَالطُّنُبِ[٥]

* * *

٥٠ – لَمّا رَأى الحَربَ رَأيَ العَينِ تَوفِلِسٌ ∴ وَالحَربُ مُشتَقَّةُ المَعنى مِنَ الحَرَبِ[٦]

٥١ – غَدا يُصَرِّفُ بِالأَموالِ جِريَتَها ∴ فَعَزَّهُ البَحرُ ذو التَيّارِ وَالحَدَبِ[٧]

الرمح . السلب : جمع سلوب كأنه يسلب الناس أموالهم ، أو جمع سليب وهو الطويل .

(١) الحمامين : هما الصوتان القاتلان . بيض : السيوف . سمر : الرماح . دلوا الحياتين : أي وسيلتان للحياة ، أي لا تنال لذة الأكل والشرب إلاّ بالرماح والسيوف .

(٢) زبطريا : منسوب إلى زبطرة . هرقت : سكبت . الكرى : النوم . الرضاب : الريق . الخرد : جمع خريدة وهي الحيية . العرب : جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها ، وفي الذكر الحكيم : ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (الواقعة : ٣٧) .

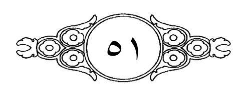
(٣) عداك : صرفك . الثغور الأولى : جمع ثغر وهو الموضع الذي يخاف أن يأتي العدو منه ، والثغور الثّانية : الأفواه . المستضامة : المظلومة . السلسال : الماء الصافي السهل الدخول في الحلق . والحصب : الذي فيه الحصباء ، ويكون ماؤه أصفى ماء ؛ لأنه لا رمال فيه ولا طين .

(٤) منصلتا : ماضيا ، أو مجردًا من غمده . لم تجب : أي لم يُنْتَفَع بجوابك .

(٥) عمود الشرك : قاعدة الروم . منعفرًا : معفرًا بالتراب . لم تعرج : لم تحفل . الأوتاد والطنب : كناية عن القرى حول عمورية ، وقوله : " منعفرا " رويت (منقعرا) .

(٦) الحرب : الغضب ، وذهاب المال .

(٧) عزه : غلبه . التيار : الموج .



٥٢ – هَيهاتَ زُعزِعَتِ الأَرضُ الوَقورُ بِهِ ∴ عَن غَزوِ مُحتَسِبٍ لا غَزوِ مُكتَسِبِ[١]

٥٣ – لَم يُنفِقِ الذَهَبَ المُربي بِكَثرَتِهِ ∴ عَلى الحَصى وَبِهِ فَقرٌ إِلى الذَهَبِ[٢]

٥٤ – إِنَّ الأُسودَ أُسودَ الغيلِ هِمَّتُها ∴ يَومَ الكَريهَةِ في المَسلوبِ لا السَلَبِ[٣]

٥٥ – وَلّى وَقَد أَلجَمَ الخَطِّيُّ مَنطِقَهُ ∴ بِسَكتَةٍ تَحتَها الأَحشاءُ في صَخَبِ[٤]

٥٦ – أَحذى قَرابينَهُ صَرفَ الرَدى وَمَضى ∴ يَحتَثُّ أَنجى مَطاياهُ مِنَ الهَرَبِ[٥]

٥٧ – مُوَكَّلاً بِيَفاعِ الأَرضِ يُشرِفُهُ ∴ مِن خِفَّةِ الخَوفِ لا مِن خِفَّةِ الطَرَبِ[٦]

٥٨ – إِن يَعدُ مِن حَرِّها عَدوَ الظَليمِ فَقَد ∴ أَوسَعتَ جاحِمَها مِن كَثرَةِ الحَطَبِ[٧]

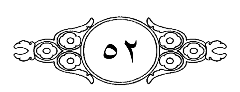
٥٩ – تِسعونَ أَلفاً كَآسادِ الشَرى نَضِجَت ∴ جُلودُهُم قَبلَ نُضجِ التينِ وَالعِنَبِ

٦٠ – يا رُبَّ حَوباءَ حينَ اجتُثَّ دابِرُهُم ∴ طابَت وَلَو ضُمِّخَت بِالمِسكِ لَم تَطِبِ[٨]

٦١ – وَمُغضَبٍ رَجَعَت بيضُ السُيوفِ بِهِ ∴ حَيَّ الرِضا مِن رَداهُم مَيِّتَ الغَضَبِ

---

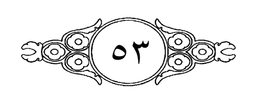
(١) زعزعت : حركة حركة عنيفة . محتسب : للأجر عند الله . مكتسب : طالب للمال .
(٢) المربي : الزائد .
(٣) في رواية : (**أسود الغاب**) . الكريهة : الشديدة .
(٤) الخطي : الرمح المنسوب إلى الخط . ألجمه : أي كان له كاللجام . الصخب : أصله كثرة الكلام في الغضب ، والمراد به هنا : وجيب القلب من الفزع .
(٥) أحذى : أعطى . القرابين : جلساء الملك .
(٦) يفاع الأرض : مرتفعاتها . يَشْرَفُه : يعلوه ، ويُشرفه : أي يشرف فيه . الطرب : الخفة من الفرح خاصة .
(٧) الظليم : ذكر النعام ، وهم يصفونه بالنفار والسرعة . الجاحم : مسعر الحرب .
(٨) الحوباء : النفس . اجتث دابرهم : قطع أصلهم ، أو استؤصل آخرهم . التضميخ : الإطلاء بالطيب . طابت : من الطيب الذي هو سرور النفس ، لا من الطيب الذي هو أرج الرائحة .



٦٢ – وَالحَربُ قائِمَةٌ في مَأزِقٍ لَجِجٍ .·. تَجثو الكُماةُ بِهِ صُغرًا عَلى الرُكَبِ[١]
٦٣ – كَم نيلَ تَحتَ سَناها مِن سَنا قَمَرٍ .·. وَتَحتَ عارِضِها مِن عارِضٍ شَنِبِ[٢]
٦٤ – كَم كانَ في قَطعِ أَسبابِ الرِقابِ بِها .·. إِلى المُخَدَّرَةِ العَذراءِ مِن سَبَبِ[٣]
٦٥ – كَم أَحرَزَت قُضُبُ الهِندِيِّ مُصلَتَةً .·. تَهتَزُّ مِن قُضُبٍ تَهتَزُّ في كُثُبِ[٤]
٦٦ – بيضٌ إِذا انتُضِيَت مِن حُجبِها رَجَعَت .·. أَحَقَّ بِالبيضِ أَترابًا مِنَ الحُجُبِ[٥]
٦٧ – خَليفَةَ اللهِ جازى اللهُ سَعيَكَ عَن .·. جُرثومَةِ الدينِ وَالإِسلامِ وَالحَسَبِ[٦]
٦٨ – بَصُرتَ بِالراحَةِ الكُبرى فَلَم تَرَها .·. تُنالُ إِلّا عَلى جِسرٍ مِنَ التَعَبِ
٦٩ – إِن كانَ بَينَ صُروفِ الدَهرِ مِن رَحِمٍ .·. مَوصولَةٍ أَو ذِمامٍ غَيرِ مُنقَضِبِ
٧٠ – فَبَينَ أَيّامِكَ اللاتي نُصِرتَ بِها .·. وَبَينَ أَيّامِ بَدرٍ أَقرَبُ النَسَبِ
٧١ – أَبقَت بَني الأَصفَرِ المِمراضِ كَاسمِهِمُ .·. صُفرَ الوُجوهِ وَجَلَّت أَوجُهَ العَرَبِ

---

(١) المأزق : أصله من الأَزْق وهو الضيق ، ومأزق مفعل من ذلك . ولجج : من قولهم : لجج في الشيء إذا نشب فيه فلم يخلص ، وقيل : لجج أي ضيق . تجثو : تركع على ركبها لثقل ما حملوه من أمر الحرب . الكماة : جمع كمى وهو الذي قد كمى نفسه بالسلاح .
(٢) تحت سناها : أي سنا الحرب ، وهو ضوؤها . من سنا قمر : من ضوء جارية كالقمر . عارضها : أي عارض الحرب التي تمطر المنايا . عارض شنب : يعني عارض الأسنان ، والشنب : برد الأسنان ، ويقال : حدة أطرافها .
(٣) الأسباب : الأشياء التي يتوصل بها إلى غيرها . وأسباب الرقاب : عروقها . المخدرة : ذات الخدر .
(٤) قضب الأولى : السيوف ، والثانية : قدود النساء التي تشبه القضب .
(٥) انتضيت : سُلَّت . حجبها : أغمادها ، والحجب الثاني : حجال النساء . أتراب : جمع ترب ، ويروى : (أبدانا) .
(٦) جرثومة الشيء : أصله .



(٢) التحليـــــل

قال ابن رشيق[١] : " وكان أبو تمام فخم الابتداء ، له روعة ، وعليه أبهة " ، ثم استشهد بمطلع هذه القصيدة .

والمناسبة لا تسمح بمقدمات ، وكأنما أراد أبو تمام ألاّ يقدم كلمة على (السيف) في قصيدته ، ليكون ذلك مطابقًا للواقع ومكافئًا للحقيقة ، فكما أن السيف هو الذي حسم الأمور ، وفصل المعركة ، ورد الظلم ، وأعاد الحق إلى نصابه ، كان حقه أن يتقدم فتبدأ به القصيدة .

ولذلك فمن المقبول جدًّا أن يكون عنوانها **(السيف)** ، أو **(السَّيفُ أَصدَقُ)** ..

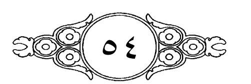
ولعله أراد أن يلفت نظر المتلقي إلى أن محور قصيدته هو (السيف) ، الذي سيتكرر كثيرًا في القصيدة ، وأن وظائفه في المعركة كانت غير تقليدية ، ولذا تغنّى به .

وإذا كانت مطالع القصائد هي المفاتيح التي ندخل من خلالها إلى عالم الشّاعر في قصيدته ، فإن هذه القصيدة ليس قارئها في حاجة إلى مفتاح ، ذلك أن أبا تمام " لا يترك القارئ يبحث طويلاً عن مفتاح لقصيدته ، فهو منذ البداية يفتح أمامنا عالمه ويأخذنا إلى أعماق نفسه ، فنعرف همّه الأكبر ، وشاغله الأهمّ ، حين يستهل قصيدته بثقة كبيرة : **(السَّيفُ أَصدَقُ)** ...

وكأن الشّاعر أراد أن يشعرنا منذ الوهلة الأولى بموقفه من التنجيم والمنجمين ، وإيمانه بأن السيف وما يرمز له من قوة هو

---

(١) العمدة ٢٣٣/١ .



الفيصل في مثل هذه الأمور ... "[1] .

١ – السَيفُ أَصدَقُ أَنباءً مِنَ الكُتُبِ ∴ في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَعِبِ

وفي هذا البيت ملاحظات :

* أفرد (السيف) وجمع (الكتب) .. وذلك مناسب لكليهما .. فالسيف يرمز به إلى الحق والاستقامة والصواب .. أمّا الكتب فهي دلالة على التشتت والتفرق ، لاسيما وقد اختلفت كتب منجمي الروم عن كتب منجمي العرب ..

وطريق الحق واحد ، أمّا طرق الشر فمتعددة ، وصدق ربنا جل شأنه : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾ (الأنعام : من ١٥٣) .

وفي الحديث أن النَّبِيّ ﷺ خَطَّ خَطًّا مُسْتَقِيمًا ، وَقَالَ : « هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ » ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ فَقَالَ : « هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ » ، ثُمَّ قَرَأَ قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾ .

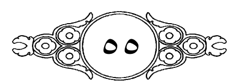
وفي ذلك يقول الشّاعر :

الطُرُقُ شَتّى وَطَرِيقُ الحَقِّ مُفرَدَةٌ ∴ وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الحَقِّ أفرَادُ

والسيف يُوحّد ، ولا يُفرّق ، فالمسلمون على قلب رجل واحد ، وجيش الحق هدفه واحد .. بينما الكتب – كتب المنجمين – تفرّق ولا تجمع ، والحرب في أمس الحاجة إلى

---

(١) المعارضات الشِّعْرِيّة ص١٦٧ ، ١٦٨ – د/ عبد الرحمن إسماعيل السماعيل .



وحدة الرأي والهدف ، ونبذ الفرقة والخلاف .

* قوله : " **السَّيفُ أَصدَقُ** " .. أفعل التفضيل هنا ليس على بابه ، فلم يستعمل للدلالة على أن شيئين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر فيها .. فلا يتأتّى ذلك هنا ، فمن المستحيل أن يجتمع السيف والكتب في صفة الصدق ، فصِدْقُ أحدهما يثبت كذب الآخر ، والواقع أكّد صدق السيف وكذب الكتب ، والأوّل هو نصر المسلمين ، والثاني هو هزيمة الروم .

* " استفتاح أبي تمام قصيدته بكلمة (**السَّيفُ**) دون غيرها من الكلمات ذات الدلالة الحربية (كالرمح والقوس والسهم) له دلالة تراثية عريقة في خلفيته الثقافية .

فالسيف له مكان الصدارة في الحروب والفتوحات الإسلاميّة الأولى ، التي عادت ذكراها بفتح عمورية ، وبه لقّب الرسول ﷺ (خالد بن الوليد رضي الله عنه) ودعاه (سيف الله المسلول) ولم يقل : (رمح الله أو سهم الله) .

وسيف الله المسلول هو قائد الجيوش الإسلاميّة في الفتوحات الأولى ، وصاحب الانتصارات الخالدة في تاريخ الإسلام .. وسيف المعتصم كذّب المنجمين وبطارقة الروم ففتح عمورية ، وبها توّج الفتوحات الإسلاميّة ، فهي (فتح الفتوح) .

من هنا ندرك أن هذا الاستفتاح لم يأت عرضًا ، بل جاء نتيجة تخطيط واع ومحكم لبناء تلك القصيدة ... "(١) .

---

(١) المعارضات الشِّعْريّة ص١٦٨ – د/ عبد الرحمن إسماعيل السماعيل .



* (أَنباءً) جمع تكسير ، ويمكن أن تُقرأ بكسر الهمزة على المصدرية ، وهو في رأينا أفضل ، إذ التعبير بالمصدر فيه قوة ، فكأنه جمع كُلّ الحدث في الكلمة بحيث ينفيها عمّا سواها .
* استخدم (النبأ) دون (الخبر) ؛ لأن النبأ خبر لا يتطرق إليه الشك ، ولذلك سُمّي المرسلون : أنبياء ؛ لأنهم صادقون في تبليغهم عن رب العزة جل شأنه ، وقد قال χ : ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (النبأ : ١ ، ٢) ، والشعراء يستخدمون هذا اللفظ حين يكون صادرًا ممن يخشون بأسه ، ويخافون خطره ، قال النابغة :

أنبِئتُ أنّ أبا قابوسَ أوعَدَني ∴ وَلا قرارَ عَلى زَأرٍ مِنَ الأسَدِ

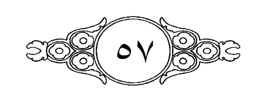
وفي بردته قال كعب بن زهير :

أنبِئتُ أنّ رَسولَ اللهِ أوعَدَني ∴ وَالعَفوُ عِندَ رَسولِ اللهِ مَأمولُ

* آثر أبو تمام الجملة الاسمية ، ولم يستخدم الفعلية تأكيدًا على أن هذه المعاني ، والصفات ثابتة دائمة ، وهي حقيقة لا مراء فيها .
* قال : " **الكُتُب** " دون (الأقلام) ؛ لأن الكتابة اجتمع فيها مداد وقلم وورق ، فهي محصلة تلك الأدوات ، ثم إن الشّاعر يقصد إلى كتب المنجمين وليس أقلامهم ، فالمنجمون يقرأون ولا يكتبون ، حتى ولو كانوا أميين .

٢ – **بيضُ الصَفائحِ لا سودُ الصَحائِفِ في ∴ مُتونِهِنَّ جَلاءُ الشَكِّ وَالرِيَبِ**

وهنا تعلو النّبرة ، وتشتد حدّة الانفعال ، عن طريق نعت (**الصَفائحِ**) – وهي السيوف العراض – بالبياض ، و(**الصَحائِفِ**) – وهي الكتب – بالسواد .. ثم عن طريق الإثبات والنفي .. وذلك بعد أن استخدم أسلوب التفضيل في البيت الأوّل ، وإن كان على غير حقيقته .



إن البياض لون محبّب إلى النفوس ، فهو رمز للصفاء ، والإشراق ، والطهر ، والنور .. بعكس السواد الذي يرمز إلى الضلال ، والتيه ، والظلمة .. والسيف يطرد الشوائب ، ويطهر البياض مما عساه يكون قد علق به ، وقد فعل السيف ذلك حينما محا ما كان قد علق بأذهان الناس من أوهام المنجمين ، والسيف يحيل الضلال هُدًى ، والظلمة نورًا ، والباطل حَقًّا .

٣ – **وَالعِلـمُ فـي شُـهُبِ الأَرمـاحِ لامِعَـةً ∴ بَينَ الخَميسَـينِ لا فـي السَبعَةِ الشُـهُبِ**

(**العِلـمُ**) هنا هو اليقين ، بل عينه ، حيث الواقع والحقيقة .. وهنا تأكيد عن طريق القصر ، ثم إثبات ونفي كالبيت السابق .. و(**شُـهُب الأَرمـاحِ**) هنا فاصلة ، لها الكلمة العليا (**بَـينَ الخَميسَـينِ**) ، وهي (**لامِعَـةً**) وكأنها تتراقص وتتبختر في أيدي الفرسان في ساحة المعركة ، وأكاد أشعر أن أبا تمام هنا يوجه صفعة لأولئك المنجمين الكذابين .. وتعلو نبرة الحوار ، فتشتد الصفعة الثّانية حين يتهكم عليهم في البيت التالي :

٤ – **أَيـنَ الرِوايَـةُ أَم أَيـنَ النُجـومُ وَمـا ∴ صـاغوهُ مِـن زُخـرُفٍ فيهـا وَمِـن كَـذِبِ**

أين كلامهم المنمّق المزيّن ، الذي بذلوا جهدًا في تزيينه حتى يوهموا الناس بهذا الباطل فيروه حسنًا ؟

وترتفع حدّة تكذيبه لهم ، وتصل ذروتها من خلال البيت الخامس :

٥ – **تَخَرُّصًـا وَأَحاديثًـا مُلَفَّقَـةً ∴ لَيسَـت بِنَبـعٍ إِذا عُـدَّت وَلا غَـرَبِ**

ويتضح ذلك في هذه الشدّات التي ضعّفت الحروف ، وملأت بها الفم (**تَخَرُّصًا**) ، (**مُلَفَّقَةً**) ، ثم من خلال النفي المتكرر (**لَيسَت**) (**وَلا**) .. فما هي إلاّ افتراءات ، وتخرصات لا أساس لها من الواقع ، وليس لها

من الحقيقة أدنى نصيب ، فلا هي في قوة النبع ، ولا في ضعف الغرب .. أي ليست بشيء على الإطلاق .

٦ – **عَجائِبًا زَعَموا الأَيّامَ مُجفِلَةً ∴ عَنهُنَّ في صَفَرِ الأَصفارِ أَو رَجَبِ**

أرأيت إلى هذه الألف في (**عَجائِبًا**) ؟ إنه يريد أن يوسع دائرة خيالهم من خلالها ، فيذهب الذهن معها كُلّ مذهب ، بحيث لا تحدّ ، وكأنه يقول : هؤلاء المنجمون يعيشون عالمًا بعيدًا من الأوهام والخيال ..

ومن بين أوهامهم : ما زعموه أن الحظ ليس مواتيًا للمسلمين في شهر صفر أو رجب .. وقوله : " **صَفَرِ الأَصفارِ** " تصوير لحيلهم وأساليبهم التي تخوّف مصدّقيهم ، فقد جعلوه (**صَفَر الأَصفارِ**) .. وقد فسّر التبريزي ذلك بأنه تعظيم لشأن صفر ؛ لأنه ينتظر فيه أمر شاق[1] ، وهو – بالطبع – أمر شاق على المسلمين ..

وقوله قبل ذلك : " **الأَيّامَ مُجفِلَةً** " يؤكّد أن المقصود هزيمة المسلمين إذا ما فكروا في غزو الصليبيين ..

٧ – **وَخَوَّفوا الناسَ مِن دَهياءَ مُظلِمَةٍ ∴ إِذا بَدا الكَوكَبُ الغَربِيُّ ذو الذَنَبِ**

شأن كُلّ الدجالين والمشعوذين ، يخوّفون الناس ، ويسلبون إرادتهم ، حتى يتحكموا فيهم بما يريدون بعد ، فيضطرون إلى اللجوء إليهم ، والاستعانة بهم طالبين إليهم الخلاص ، ناشدين النجاة .. هكذا فعل المنجمون بالناس حينئذ ، روّعوهم ، وخوّفوهم من مصيبة عظمى تحلّ بهم إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب ، كَمّ هائل من الرعب أحاطوا به الناس ، زاعمين أن الكون سيحدث فيه تغيير خطير ، معه تتبدل أمور الولايات .

(١) الديوان ٤٤/١ .



إنها ذرية بعضها من بعض : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٧٥) .

وقد وفق أبو تمام في استخدام كلمة (**خَوَّفوا**) بما فيها من تشديد ، لتوحي بما بذل المنجمون من جهد مستمر في هذا الصدد .. وكذلك بقوله : " **دَهياءَ** " التي تُنعت بها (الداهية) عادة ، ثم وصفها بـ (**مُظلِمَةٍ**) .. فقد صوّر لنا الجوّ المحيط بالناس حينئذ ، والذي صنعه المنجمون ، فكان من صَدّقهم يعيش في ظلمات بعضها فوق بعض ، يرتعد ، ويرتجف ، منتظرًا كارثة لا حول له ولا قوة إزاءها ، وهكذا يفعل الخراصون .

٨ – **وَصَيَّروا الأَبرُجَ العُليا مُرَتَّبَةً ∴ ما كانَ مُنقَلِبًا أَو غَيرَ مُنقَلِبِ**

خيّلوا للناس أنهم لا يأتون بهذه الأخبار من عند أنفسهم ، بل هم – وحدهم – يقرأونها في البروج .. ويستمر في سخريته منهم وتهكمه عليهم قائلاً :

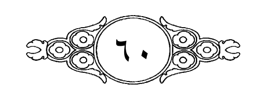
٩ – **يَقضونَ بِالأَمرِ عَنها وَهيَ غافِلَةٌ ∴ ما دارَ في فُلُكٍ مِنها وَفي قُطُبِ**

١٠ – **لَو بَيَّنَت قَطُّ أَمرًا قَبلَ مَوقِعِهِ ∴ لَم تُخفِ ما حَلَّ بِالأَوثانِ وَالصُلُبِ**

إن هذه النجوم والأبراج لا تدري من أمر نفسها شيئًا .. ولو أن هذه الأفلاك تتبيّن الأمور قبل حدوثها ، وتتنبأ بما سيكون ، لأنبأت بما حلّ بديار الكفر والأوثان ، أي أخبرت بهذا الفتح .. لكن ذلك لم يحدث فبطل كلامهم ، وانكشف أمرهم ، ألا ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ (الذاريات : ١٠) .

هذا هو المقطع الأوّل من القصيدة ، وفيه كان تركيز الشّاعر على الموازنة بين (السيف) و(كتب المنجمين) ..

وسخر أبو تمام من هؤلاء ، وتهكم عليهم ، وأبطل ادعاءاتهم بواقع



الأمور وحقيقتها الماثلة للعيان ، الواضحة وضوح الشمس .. وفيه ظهرت معرفته بعلم الفلك الذي ازدهر في ذلك العصر .

فتح الفتوح :

ثم يبدأ المقطع الثّاني من القصيدة ، وفيه يتغنى أبو تمام بذلك الفتح العظيم ، فيراه أكبر وأعظم من أن يتناوله أديب بالوصف ، شعرًا كان أم نثرًا :

١١ – **فَتحُ الفُتوحِ تَعالى أَن يُحيطَ بِهِ ∴ نَظمٌ مِنَ الشِعرِ أَو نَثرٌ مِنَ الخُطَبِ**

١٢ – **فَتحٌ تَفَتَّحُ أَبوابُ السَماءِ لَهُ ∴ وَتَبرُزُ الأَرضُ في أَثوابِها القُشُبِ**

انظر كيف تكررت مادة **(فَتح)** أربع مرّات في البيتين ، تلذّذًا بهذا اللفظ ، واستمتاعًا به ..

والشاعر يراه **(فَتحُ الفُتوحِ)** ، وهذا الاسم يطلق على معركة (نهاوند) التي كانت بابًا للسيطرة على بلاد الفرس ، وكذلك فتح عمورية ، معقل الشرك ، وقصبة الكفر ، ثم إنها لم تكن مدينة عادية يسهل اقتحامها ، بل كانت حصنًا منيعًا ، استعصى على الفاتحين من قبل .

إن السماء لتبارك هذا الفتح غيثًا ورحمة ، أو لأنه من معالم الإسلام ، وليست كُلّ الفتوح كذلك .. والأرض تتزيّن ، وتلبس ثيابها الجديدة ، وتبدو في كامل زينتها ، وأجمل حللها ، وكأنها في يوم عرسها .. وكيف لا ؟ وكل ما في الكون ساجد لله ، ومسبّح بحمده ، كما نصّ القرآن الكريم : ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ (الإسراء : من ٤٤) ، ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (النحل : من ٤٩) .

وقال ﷺ لأحد الصحابة – وكان قد أبدى تشاؤمه من جبل أحد – :

« أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » .. بل إن الأرض لتستنكر ما يحدث عليها من تجرؤ على الله ، بعصيانه ، فتحتج وترتعد ، قال كعب الأحبار : " إنما تزلزل إذا عمل فيها بالمعاصي ، فترتعد فرقًا من الرب ﷻ أن يطلع عليها " .

وقوله : " **وَتَبرُزُ الأَرضُ في أَثوابِها القُشُبِ** " " تعبير افترعه أبو تمام ومهّد به لابن الرومي من بعد "(١) .. وقد تأثر السريّ الرفاء بالبيتين فقال(٢) :

أجَل هُوَ الفَتْحُ لا فَتْحٌ يُشاكِلُه ∴ أفادَ عاجِلُه عِزًّا وآجِلُه
تَفَتَّحَتْ فيه أبوابُ السَّماء على ∴ أَغَرَّ مِفتاحُ بابِ البِشرِ نائِلُه

١٣ – **يا يَومَ وَقعَةِ عَمّورِيَّةَ انصَرَفَت ∴ عنكَ المُنى حُفَّلاً مَعسولَةَ الحَلَبِ**

لم تكن متعة الشّاعر بهذا الفتح مقصورة على حاسة الإبصار ، حيث تمتعت العينان بالغيث النازل من السماء ، وبزينة الأرض .. بل تخطتها إلى حاسة الذوق من خلال ذلك اللبن الحليب " الذي عمد إليه أبو تمام – وهو عنصر قديم – فحوّره تحويرًا جديدًا ، حين أضاف إليه (العسل) فأعطاه طعمًا طريفًا "(٣) .

وهذا يكشف عن الفرحة العارمة التي أصابت الشّاعر بهذا الفتح العظيم .

١٤ – **أبقَيتَ جَدَّ بَني الإِسلامِ في صَعَدٍ ∴ وَالمُشرِكينَ وَدارَ الشِركِ في صَبَبِ**

تلك " هي القيمة المعنوية الحقيقية لذلك النصر ، وقد جعل

---

(١) نقاط التطور في الأدب العربيّ ص١١٥ – د/ عليّ شلق .
(٢) ديوان السري الرفاء ص٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ومختارات البارودي ٢/١٥٣ ، ١٥٤ ، وشعر الدعوة الإسلاميّة في العصر العباسي الثّالث – موسوعة أدب الدعوة الإسلاميّة (٥) كلية اللّغة العربيّة بالرياض – جامعة الإمام مُحمّد بن سعود الإسلاميّة .
(٣) الفن ومذاهبه في الشّعْر العربيّ ص٢٥٩ – د/ شوقي ضيف .

الشّاعر هذا المعنى الأساسي ركيزة يتحرك منها ثم يعود إليها ... "[1] .

عمورية أُمّ ، وفتاة جميلة تنتظر فارسها :

١٥ – أُمٌّ لَهُم لَو رَجَوا أَن تُفتَدى جَعَلوا ∴ فِداءَها كُلَّ أُمٍّ مِنهُمُ وَأَبِ

في هذا المقطع تبرز فكرة (الأنوثة) من خلال عمورية ، وقبل ذلك كانت الأرض عروسًا مزيّنة ، وهنا (عمورية) أُمّ للروم ، طالما احتضنتهم ، وضمتهم وقت المحن والنوازل ، كانت ملجأهم وملاذهم .. فكان جديرًا بهذه الأُمّ الحنون العطوف أن يبادلها أبناؤها حبًّا بحب ، وبرًّا ببر ، وإحسانًا بإحسان .. كان عليهم أن يفتدوها بكل أُمّ وأب ، ذلك أن هؤلاء الأُمهات والآباء يقدّرون معنى الأمومة والأبوة .. ولكن أنَّى لهم ذلك ، وهم يواجهون طوفانًا كاسحًا – ممثلاً في جيش المسلمين – لا قِبَل لهم به ؟!

١٦ – وَبَرزَةِ الوَجهِ قَد أَعيَت رِياضَتُها ∴ كِسرى وَصَدَّت صُدودًا عَن أَبي كَرِبِ

وعمورية هنا فتاة جميلة فاتنة ، واثقة من نفسها ، فهي تبرز للرجال تحدثهم ولا تستخزي أو تستحيي ، إذ تعرف كيف تصون نفسها ، وتحفظ عفتها وشرفها ، وقد أعيت كسرى ملك فارس ، وأعجزته أن ينال منها ، واستعصت على أبي كرب ..

و" هنا يعرض أبو تمام للتاريخ عرضًا غريبًا ، فيصور كسرى وأبا كرب وهما يأتيان عاشقين مدلهين .. وهكذا حوّل التاريخ لونًا فنّيًا "[2] .

ولما كانت قديمة عتيقة – منذ عهد الإسكندر وأبي كرب –

---

(١) في الشِّعْر العباسي ص١٣١ – د/ عز الدِّين إسماعيل .
(٢) ص٢٦٠ .



والمتوقع مع طول هذا الزمان بها أن تكون عجوزًا شمطاء ، قد اشتعلت شيبًا ، وأنها لم تعد بكرًا .. سارع بالإخبار بكونها بكرًا ، فلم تستطع حوادث الزمان ، ولا كرّ الليالي والأيام أن تفترع بكارتها ، أو أن تذهب بنضارتها ، بل ظلت محتفظة بشبابها وفتوتها .. شابت نواصي الليالي وهي لم تشب ..

لكأنها كانت تصون نفسها ، وتحافظ على نضارتها وشبابها ، انتظارًا لفارس أحلامها (المعتصم) :

١٧ – بِكرٌ فَما افتَرَعتَها كَفُّ حادِثَةٍ .. وَلا تَرَقَّت إِلَيها هِمَّةُ النُّوَبِ

١٨ – مِن عَهدِ إِسكَندَرٍ أَو قَبلَ ذَلِكَ قَد .. شابَت نَواصي اللَيالي وَهيَ لَم تَشِبِ

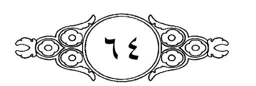
عمورية زبدة الحقب :

١٩ – حَتّى إِذا مَخَّضَ اللهُ السِنينَ لَها .. مَخضَ البَخيلَةِ كانَت زُبدَةَ الحِقَبِ

قال المرزوقي(١) : " يعني عمورية ، كانت ممتنعة على قديم الدهر ، منذ زمن الإسكندر أو قبله ، فكانت يجتمع فيها الخير والمال ، حتى إذا كملت ومخضها الله في سنيها ، كما تمخض البخيلة سقاءها ، فتحها هذا السلطان ، فصار كُلّ ما فيها له ، وكانت زبدة الحقب ، أي زبدة السنين التي كانت تمخض فيها ، كما تخرج هذه البخيلة زبدتها من سقائها إذا مخضتها " .

ونقل التبريزي(٢) – في شرحه للديوان – عن المعرّيّ قوله : " هذه استعارة لم تستعمل من قبل الطائي " .

(١) شرح مشكلات ديوان أبي تمام ص١٣ .
(٢) الديوان ٤٩/١ .



وقد خطّأ أحد الباحثين أبا تمام في هذا البيت وقال[١] : " إن أبا تمام لم يكن موفقًا ، وذلك لإسناده فعل المخض إلى الله تعالى ، وهذا يدفع إلى التشبيه في حق الله تعالى ، زد على ذلك أن الشّاعر أراد تأكيد المعنى ، فوصف مخض الله السنين بأنه كمخض البخيلة ، لما عندها من اللبن ، وكل ذلك باطل لا يصح " .

وقد أشار إلى رأي أهل السُّنّة والجماعة فيما يوصف به الله تعالى ، مستشهدًا بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في (العقيدة الواسطية) .

ولسنا نوافقه فيما ذهب إليه ، فالشّاعر لم يقصد ذلك ، ولكنه أراد أن عمورية ظلت محفوظة مصونة بعناية الله تعالى ، فاستعصت على الغازين بحيث لم ينالوا منها شيئًا قط ، وظلت هكذا حتى جاء المعتصم ، فأهداها الله له بنصره إياه على الروم ، ولعل ذلك هو ما فهمه المعرّيّ ، والمرزوقي ، والتبريزي ، والصولي ... وسائر مَن شرحوا الديوان أو عرضوا لشعر أبي تمام ..

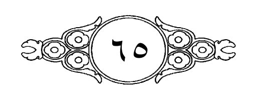
قال الصولي[٢] : " ومعنى البيت : أن هذه المدينة لما أغفلتها السِّنون حتى زادت وحسُنت وصارت زبدة ، أتاها المعتصم ففتحها " .

٢٠ – أَتَــتهُمُ الكُربَــةُ السَــوداءُ ســادِرَةً ∴ مِنهـا وَكــانَ اسـمُها فَرّاجَــةَ الكُـرَبِ

كانت عمورية مصدر الأمن للروم ، فبها يحتمون ، وإليها يفزعون ، وفيها يتحصنون .. هاهي نفسها تتحول إلى مصدر للكربات ، بل كربة الكربات ، فمنها أتتهم ، وعن طريقها كانت هلكتهم .. انطلقت الكربة

---

(١) شعر جهاد الروم ص٣٣٩ – د/ عبد الله بن صالح العريني ، والعقيدة الواسطية ص٧-١٦ – ط/ المطبعة السلفية – القاهرة – ط/ سادسة ١٣٥٢هـ .
(٢) الديوان ١/٥٠ .



منها عمياء تلقف كُلّ ما يلقاها ، فعمّ شرّها ، وطمّ بلاؤها .

٢١ – جَرى لَهـا الفَـأْلُ بَرحًـا يَـومَ أَنقَـرَةٍ ∴ إِذ غـودِرَت وَحشَـةَ السـاحاتِ وَالرُحَـبِ

٢٢ – لَمّـا رَأَت أُختَهـا بِـالأَمسِ قَـد خَرِبَـت ∴ كـانَ الخَـرابُ لَهـا أَعـدى مِـنَ الجَـرَبِ

وقع الخراب أوّلاً بأنقرة ، وكان ذلك نذير شؤم لعمورية ، حيث انتقلت عدوى الخراب في سرعة البرق الخاطف ، وكأنه (فيروس) ينتقل مع الهواء ، وكان ذلك الخراب كالجرب .

إنصاف الخصم :

٢٣ – كَـم بَـينَ حيطانِهـا مِـن فـارِسٍ بَطَـلٍ ∴ قـاني الـذَوائِبِ مِـن آنـي دَمٍ سَـرَبِ

٢٤ – بِسُـنَّةِ السَـيفِ وَالخَطِّـيِّ مِـن دَمِـهِ ∴ لا سُـنَّةِ الـدينِ وَالإِسـلامِ مُختَضِـبِ

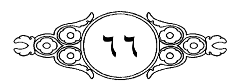
أبو تمام هنا ينصف خصمه ، فيصف فرسان الروم بأنهم أبطال ، إذ تصدوا لجند المسلمين ، ودافعوا عن مدينتهم ببسالة ، ولكن أنّى لهم أن يصمدوا أمام جحافل المسلمين الذين خرجوا يحرصون على الموت حرصهم على حياة عزيزة كريمة ، ويحتسبون الأجر عند الله ؟!

لقد أعمل المسلمون سيوفهم في هؤلاء الفرسان ، فخضبوهم بالدماء ، وكان خضابهم بسُنّة السيوف ، لا بسُنّة الدِّين والإسلام .

قال أبو العلاء – فيما نقله التربيزي عنه –[1] : " أي خُضِبَ شَعْرُه بسُنَّة السيف ، أي بما سنّه وحكم به ، لا بسُنّة الإسلام ؛ لأن الصحابة والتابعين كانوا يرون السُّنّة أن يخضبوا شعورهم بالحناء والكَتَم وما يجري مجراهما من نبات الأرض ، ويكرهون الخضاب بالسواد ويؤثرون الحمرة " .

وفي رواية : (**بِسُنَّةِ السَّيفِ وَالخَطِّيِّ مِن دَمِهِ**) وهو أجود في صحة

(١) الديوان ١/٥٢ .



المقابلة ؛ لأنه يقابل الدِّين والإسلام بشيئين ليسا في الحقيقة مختلفين ، إذ كانا من آلة الحرب ، وفي الرواية الأخرى يقابل الدِّين والإسلام بالسيف والحناء ، وليس الحناء من جنس السيف(١) .

مشهد الحريق وخراب عمورية :

٢٥ – لَقَد تَرَكتَ أَميرَ المُؤمِنينَ بِها ∴ لِلنارِ يَومًا ذَليلَ الصَخرِ وَالخَشَبِ
٢٦ – غادَرتَ فيها بَهيمَ اللَيلِ وَهوَ ضُحىً ∴ يَشُلُّهُ وَسطَها صُبحٌ مِنَ اللَهَبِ
٢٧ – حَتّى كَأَنَّ جَلابيبَ الدُجى رَغِبَت ∴ عَن لَونِها أو كَأَنَّ الشَمسَ لَم تَغِبِ
٢٨ – ضَوءٌ مِنَ النارِ وَالظَلماءِ عاكِفَةٌ ∴ وَظُلمَةٌ مِن دُخانٍ في ضُحىً شَحِبِ
٢٩ – فَالشَمسُ طالِعَةٌ مِن ذا وَقَد أَفَلَت ∴ وَالشَمسُ واجِبَةٌ في ذا وَلَم تَجِبِ

لأوّل مرّة يخاطب أبو تمام المعتصم بلقبه (**أَميرَ المُؤمِنينَ**) ، وذلك لأن القصيدة – كما ذكرنا – ليست في مدح المعتصم ، وإنما هي أساسًا في وصف عمورية ، يقول للخليفة : لقد خلّفت نارًا في عمورية ذلّ لها الصخر والخشب .. إنها لذلة عجيبة غريبة ، لكن الخشب يذل حين تصله النار ، والخشب يذل أيضًا في صورة الوتد ، بل يضرب العرب المثل به في الذلة ، فيقولون : " فلان أذلّ من وتد بقاع " .. وللشعراء حديث في ذلك سيأتي .

ثم تبرز الأضداد في الأبيات بعد ذلك بشكل واضح ، استوقف النقاد والدارسين – كما سيأتي بعد – .

ويعلق البهبيتي على هذه الأبيات قائلاً(٢) : " ... شعر أبي تمام

---

(١) الديوان ٥٣/١ .
(٢) ص٢٠٤ .

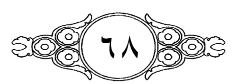
مصطبغ بالدم ، كما كان عصره مصطبغًا بالدم ، ولا يكاد يثير شاعريته شيء كما تثيرها الحروب والدماء ، وأجمل شعره وأعرقه في الشاعرية هو ذلك الذي يصف فيه خرابًا ، أو تحريقًا ، وهو حين يغرق في ذلك لا يكاد يمس قلبه معنى إنساني " .

ثم يذكر الأبيات السابقة ، ويسترسل قائلاً[1] : " ولا أظن شاعرًا يهيأ له في وصف هذا الحريق أكثر مما هيء لأبي تمام ، ولو وقف عند هذا لقلنا : شاعر يصف فلا عليه ، ولكنه لا يقف عند الوصف ، بل هو يهلل لهذه النار ، ويهتف لهذا الخراب ، بروح حاقد ، الإنسان معه أبعد ما يكون عن إنسانيته ... " .. **وأقول :**

إن أي مسلم يقرأ (فتح عمورية) وما سبقها من عيث الروم وإفسادهم ، ليَشعر بمشاعر أبي تمام هذه .. فهؤلاء قوم ملأ صدورهم الحقد ، والغل ، والحسد على المسلمين ، إنهم يحاربون المسلمين في دينهم ، ويخرجونهم من ديارهم ، ويتربصون بهم الدوائر .. وتاريخهم مع المسلمين على مرّ العصور خير شاهد على ذلك .. فهل نسينا ما فعلوه بالأندلس ؟ أم هل ننسى ما فعلوه في البوسنة والهرسك ؟ ... أم ... أم ... إن التاريخ مليء بمثل هذا ، والحروب الصليبية لم تتوقف ، وأعلام المسلمين ممن حملوا رايات الجهاد ضد هؤلاء وردّوهم على أعقابهم يغيظونهم .. وهل غاب عنا ما قاله ذلك الصليبي الحاقد حين عاد إلى بلاد الشام فزار قبر (صلاح الدِّين الأيوبي رحمه الله) وركله بقدمه قائلاً : " ها قد عدنا يا صلاح الدِّين " ؟!

---

(١) السابق نفسه .



واقرأ ما حدث في البوسنة والهرسك للمسلمين على أيدي هؤلاء الصليبيين ، فالفتيات المسلمات المغتصبات يقلن : إن الذي قام باغتصابهن ، أو بَقْر بطون الحوامل منهن إنما هم جيرانهن ، الذين كانت تربطهم علاقات الجوار (١) .

وقد حسم القرآن الكريم الأمر ، وفصل القضية ، في سورة الممتحنة حين قال عز شأنه : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الممتحنة : ٨ ، ٩) .

الشّاعر يصف حريق عمورية ، وعظم النار المشتعلة في أرجائها ، واشتداد تلك النار حتى احترقت الصخور .. ولشدة هذه النار وارتفاعها تبدد ظلام الليل في عمورية المحترقة ، فكأن الصبح قد طلع هناك .

لكأن الظلام رفض جلابيبه السوداء ، فضوء النار أحال الليل نهارًا ، وظلمة الدخان تصيّر الضحى شحبًا ..

إن اشتعال النار في عمورية يوهم الناظر أن الشمس طالعة ، في حين أن كثرة الدخان في النهار تخيّل أن الشمس غائبة .

وإذا كان النابغة قد سبق إلى هذا المعنى حين قال(٢) :

---

(١) راجع لذلك مثلاً : دروس من محنة البوسنة – مُحمّد قطب – دار الشروق ، والبوسنة والهرسك جرح ينزف في جسد الأمة – د/ جمال عبد الهادي – دار الوفاء – ط/ أولى ١٩٩٤م ، والصربيون خنازير أوروبا يحاولون إبادة الوجود الإسلامي في البلقان – د/ عبد الحي الفرماوي – دار الاعتصام ... وغيرها .

(٢) أبو تمام بين ناقديه ص٤٣٠ ، ٤٣١ .. وانظر : فصول – المجلد السادس =

تَبــدو كَواكِبُــهُ وَالشَــمسُ طالِعَــةً ∴ لا النــورُ نــورٌ وَلا الإِظــلامُ إِظــلامُ

فإن شاعريته لم تذهب به إلى أبعد من وصف الشيء على حقيقته ، فما تثيره هذه الكواكب من الفرسان من غبار يحجب الشمس ، ويحيل نورها إلى ضياء باهت ، لا يقرب من الظلمة ، فليس نورًا ، ولا ظلامًا .

" ولكن الطائي يستخدم التضاد في المطابقة استخدامًا تصويريًّا رائعًا ، فالضوء من النار ، ولكن الظلماء عاكفة ، ثم تأتي ظلمة الدخان ، والضحى الشاحب ، وشروق الشمس ، وأفولها " .

" فأبو تمام هنا كثف استخدام هذا اللون البديعي لكي ينقل لنا هذا المنظر الرهيب ، الذي أحال الأشياء عن طبيعتها ، وقلب المعاني إلى أضدادها ، فتولدت صورة في نفسه منعكسة عن تلك الصورة التي رآها في الحريق ، فصارت هذه الصورة المولدة تستثير تلك المتضادات " .

وقد تأثر كثير من الشعراء بمعاني أبي تمام في هذه الأبيات ، فهذا السري الرفاء يقول(١) :

تَرَكْـتَ فـجَّ العِـدا لمَّـا نَزَلْـتَ بِـهِ ∴ وَحْشًـا مَغانيـهِ مَهجـورًا مَنازِلُـهُ

مُسـوَدَّةً مـن لَظـىً حـامٍ مَلاعِبُـهُ ∴ مُحمَـرَّةً مـن دَمٍ جـارٍ جَداوِلُـهُ

وهكذا رسم أبو تمام صورة عمورية المحترقة " ببراعة الفنان ، وحذق الرسام ، وبلاغة الشاعر ، ورهافة حس الأديب "(٢) .

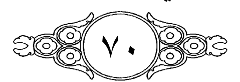
٣٠ – تَصَـرَّحَ الـدَهرُ تَصـريحَ الغَمـامِ لَهـا ∴ عَـن يَـومِ هَيجـاءَ مِنهـا طـاهِرٍ جُنُـبِ

٣١ – لَـم تَطلُـعِ الشَـمسُ فيـهِ يَـومَ ذاكَ عَلـى ∴ بـانٍ بِأَهـلٍ وَلَـم تَغـرُب عَلـى عَـزَبِ

=العدد٢ – يناير وفبراير ومارس ١٩٨٦م بحث بعنوان (أبو تمام في موازنة الآمدي) سوزان بيتكني ستتكيفتش – ترجمة أحمد عثمان .

(١) ديوانه ص٢٢٣ ، وشعر الدعوة الإسلاميّة ص٧٩ .

(٢) الشِّعْر والشعراء في العصر العباسي ص٦٧١ .



تكشّف الدهر كما يتكشف الغمام عن صفحة السماء ، فهناك وضوح وانكشاف وجلاء ، يعيد إلى ذهن القارئ ما تقوم به متون الصفائح البيض من تجلية الشك والريبة .

وكان ما فعله المسلمون في هذا اليوم طاهرًا حلالاً ؛ لأنهم حين أخذوا سبايا الروم لم يكن ذلك منهم عدوانًا بغير حق ، بل كان واجبًا عليهم وليس مندوبًا كما ذهب التبريزي ناقلاً عن أبي العلاء .. إذ الجهاد هنا فرض .. وكان وطؤهم لهؤلاء السبايا قد نتج عنه جنابة فاحتاجوا إلى الغسل .

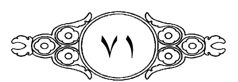
ويبدو لي أن المعنى : أن المسلمين الظافرين كانوا أطهارًا ، بمعنى أنهم لم يلوثوا أيديهم بدماء الصليبيين ظلمًا وعدوانًا ، بل نفضوا عن كواهلهم أعباء ثقالاً حين طهروا أراضي المسلمين المعتدى عليهم .. وأن أولئك الصليبيين الأنجاس سالت دماؤهم فكانت الجنابة(١) .

ولما ذكر الطهارة والجنابة استدعى ذلك ذكر البناء والعزوبة ، فقال : إن المسلمين في صبيحة ذلك اليوم لم يكن واحد منهم متزوجًا ؛ لأنهم خرجوا في سبيل الله وتركوا نساءهم في ديارهم ، فلما غربت الشمس كان كُلّ واحد منهم متزوجًا ؛ لأنهم سبوا من نساء الروم كثيرًا .

٣٢ – **ما رَبعُ مَيَّةَ مَعمورًا يُطيفُ بِهِ ∴ غَيلانُ أَبهى رُبىً مِن رَبعِها الخَرِبِ**

ليس (**رَبعُ مَيَّةَ**) الذي يضم منزلها ، وهي مقيمة فيه ، و(**غَيلانُ**) – يقصد ذا الرمة – يطيف به ، عساه يظفر بسماع صوتها فيشنف أذنيه

(١) هناك معان أخرى ذكرناها في هامش الأبيات ، نقلاً عن الديوان .. وانظر : شرح مشكلات الديوان أبي تمام ص١٣ .



، أو يحْظى بنظرة منها فيمتع عينيه .. وإلاّ فالديار نفسها محببة إليه ، وقد شغف بها ، وتعلق قلبه بدروبها :

وَمــا حُــبُّ الــدِيارِ شَــغَفنَ قلبــي ∴ وَلَكِــن حُــبُّ مَــن سَــكَنَ الــدِيارا

هذه الديار بما تمثله لذي الرمة العاشق الوله ، من جمال ، وبهاء ، ولهفة ، وشوق ، ليست بأبهى ولا أجمل من ربع عمورية وقد أتى عليها الخراب ، وأحاط بها الدمار .

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال : لماذا آثر أبو تمام (ذا الرمة) على مَن عداه من العاشقين والغزلين من الشعراء ؟

أما كان حريًّا به أن يختار واحدًا من مشاهير العذريين ، كجميل بثينة ، أو كثير عزة ، أو قيس لبنى ، أو مجنون ليلى ، أو عروة بن حزام ... إلخ ؟

في إجابة الدكتور عبد القادر القط ما يقنعنا حين يقول[١] : لأن (ميّ) " لا تبدو في شعر ذي الرمة – كمعشوقة الشّاعر العذري – مجرد امرأة جميلة بعينها ، تدور حولها مشاعره بالفشل والحرمان ، بل تبدو كأنها (شوق مطلق) ، و(حنين مجرد) يراودان عواطف الشّاعر وخياله ، في رحلة دائبة سعيًا وراء ذلك الحب المطلق الذي لا يني يفلت من بين يديه " .

قال الآمدي[٢] : " قوله **(ما رَبعُ مَيَّةَ مَعموُرًا يُطيفُ بِهِ غَيلانُ)** إنما استحسنه غيلان وحده ويكون بهيًّا عنده ، لا عند الناس ، وكأنه أراد : أبهى ربًّا عندنا من ربع مية عند غيلان ، والمعنى

(١) في الشِّعْر الإسلامي والأموي ص٣٩٦ .
(٢) الموازنة ٣٥٠/٣ ، والديوان ٥٧/١ ، وأبو تمام بين ناقديه ص٣٩٤ ، ٣٩٥ .



غير جَيِّد ، وإنما كان ينبغي أن يشبهه بشيء له بهاء على كُلّ حال عند كُلّ أحد على العموم ... " .

" وكأن الآمدي لم يهضم معنى بيت أبي تمام ، وقد أوضحه أبو العلاء فقال : فكأن المعنى : ما ربع مية في نفس غيلان أبهى من هذا الربع الخرب في أعين المسلمين ... " .. ويبدو لي أن الآمدي لم يجرب الحب ، فمَن ذاق عَرَفَ .

إن " شعور غيلان هو شعور كُلّ محب ، ولم يكن ذو الرمة إلاّ رمزًا لأمر كلي ، وهو تلك النبضات الخافقة في صدر كُلّ محب ناظر إلى منازل أحبته المعمورة ... " .

ويمضي أبو تمام معجبًا بخراب عمورية وذلتها قائلاً :

٣٣ – وَلا الخُدودُ وَقَد أُدمينَ مِن خَجَلٍ ∴ أَشهى إِلى ناظِري مِن خَدِّها التَرِبِ

أي : ولا خدود الفتاة التي دميت من شدة الخجل أشهى إلى عيني من خد عمورية وقد تمرغ في التراب ، ذلة وانكسارًا .. " لمَّا شبهها بالمرأة وجعلها بكرًا في بعض الأبيات حَسُنَ أن يستعير لها خدًّا "(١) .

٣٤ – سَماجَةً غَنِيَت مِنّا العُيونُ بِها ∴ عَن كُلِّ حُسنٍ بَدا أَو مَنظَرٍ عَجَبِ

هذا القبح الحقيقي – أو في عيون أهل عمورية – أغنى عيوننا عن كُلّ منظر عجيب أو هيئة حسنة ، فقد اجتمع فيه ما يكفي الباحث عن الحسن والجمال .. فعنِي بهذا القبح وبتلك السماجة .

لقد أقر هذا المنظر عيون المسلمين ، وشفى صدور المؤمنين ، وأذهب غيظ قلوبهم ، فلِمَ لا يبدو هكذا في عيونهم ؟!

---

(١) الديوان ٥٧/١ ناقلاً عن أبي العلاء .



٣٥ – وَحُسنُ مُنقَلَبٍ تَبقى عَواقِبُهُ ∴ جاءَت بَشاشَتُهُ مِن سوءِ مُنقَلَبِ

لقد كانت المعركة نصرًا للمسلمين وعزًّا ، بينما كانت للصليبيين هزيمة وذلاً ، فكان الفرح والسرور للمنتصرين ، والحزن والهم للمنكوبين ..

٣٦ – لَو يَعلَمُ الكُفرُ كَم مِن أَعصُرٍ كَمَنَت ∴ لَهُ المَنِيَّةُ بَينَ السُمرِ وَالقُضُبِ

يشير إلى صبر المسلمين (الطويل) على تطاول الصليبيين على ديار الإسلام ، وأن هؤلاء الكفار لو علموا كيف كان الغيظ يزداد حتى صار موتًا كامنًا .. ثم لم يذكر الجواب ؛ لأنه معلوم ، أي (لارْعَوَوا ، وانزَجَرُوا) .

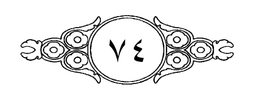
ونظير ذلك في القرآن الكريم : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (الرعد : من ٣١) .. " إن الكفر يلقى منيّته على أيدي المسلمين وبسلاحهم "[١] .

وهكذا يريك أبو تمام مدى إعجابه بمشهد الخراب ، والدمار ، والحريق المشتعل في أرجاء عمورية .. إنه سعيد كُلّ السعادة ، بل يكاد يطير فرحًا بذلك المشهد من الدمار ..

إنها روح أبي تمام المتشفية ، الراغبة في دحر الأعداء ، ورد كيدهم إلى نحورهم ، والغلظة عليهم حتى لا يعاودهم التفكير في التطاول على ديار المسلمين ، وتكون عبرة لكل مَن تسوّل له نفسه الاعتداء على أرضهم وحرماتهم .

وهذه النشوة والسعادة الغامرة بخراب عمورية وذلتها أدخله الجرجاني تحت عنوان (الحسن لمعنى في غيره) وقال[٢] : " هو

(١) في الشِّعْر العباسي ص١٣١ – د/ عز الدِّين إسماعيل .
(٢) التعريفات ص١٢٠ .



الاتصاف بالحسن لمعنى ثبت في غيره ، كالجهاد ، فإنه ليس بحسن لذاته ؛ لأنه تخريب بلاد الله ... وإنما حسن لما فيه من إعلاء كلمة الله ، وهلاك أعدائه ، وهذا باعتبار كفر الكافر " .

وأبو تمام ليس بدعًا من الشعراء ، بل جاء بعده أبو فراس الحمداني فقال :

وملكت حصن (عيون جيحان) وقد ∴ أعيا الورى في دهره المتقدم
وأخذته فرأيت أحسن منظر ∴ من سورة المتهتك المتهدم

ويبدو فيه التأثر بأبي تمام حين تحدث عن عمورية وقد أعيت رياضتها كسرى ، وصدّت عن أبي كرب ..

والمتنبي يقول لسيف الدولة :

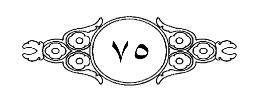
نَثَرتَهُمُ فَوقَ الأحَيدِبِ كُلِّهِ ∴ كَما نُثِرَت فَوقَ العَروسِ الدَراهِمُ

يقول البهبيتي معلقًا على الأبيات[(١)] : " وأبو تمام في هذا الحس النفسي بجمال هذا المنظر الوحشي ، مخلص يعبّر عنه تعبيرًا يهزّك ، بل هو يرضيك أيضًا ، وتأخذك منه روعة الصورة ، ولأبيات القصيدة جميعها ، ذلك الجمال الذي يحمل النفس على إعجاب بالشرّ ، وقبول لذلك الحقد الشرير الذي يملؤها ، واستساغة لمظهر من مظاهر الوحشية تأباه بقية من الخير في الإنسان ، حين يخلص إلى نفسه ، وينفك عنه إسار ذلك الجمال الشِّعْريّ للقصيدة شيئًا ، فإذا أردت لهذا علّته عند أبي تمام ، وجدتها في حماية الذات ، وهي التي تستشفها وتتدرّج إليها من وراء قوله :

وَحُسنُ مُنقَلَبٍ تَبقى عَواقِبُهُ ∴ جاءَت بَشاشَتُهُ مِن سوءِ مُنقَلَبِ

---

(١) ص٢٠٤ ، ٢٠٥ .



وهي أكثر وضوحًا في قوله :

إنّ الحِمامَينِ مِن بيضٍ وَمِن سُمُرٍ ∴ دَلوا الحَياتَينِ مِن ماءٍ وَمِن عُشُبِ

أمّا الدكتور عز الدِّين إسماعيل فيقول[1] : " وإنه ليبدو (ساديا) يتلذذ بمشهد عذاب الآخرين ، حين ينظر إلى المدينة الخربة الذليلة فيجد في ذلك متعة لا تعدلها متعة ... ولكننا حين نتعمق هذا الشعور الذي قد يبدو ساديًا نعرف أن هناك معنى آخر غير السادية هو ما حسن منظر تلك المدينة الخربة على التحديد في نظره ، هو إدراك الشاعر لكون ذلك الخراب إنما هو خراب للمشركين ودار الشرك ، فهو إنما يبتهج على التحديد ، وقد رأى الشرك أمامه مندحرًا ، وليس قاعدة عامة عنده أن يبتهج بالمنظر السمج ، ويؤثره على الحسن " .

بين المعتصم وتيوفيلوس :

ويقيم أبو تمام موازنة بين (المعتصم) خليفة المسلمين و(تيوفيلوس) قائد الصليبيين المعتدين ، وتطول هذه الموازنة فتمتد من البيت السابع والثلاثين إلى نهاية القصيدة ، وفي بعض الأبيات نجد مدحًا للمعتصم وثناء عليه .

٣٧ – **تَدبيرُ مُعتَصِمٍ ، بِاللهِ مُنتَقِمٍ ∴ لِلَّهِ مُرتَقِبٍ ، في اللهِ مُرتَغِبِ**

ويمكن قراءة البيت بصورة أخرى هكذا :

تَدبيرُ مُعتَصِمٍ بِاللهِ ، مُنتَقِمٍ ∴ لِلَّهِ ، مُرتَقِبٍ في اللهِ مُرتَغِبِ

بيد أن هذه القراءة تذهب بروعة موسيقا التقسيم ، يستغل أبو تمام لقب الخليفة ، ويجعل له من لقبه أوفر الحظ والنصيب ، اسم على

(١) في الشِّعْر العباسي ص١٣٤ ، ١٣٥ .



مسمى ، إذ هو (**مُعتَصِم بِاللهِ**) ، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران : من ١٠١) ، وهو (**مُنتَقِمٍ لِلَّهِ**) فهاهو قد غزا الصليبيين لأنهم نكثوا العهد ، ولم يوفوا به ، (**مُرتَقِبٍ في اللهِ**) لا يبغي مما قام به جزاء ولا شكورًا ، وإنما هو الحرص على الائتمار بأمر الله ، والانتهاء عن نهيه .. راغب في رضا الله عليه ، وفي القرب منه χ .

٣٨ – **وَمُطعَمِ النَصرِ لَم تَكهَم أَسِنَّتُهُ ∴ يَومًا وَلا حُجِبَت عَن رَوحِ مُحتَجِبِ**

كأن أبا تمام يشير من طرف خفيّ إلى أن المعتصم رجل نصر الله ، وسُنّة الله لا تتبدّل ولا تتحوّل ، فمن ينصر الله ينصره : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ (الحج : من ٤٠) ومن هنا اعتاد النصر ، وصار مثل ذلك القانص الذي اعتاد ألاّ يأكل إلاّ اللحم الذي يصيده ، فقالوا : " مُطْعَم الصّيْد " .

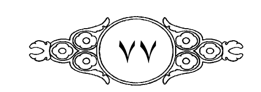
فالمعتصم ذاق النصر وعرف حلاوته ، فلم يرض سواه ، ولكنه عمل بما يقتضيه ، فكان معتصمًا بالله ، منتقمًا لله ، مرتقبًا في الله ... فنصره الله .

لم تكهم أسنته ، أو تنبو سيوفه ، فما استطاع أحد أن يستتر عنه ، بل طالت سيوفه أعداءه ، فلم يستطيعوا الاختباء منه ، أو التخفي عنه .

والشاعر في هذه الأبيات ، وما تلاها يثبت للمعتصم قوة معنوية ونفسية – فوق قوته العسكرية – .

٣٩ – **لَم يَغزُ قَومًا وَلَم يَنهَض إِلى بَلَدٍ ∴ إِلّا تَقَدَّمَهُ جَيشٌ مِنَ الرُّعُبِ**

يواصل حديثه عن تأييد الله له ، فهو لم يفكر في غزو قوم ، أو يتحرك بجنده إلى أعدائه إلاّ تقدمه جيش آخر ، وهو جيش من الرعب .



وقد أخذ حازم القرطاجني هذا المعنى فقال في مقصورته :

جَيشٌ جُيُوشُ الرُّعبِ مِن قدَّامِهِ ∴ تَسري وتغزو قبلَهُ مَن قد غَزا

وأصل هذا كله من قول الرسول ﷺ : « ... **نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ** »(١) .

٤٠ – **لَو لَم يَقُد جَحفَلاً يَومَ الوَغى لَغَدا ∴ مِن نَفسِهِ وَحدَها في جَحفَلٍ لَجِبِ**

إن المعتصم – وحده – جيش ، وكأن أبا تمام أراد أن يدفع الظنة بأن المعتصم يستمد قوته وشجاعته ويتحقق له النصر بجيشه .. فقال : هو بذاته جيش ، الجيش يستمد قوته من قائده ، ويقتدي بشجاعته ، وليس العكس .

وقال حازم القرطاجني في المقصورة :

يَمتَنِع الجَيشُ بهِ ويحتمي ∴ إذا امرؤٌ بالجيش والجُندِ احتَمَى

قال السبتي(٢) : " المعنى : أن الأمراء من عادتهم أن يمتنعوا بجيوشهم ، ويدفعوا بها عن أنفسهم ، وأن هذا الأمير به يمتنع الجيش ، لشدة إقدامه ، وعظيم رهبة العدو له ، وإنما أخذه من قول المتنبي :

بالجَيشِ تَمتَنِعُ الساداتُ كُلّهُمُ ∴ وَالجَيشُ بِابنِ أبي الهَيجاءِ يَمتَنِعُ

وهو ينظر إلى قول أبي تمام :

لَو لَم يَقُد جَحفَلاً يَومَ الوَغى لَغَدا ∴ مِن نَفسِهِ وَحدَها في جَحفَلٍ لَجِبِ

وقد كرر أبو الحسن بن حازم هذا المعنى في بعض قصائده ، فقال :

ما يحتمي بالجيش كلا بل به ∴ وببأسهِ الجيشُ العرمرمُ يحتمي

(١) رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة ٥٠١/٢ – لأبي القاسم السبتي .. =
= والحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .
(٢) رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة ٢٧٨/٢ ، ٤٧٦ .



٤١ – رَمــى بِــكَ اللهُ بُرجَيهــا فَهَــدَّمَها ∴ وَلَــو رَمــى بِــكَ غَيــرُ اللهِ لَــم يُصِــبِ
٤٢ – مِــن بَعــدِ مــا أَشَّــبوها واثِقــينَ بِهــا ∴ وَاللهُ مِفتــاحُ بــابِ المَعقِــلِ الأَشِــبِ
٤٣ – وَقــالَ ذو أَمــرِهِم لا مَرتَــعٌ صَــدَدٌ ∴ لِلســارِحينَ وَلَــيسَ الــوِردُ مِــن كَثَــبِ
٤٤ – أَمانِيًــا سَــلَبَتهُم نُجــحَ هاجِسِــها ∴ ظُبــى السُــيوفِ وَأَطــرافُ القَنــا السُــلُبِ
٤٥ – إِنَّ الحِمــامَينِ مِــن بــيضٍ وَمِــن سُــمُرٍ ∴ دَلــوا الحَيــاتَينِ مِــن مــاءٍ وَمِــن عُشُــبِ

ولا يزال أبو تمام مُصرًّا على إسباغ الصفات الدِّينيّة على المعتصم ، ويلحّ على أنه خرج مقاتلاً في سبيل الله ، لتكون كلمة الله هي العليا ، بل إنه كان مُسخّرًا من الله ﷻ لهدم معقل الصليبيين ، وعمود الشرك ، والدليل على ذلك أنه انتصر .. فقد كانت غضبته لله ، وجهاده في سبيله ، ولو كان الهدف غير ذلك ما نصره الله .. وهو يستحضر معنى الآية الكريمة : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال : من ١٧) .

لقد كانت عمورية محصّنة ممنّعة ، تستعصي على كُلّ مَن يروم غزوها ، ولكن الله فتحها على يد عبده المعتصم .

ويذكر أبو تمام عظمة النصر وقوته ، ومدى البلاء الذي بذله المسلمون ، وفي سبيل ذلك يعرّج على خطة الروم التي تتركّز في منع الطعام والماء عن المسلمين ، وحينئذ إمّا أن يستسلموا ، وإمّا أن يتراجعوا .

تلك كانت أمانيهم ، وأفكارهم التي تدور في عقولهم ، ولكن السيوف والرماح استلّت هذه الأماني من دواخلهم ، فقضت قضاءً مبرمًا على آمالهم .. ولا غرو ، فالسيوف والرماح يمثلان الموت ، وهما سبيل الحياة ، إذ عن طريقهما يصل المسلمون إلى الماء والعشب ، هما إذًا موت وحياة ، موت للأعداء ، وحياة للمسلمين .

قال الصولي(١) : " أي لا تُنال لذة الأكل والشرب إلاّ بالرماح والسيوف ، وضرب لهذا مثلاً ، فقال : هما دلوا الحياتين ، يعني أن الحمامين بالبيض والسمر دلوا الحياتين : الحياة بالماء ، والحياة بالنبات ، إذ كان لابد منهما ، أو مما يحيا بهما ، فكأنهما يستقيان هاتين كما يستقي الدلوان الماء " .

ويُبدي الدكتور زكي المحاسني إعجابه بهذا البيت قائلاً(٢) : " وهو معنى لا يجود بمثله إلاّ صبور على الحكمة ، مترس بالعقل والخيال ، يجعل الرماح والسيوف أشطان بدر يتدلى منها دلوان يمتاحان الماء ، وبسببهما يكون العشب النابت بعد الإرواء ، وليس من عجب – على الرغم من صنعة أبي تمام – أن يكون الحمام سبب الحياة ، ففي الموت حياة " .

٤٦ – لَبَّيتَ صَوتًا زِبَطرِيًّا هَرَقتَ لَهُ .·. كَأسَ الكَرى وَرُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

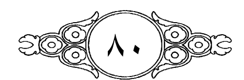
٤٧ – عَداكَ حَرُّ الثُّغورِ المُستَضامَةِ عَن .·. بَردِ الثُّغورِ وَعَن سَلسالِها الحَصِبِ

٤٨ – أَجَبتَهُ مُعلِنًا بِالسَيفِ مُنصَلِتًا .·. وَلَو أَجَبتَ بِغَيرِ السَيفِ لَم تُجِبِ

٤٩ – حَتّى تَرَكتَ عَمودَ الشِركِ مُنعَفِرًا .·. وَلَم تُعَرِّج عَلى الأَوتادِ وَالطُنُبِ

أجبت أيها الخليفة صوتًا صادرًا من مدينة (زِبَطْرة) يستغيث بك : (وا معتصماه) ، فقمت من فورك وأغثته .. واستلزمت هذه التلبية إراقة كأس الكرى ، وتطليق الراحة والنعيم وكُلّ وسائل المتعة .. لم يرقأ لك جفن ، أو تكتحل عيناك بنوم .. كيف وثغور المسلمين قد أصابها الظلم ، ونزل بها الضيم ، فاستبيحت محارمها ، وانتهكت أعراضها ؟!

(١) الديوان ٦١/١ .
(٢) شعر الحرب في أدب العرب ص١٩٠ – ط/ دار المعارف – مصر – ط/ ثانية ١٩٧٠م .



إنه راع يدرك مسئوليته تجاه رعيته ، والأمانة التي حملها ، وسيسأله الله عنها يوم القيامة ، حتى ولو كانت دابة عثرت .. لِمَ لَمْ تذلّل لها الطريق ؟ – كما قال عمر الفاروق – .

لقد كانت الثغور مشتعلة حارة لما وقع عليها ، فأنّى له أن يتمتع بالثغور الباردة ؟! وكانت التلبية بالسيف الماضي الحاسم ، وما كان لغير السيف أن يجيب ، فهو الحسام ، الذي يعيد الأمور إلى نصابها ، ويرد الحقوق إلى أصحابها .. ولو أن المعتصم حاول بغير السيف لما أغاث ، ولما انتصر ؛ لأن الله أمر بالقتال : ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ (البقرة : من ١٩٣) ، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ (البقرة : من ١٩٠) ، ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة : من ١٩٤) .

لا مجال حينئذ لمفاوضات أو مباحثات ، ولا مكان لسلام ، وقديمًا قال الحطيئة[1] :

إذا خافكَ القَومُ اللِئامُ وَجَدتَهُم	**سَراعًا إلى ما تَشتَهي وَتُريدُ**
وَإن أمِنوا شَرَّ امرِئٍ نَصَبوا لَهُ	**عَداواتِهِم إمّا رَأوهُ يَحيدُ**
فَداوِهِمُ بِالشَرِّ حَتّى تُذِلَّهُم	**وَأنتَ إذا ما رُمتَ ذاكَ حَميدُ**
وَهُم إن أصابوا مِنكَ في ذاكَ غَفلَةً	**أتاكَ وَعيدٌ مِنهُمُ وَوَعيدُ**
فَلا تَخشَهُم وَاخشُن عَلَيهِم فَإنَّهُم	**إذا أمِنوا مِنكَ الصِيالَ أسودُ**

وكانت النتيجة أن انعقر عمود الشرك – أو انقعر – ، وهل يبقى شيء في الخيمة بعد زوال العمود والأس ؟! وفيه إشارة إلى أن (عمورية) كانت

(١) ديوانه – بشرح ابن السكيت ص٧٦ .



عاصمة الصليبيين ، وبدهي أن سقوط العاصمة إيذان بسقوط الدولة .

وهذا البيت مما أشكل معناه ، قال الصولي ولم يدرك المراد : يقول حتى حططت عمود الشرك منعفرًا ، فألصقته بالعفر وهو وجه الأرض ، وهذه استعارة ومَثَل .. **(وَلَم تُعَرِّج عَلى الأَوتادِ وَالطُنُبِ)** أي سافرت مبادرًا ، لم تكتنّ بالخيم ، وقيل : إن المعنى : لم تلتفت إلى الغنائم[1] .

تيوفيلوس : مُختال ، جبان ، يفر من الميدان :

٥٠ – لَمّـا رَأى الحَـربَ رَأيَ العَـينِ تـوفِلِسٌ .·. وَالحَـربُ مُشـتَقَّةُ المَعنـى مِـنَ الحَـرَبِ

٥١ – غَـدا يُصَـرِّفُ بِـالأَموالِ جِريَتَهـا .·. فَعَـزَّهُ البَحـرُ ذو التَيّـارِ وَالحَـدَبِ

٥٢ – هَيهـاتَ زُعزِعَـتِ الأَرضُ الوَقـورُ بِـهِ .·. عَـن غَـزوِ مُحتَسِـبٍ لا غَـزوِ مُكتَسِـبِ

٥٣ – لَـم يُنفِـقِ الـذَهَبَ المُربـي بِكَثرَتِـهِ .·. عَلـى الحَصـى وَبِـهِ فَقـرٌ إِلـى الـذَهَبِ

٥٤ – إِنَّ الأُسـودَ أُسـودَ الغيـلِ هِمَّتُهـا .·. يَـومَ الكَريهَـةِ فـي المَسـلوبِ لا السَـلَبِ

٥٥ – وَلّـى وَقَـد أَلجَـمَ الخَطِّـيُّ مَنطِقَـهُ .·. بِسَـكتَةٍ تَحتَهـا الأَحشـاءُ فـي صَـخَبِ

٥٦ – أَحـذى قَرابينَـهُ صَـرفَ الـرَدى وَمَضـى .·. يَحتَـثُّ أَنجـى مَطايـاهُ مِـنَ الهَـرَبِ

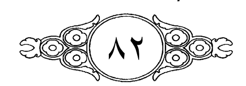
٥٧ – مُـوَكِّلاً بِيَفـاعِ الأَرضِ يُشـرِفُهُ .·. مِـن خِفَّـةِ الخَـوفِ لا مِـن خِفَّـةِ الطَـرَبِ

٥٨ – إِن يَعـدُ مِـن حَرِّهـا عَـدوَ الظَلـيمِ فَقَـد .·. أَوسَـعتَ جاحِمَهـا مِـن كَثـرَةِ الحَطَـبِ

وبينما كان المعتصم – قائد المسلمين – مضحّيًا بالغالي ، باذلاً كُلّ نفيس ، مطلّقًا كُلّ راحة ، مدركًا مسئوليته تجاه رعيّته .. كان القائد الصليبي محتالاً ، وقبل ذلك كان غبيًّا :

حين رأى الغلبة للمسلمين ، وجندهم مندفعين كالتيار ، وجحافلهم

(١) شرح الصولي لديوان أبي تمام ١/١٩٩ ، ٢٠٠ ، ومنهج المرزوقي في الخصومة النقدية حول أبي تمام ص٥٤ – د/ مصطفى عليان – دار القلم – دمشق .



كالسيل المدمّر ، راح يحتال لينجو من عاقبة مكره وسوء تدبيره ، فعرض على المعتصم مبلغًا من المال – قدّره بعض المؤرخين بما يربو على ألف كيلو من الذهب – ظانًّا أن ذلك سيقف الزحف .

لقد ارتجّت الأرض تحت أقدام ذلك المغرور ، فلم يحسن التفكير ، وتوهّم أن المعتصم سيقبل فدية .. كيف وهو الذي بذل من الأموال في هذا الغزو ما يربو على الحصى ؟!

لم يفهم (تيوفيلوس) أن المعتصم يحتسب ذلك عند الله ، لم يبغ من ورائه كسبًا ماديًّا .

ثم إن ذلك ليس من دأب الفرسان الأبطال ، أعني أن يكون همّهم المغنم والمتاع ، وإنما الهمّ الأكبر في المسلوب وليس السلب ، إنهم يقتحمون الوغى ويعفّون عند المغنم – على حدّ قول عنترة – .

ولما لم يجد (تيوفيلوس) بدًّا من الهرب أطلق لقوائمه العِنان ، فولّى الأدبار ، هائمًا على وجهه ، وقد صارت الرماح كاللجام في فمه ، وعصف الرعب بقلبه ، بينما أحشاؤه تصطخب ، وبطنه تضطرب ..

قال المرزوقي في هذا البيت[1] : " رأيت بعضهم يقول : ليس للسكتة تحت ، يعيبه بقوله : " **تَحتَها الأَحشاءُ** " ، وهذا جهل منه ؛ لأن الإشارة إلى آلة الكلام ، والسكوت والإلجام لا يتأتّى إلاّ فيها ، وإذا كان كذلك فذكر المنطق والسكوت يشار به إلى الفم ، وكذلك الضمير المتصل بـ (تحت) يرجع إليه في الحقيقة " .

ترك (تيوفيلوس) جنده ، بل خاصته من الأبطال ، وحاشيته

(١) منهج المرزوقي ص٩٧ (مرجع سابق) .



المقربين ، قدّمهم قرابين لجيش المسلمين ، وقال – بلسان الحال – : نفسي .. نفسي ، واختار أسرع خيوله التي تحقق له النجاة ..

ويرسم أبو تمام صورة (كاريكاتورية) ساخرة لذلك القائد الهارب ، فيصوره في هيئة طائر مستطار القلب ، مفزّع ، ينظر يمنة ويسرة ، وأمامه وخلفه ، ويقفز من مرتفع إلى مرتفع من الأرض ، ويشبهه بالظليم – ذكر النعام – المعروف بالنّفار والسرعة ..

ويقول للمعتصم – مصوّرًا مدى ما أنزل بعمورية من حريق – إن هذا القائد لم يجد بدًّا من الهرب ؛ لأنك أوسعت النيران ، فعمّت المكان كله ، فإلى أين يذهب ؟

٥٩ – تِسعونَ أَلفًا كَآسادِ الشَرى نَضِجَت .:. جُلودُهُم قَبلَ نُضجِ التينِ وَالعِنَبِ

٦٠ – يا رُبَّ حَوباءَ حينَ اجتُثَّ دابِرُهُم .:. طابَت وَلَو ضُمِّخَت بِالمِسكِ لَم تَطِبِ

في البيت (٢٣) أنصف جنود الروم ، وهنا أيضًا يثني على صنيعهم مقارنة بما حدث من قائدهم الهارب ، فقد كانوا شجعانًا كأسود الشرى ، لكن النار المشتعلة كانت من الكثافة بحيث أنضجت جلودهم .

وتأمل تشفّي أبي تمام الواضح بعملية الشواء ، فهو يرى النار تقوم بتطهير هؤلاء المشركين ، وتطيبهم من النجاسة والنتن .. ولو أن هؤلاء نقعوا نقعًا في الطيب والمسك لما طهرت أجسادهم ، ولما طابوا كما طيبتهم هذه النار .. ومادام العلاج غير مجد مع هؤلاء الصليبيين فلابد من استئصال شأفتهم ، وكان هذا الاعتقاد قد ترسخ لدى المسلمين ؛ لأن الروم لم يسمعوا لنصح ، ولم يرعووا لزجر ، بل تمادوا في عيثهم وإفسادهم .

وهذا البيت (٥٩) يؤكّد أن مفسّر الشِّعْر وناقده في حاجة ماسة إلى

معرفة الظروف والملابسات المحيطة بالقصيدة .

وقد تكلّم الناس في هذا البيت ، وذكره الصولي رادًّا على مَن طعن فيه وقال[1] : " إن كان هذا لأن التين والعنب ليس مما يذكر في الشِّعْر ، وأنه مستهجن ، فقد قال ابن الرقيات :

سَقيًا لِحُلوانَ ذي الكُرومِ وَما .:. صَنَّفَ مِن تينِهِ وَمِن عِنَبِه

وأنشد الفراء في مدح العنب :

كأنها مِنْ ثَمَرِ البَساتِينْ .:. العِنَباءِ المُنْتَقَى والتِّينْ

وإن كان المعيب لم خصّهما دون غيرهما ، فقد كان يجب أن يتعلم هؤلاء أوّلاً ويطلبوا ، ثم يتكلمون ويعيبون ، وقد عابه عليه مَن لم يدْر قصده .. وكانوا يقولون : إنما يفتح مدينتنا أولاد الزنا ، فإن أقام هؤلاء إلى زمن التين والعنب لم يفلت منهم أحد .

فبلغ ذلك المعتصم فقال : أمّا إلى وقت التين والعنب فأرجو أن ينصرني الله ﷻ قبل ذلك ..

وقول أبي تمام : " **السَيفُ أَصدَقُ أَنباءً مِنَ الكُتُبِ** " يبيّن هذا .

٦١ – **وَمُغضَبٍ رَجَعَت بيضُ السُيوفِ بِهِ .:. حَيَّ الرِضا مِن رَداهُم مَيِّتَ الغَضَبِ**

ويعود أبو تمام إلى محور القصيدة وهو (السيف) ، فيرد إليه الفضل في إسكات الغضب ، بل إماتته ، وإحلال الرضا محلّه .. فهو يجعل السيوف (البيض) قائدة ، رائدة ، إذ هي فاعل الرجوع ، وهي فاعل الإماتة – إماتة الغضب – ، والإحياء – إحياء الرضا – وكانت هي الذاهبة بالجيش ، والراجعة به بعد حسم الأمور .

---

(١) أخبار أبي تمام ص٣٠ ، ٣١ ، والديوان ٦٩/١ .



٦٢ – وَالحَربُ قائِمَةٌ في مَأزِقٍ لَجِجٍ .·. تَجثو الكُماةُ بِهِ صُغرًا عَلى الرُكَبِ
٦٣ – كَم نيلَ تَحتَ سَناها مِن سَنا قَمَرٍ .·. وَتَحتَ عارِضِها مِن عارِضٍ شَنِبِ
٦٤ – كَم كانَ في قَطعِ أَسبابِ الرِقابِ بِها .·. إِلى المُخَدَّرَةِ العَذراءِ مِن سَبَبِ
٦٥ – كَم أَحرَزَت قُضُبُ الهِندِيِّ مُصلَتَةً .·. تَهتَزُّ مِن قُضُبٍ تَهتَزُّ في كُثُبِ
٦٦ – بيضٌ إِذا انتُضِيَت مِن حُجبِها رَجَعَت .·. أَحَقَّ بِالبيضِ أَترابًا مِنَ الحُجُبِ

يصف الحرب وقد اشتدت رحاها ، والتهب سعيرها ، حتى إن الأبطال جثوا على ركبهم .. وتحت سنا الحرب – أي نيرانها – نال المسلمون سبايا الروم ، وتحت **(عارِضِها)** أي غبارها حصلوا على الحسناوات الجميلات من الروم .

ولم يكن الوصول إلى هؤلاء الحسناوات ميسورًا ، إذ كان لابد من قتل رجال الروم الأبطال الذين كانوا حائلاً بين المسلمين وحسناوات الروم .

لقد كانت هؤلاء الروميات من الكثرة كما أفادت **(كَم)** ، وقد سبق أن قال : إنه لم يبق جندي واحد عزبًا (البيت ٣١) .

وما كان لهذا كُلّه أن يتحقق لولا (القضب الهندية المصلتة) التي كانت جديرة بهؤلاء النساء من حجبهن ..

والمشاكلة والتجنيس واضحان في هذه الأبيات وضوحًا شديدًا .

٦٧ – خَليفَةَ اللهِ جازى اللهُ سَعيَكَ عَن .·. جُرثومَةِ الدينِ وَالإِسلامِ وَالحَسَبِ
٦٨ – بَصُرتَ بِالراحَةِ الكُبرى فَلَم تَرَها .·. تُنالُ إِلّا عَلى جِسرٍ مِنَ التَعَبِ
٦٩ – إِن كانَ بَينَ صُروفِ الدَهرِ مِن رَحِمٍ .·. مَوصولَةٍ أَو ذِمامٍ غَيرِ مُنقَضِبِ
٧٠ – فَبَينَ أَيّامِكَ اللاتي نُصِرتَ بِها .·. وَبَينَ أَيّامِ بَدرٍ أَقرَبُ النَسَبِ
٧١ – أَبقَت بَني الأَصفَرِ المِمراضِ كَاسمِهِمُ .·. صُفرَ الوُجوهِ وَجَلَّت أَوجُهَ العَرَبِ

وأخيرًا ، يخاطب المعتصم بلقبه (**خَليفَةَ اللهِ**) ؛ لأنه كان على مستوى المسئولية ، كان خليفة بحق ، ذاد عن الديار ، ورفض الذل والعار ، وأبى الضيم ، وأنكر الظلم ، ورد الحقوق المسلوبة ، والأرض المغصوبة ... فاستحق أن يكون (**خَليفَةَ اللهِ**) حَقًّا .

ولذلك يدعو الشّاعر بأن يجزيه الله عن فعله ، وحذف المفعول ليكون الجزاء أعم .. لأن فعله عظيم ، أكبر من أن يحدد الشّاعر جزاءه في دعائه لله χ .

ثم يأتي بيته الذي صار مضرب الأمثال ، حيث يستدعى كثيرًا .. وهو من المعاني المطروقة ، فيقول : لقد اهتديت إلى معرفة الراحة الكبرى حيث أدركت أنه لابد لمن أراد تحصيلها أن يتعب ويجدّ ويدأب ..

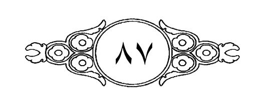
ويعقد مشابهة بين (عمورية) و(بدر الكبرى) فيرى هناك قرابة لصيقة ، وعهدًا غير منقطع بينهما .. وذلك ناتج عن قراءته لظروف ومناسبات الغزوات الإسلاميّة – كما سيأتي – ..

ويختم القصيدة ببيت هو بمثابة قفل محكم ، حيث لخص فيه نتيجة المعركة وآثارها في كُلّ من المسلمين والصليبيين ، فهو ختم حسن .

وأطلق على الروم (**بَني الأَصفَرِ**) ، وقد ورد هذا الاسم في أحاديث الرسول ﷺ ، قيل : ويقال لملوك الروم : بنو الأصفر ، وذلك أن حبشيًّا كان جلب على بلادهم ، فنكح فيهم ، فولد له أولاد يخالط بياضهم صُفْرة من سواده ، فازدادوا بذلك حُسنًا .

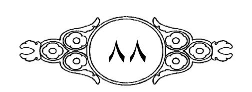
وقيل : الأصفر هو الأسود عند العرب .





قصيدة عمورية .. دراسة فنية

١ – الطلل في القصيدة .
٢ – الأنوثة .
٣ – القصيدة والمذهب الفني .
٤ – الثنائية الضّدّية في القصيدة .
٥ – الموسيقا .
٦ – التكرار .
٧ – روافد أبي تمام فيها .
٨ – وظائف السيف وأدوات الحرب .
٩ – المعجم الشِّعْريّ .



(١) الطلل في القصيدة

نظر بعض النقاد في القصيدة وسارعوا قائلين : لم يبدأ أبو تمام قصيدته بطلل ؛ لأن المناسبة لا تحتمل الوقوف على الطلل ، ولذا رأيناه يهجم هجومًا على غرضه(١) .

ونقول : كلا ، بل القصيدة كلها تدول حول الطلل ، فعمورية هي الطلل ، لكن أبا تمام خالف الشعراء حين جعل الطلل غاية ، وسخر كُلّ الفنون لخدمة هذه الغاية ، حتى الممدوح نفسه ، وظفه وجعله وسيلة لعمورية ، حين يقول :

غادَرتَ فيها بَهيمَ اللَيلِ وَهوَ ضُحىً ∴ يَشُلُّهُ وَسطَها صُبحٌ مِنَ اللَهَبِ

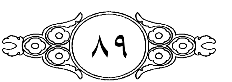
ولذلك فنحن لا نرى من المناسب أبدًا أن يُعنْون لها بـ (مدح المعتصم) .

فـ " لم تكن هذه القصيدة – البائية – التي نبّه على أهميتها (طه حسين) مدحًا للمعتصم قدر ما كانت حوارًا يديره الشّاعر من خلال هذه الظروف حول فكرة الظلام نفسها ، ولكن المشغولين ببحث المديح يهملون كثيرًا من جوانب المعنى الأصلية ، متوهمين أن الشّاعر ظل أسيرًا في قصيدته لمجال خاص وإنسان معين ، دون أن يذيب هذا كُلّه في شيء عام أكثر أهمية وأجدر بالبقاء والاستمرار " .

" وإن نظرة يسيرة على بائية أبي تمام تكشف لنا كيف استطاع أبو تمام أن يحرك من خلال المديح تلك المشاعر القديمة الباقية في قلب الشّاعر العربيّ ، والإنسان العربيّ ، والإنسان بوجه عام " .

---

(١) راجع مثلاً : البهبيتي ص٢٢٥ .



" وليس أمامنا إلاّ أن نذكر كيف حرص أبو تمام على أن يجعل عمورية نوعًا من الأطلال أكثر جمالاً من الأطلال التي وقف عندها الشعراء ... " .

" لم يكن الطلل من صنع الإنسان ، بل كان دخيلاً عليه ، وجاء أبو تمام فجعل من المدح وسيلة مسخرة للخوض في هذا المجال ، وتساءل : ألا يمكن أن يجعل الإنسان الطلل جزءًا من قدرته ، وأن يحرك الشعور بالعدم كما يحرك الشعور بالحياة ؟ فلا غرابة إذا زعمنا أن مدح المعتصم كان أداة في بعض الأحيان ، ولم يكن غاية الغايات في كُلّ أوان ... " .

وظل أبو تمام يسخر المعتصم والحادث التاريخي لحوار جديد مع الأطلال ومع الظلام والليل[1] ..

(٢) الأنوثـــة

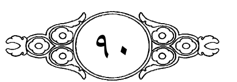
يبدو أن صورة (عمورية) تلك الفتاة (البَرْزَة) ، (الحسناء) ، (البكر) التي أعيت (كسرى) برياضتها وصدت عن (أبي كرب) .. كُلّ ذلك جعل أبا تمام يدير حواره حول الأنثى هذه .. ولم يقتصر الحديث عليها ، بل جاءت صورة الأنثى في القصيدة كثيرًا :

* ففي البداية جعل (المنى) مثل النوق الممتلئة ضروعها بالحليب ، مضافًا إليه العسل :

يا يَومَ وَقعَةِ عَمّورِيَّة انصَرَفت ∴ مِنكَ المُنى حُفَّلاً مَعسولَةَ الحَلَبِ

* ونقل الحديث إلى (عمورية) فجعلها أُمًّا للروم ، رءوفًا بهم ، حنونًا عليهم ،

(١) اللّغة بين البلاغة والأسلوبية ص٣٠٩ .



يرتمون في أحضانها حين تلمّ بهم ملمّة .. فكان عليهم إذًا أن يكونوا بارّين بها ، يفتدونها بكل غال عندهم ، يفتدونها بالآباء والأمهات :

أمٌّ لَهُم لَو رَجَوا أن تُفتَدى جَعَلوا ∴ فِداءَها كُلَّ أمٍّ مِنهُمُ وَأبِ

* وصوّر أبو تمام عمورية في صورة فتاة بـرْزة ، تصون نفسها ، وتحفظ عفتها ، ولا تخشى من مخالطتها الرجال .. وهي ترى نفسها أعز ، وأعلى ، وأرفع من أن تقبل أولئك الذين تقدموا لخطبتها ، على الرغم من أنهم ملوك ، لهم أسماء حفظها التاريخ .. لقد انبـرَت تصدّهم ، وتردّهم عازفة عن الزواج ..

فهذا (كسرى) ملك الفرس ، قائد إحدى دولتين عُظْمَيَيْن ، أعيته برياضتها .. وذاك (أبو كرب) تصدّه ، وتردّه ..

وتظل عمورية بكرًا ، لم تفترعها حوادث التاريخ ومصائبه ، لمنعتها ، وقوتها .. لكأنها كانت تنتظر فارسًا بعينه يستحقها ، هذا الفارس ، أو فتى الأحلام إنما هو (المعتصم) .. ويسارع أبو تمام إلى محو ما قد يكون سرى إلى الأذهان من أن (عمورية) قد شابت ؛ لأنها عتيقة ، قديمة ، منذ كسرى وأبي كرب ، فينفي ذلك الفهم ، وهو أن الشيب لم يتطرق إليها .. فالظرف هو الذي أصيب بالشيب ، أمّا المظروف (عمورية) فلم تشب ..

مِن عَهدِ إسكَندَرٍ أو قَبلَ ذَلِكَ قَد ∴ شابَت نَواصي اللَيالي وَهيَ لَم تَشِبِ

* يقول الدكتور مصطفى ناصف[1] : " ولأمر ما جعل أبو تمام عمورية شابة ، مهما يطل عمرها ، لا يستطيع ذلك العهد القديم أن

(١) اللّغة بين البلاغة والأسلوبية ص١١٠ .



يمحو بشاشتها ، أو يذهب بمعالم حسنها .. ولكن القُرّاء يغضّون عن هذه الصورة بحثًا عن بطولة المعتصم ، وفي وسعنا أن نقول : إن بطولة المعتصم ربما تكون من بعض الوجوه أداة لحوار ثان مع فكرة المرأة التي هي مشغلة الشعراء ... " .

* وهاهي (**أُختها**) تصاب بعدوى الخراب ، التي سارعت إليها مثل الجرب :

لَمّـا رَأت أختَهـا بـالأمسِ قـد خَرِبَـت ∴ كـانَ الخَـرابُ لَهـا أعـدى مِـنَ الجَـرَبِ

* ثم تجد ضمائر التأنيث في الأبيات التالية (٢٣) وما بعده : (**حيطانِها - بِها - فيها - وَسطَها - رَغِبَت - لَونِها - طالِعَةٌ - أَفَلَت - واجِبَةٌ - تَجِبِ - لَها - مِنها - ...**) .

* ثم مسألة البناء ، أي دخول الزوج بزوجه ، بعد الطهارة والجنابة :

تَصَـرَّحَ الـدَهرُ تَصـريحَ الغَمـامِ لَهـا ∴ عَـن يَـومِ هَيجـاءَ مِنهـا طـاهِرٍ جُنُـبِ

لَـم تَطلَـعِ الشَـمسُ فيـهِ يَـومَ ذاكَ عَلـى ∴ بـانٍ بِأَهـلٍ وَلَـم تَغـرُب عَلـى عَـزَبِ

* وصوّر الأرض في صورة فتاة جميلة لبست أحلى ثيابها ، وتزينت بكامل زينتها وكأنها في يوم عرسها :

فَـتحٌ تَفَـتَّحُ أَبـوابُ السَـماءِ لَـهُ ∴ وَتَبـرُزُ الأَرضُ فـي أَثوابِهـا القُشُـبِ

* ويستحضر صورة الأنثى ، ويقارن بينها – أي عمورية – وقد تمرغ وجهها في التراب وبين غادة حسناء ، فيرى منظرها أشهى إلى عينيه من خدود تلك الفتاة المتوردة :

وَلا الخُـدودُ وَقَـد أُدمِـينَ مِـن خَجَـلٍ ∴ أَشـهى إِلـى نـاظِري مِـن خَـدِّها التَـرِبِ

* ثم هناك الثغور الباردة في البيت (٤٧) وسنى القمر ، والعارض الشنب (٦٣) ، ثم القضب ، أي قدود النساء التي تشبه القضب في (٦٥) ، والبيض الأتراب في (٦٦) ، والرّحم في (٦٩) ...

يقول الدكتور عبد الله المحارب[1] : " إن أبا تمام – لسبب غير واضح حتى الآن لغموض تفصيلات حياته – أكثر مَن ذكر البكر والثيّب والافتراع والطهر والجنابة ، وقد ردد هذا في شعره كثيرًا ، واستخدمه استخدامًا واسعًا ، وجاءت تلك المحاولات موفقة في كثير من القصائد ... " .

بينما ترى الدكتورة يسرية المصري[2] : " أن الشّاعر يريد أن يؤكّد أن الأمان والخصب وفاعلية التواصل من خلال الحرب ، وهي فكرة تشي بالاستبطان والكتمان والإخفاء ، وجوهرها أن الشيء كأنما يكتنّ داخل الشيء ، وكأن ذلك أشبه باللؤلؤة التي اكتنتها الصدفة ، والوصول إليها يمثل **ضربًا من المغامرة والمنازعة ، وهذا هو جوهر الحياة في شعر أبي تمام** ، ومآل هذه الصور الكثيرة التي تنتمي إلى عالم المرأة البكر والأم والأنثى الجميلة من حلب ومخض ورحم ونسب ، وهي صور توحي بهذا الاكتنان لجوهر الحقيقة ، ولأصل الحياة المخصبة .. وارتباط فكرة الحرب بعالم المرأة يشي بفلسفة للحرب في عقلية أبي تمام ناتجة عن الطبيعة الاجتماعية والسياسية للعصر الذي عاش فيه ، فالحرب والقتال وسيلة إلى حفظ النوع واستمرارية الحياة وتناغمها ، ومن القتل ينبع الميلاد ، ومن الظلمة ينبثق النور ... " .

فالأنوثة الغالبة على القصيدة صدى للآمال الواسعة المسيطرة على أبي تمام في أن تكون الغلبة للحق ، والعزة للمسلمين .. وحين يسيطر الحق – ومعه القوة – يسود الأرض العدل ، ويستتب الأمن .

---

(١) أبو تمام بين ناقديه ص١٢٠ .
(٢) بنية القصيدة في شعر أبي تمام ص٢٦٥ .



وهذا ما أشار إليه الذكر الحكيم : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ...﴾ (البقرة : من ٢٥١) ، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج : من ٤٠) .

فنتاج هذه الحرب حياة قائمة على العدل ، وعيش عزيز .. وقد أشار الشّاعر في نهاية القصيدة إلى ذلك ، حين ربط بين فتح عمورية وغزوة بدر قائلاً :

إن كانَ بَينَ صُروفِ الدَهرِ مِن رَحِمٍ ∴ مَوصولَةٍ أو ذِمامٍ غَيرِ مُنقَضِبِ
فبَينَ أيّامِكَ اللاتي نُصِرتَ بِها ∴ وَبَينَ أيّامِ بَدرٍ أقرَبُ النَسَبِ
أبقَت بَني الأصفَرِ المِمراضِ كَاسمِهِمُ ∴ صُفرَ الوُجوهِ وَجَلَّت أوجُهَ العَرَبِ

" فالقتال – على مرّ التاريخ الإسلاميّ – ليس سوى وسيلة لحفظ الحياة ، وبذلك تصبح نكبات الدهر وصراعات الحياة عبر التاريخ الإسلاميّ أشبه بالرحم الموصولة المنطبقة على بذور الحياة والمحافظة على استمراريتها وتواصلها "[(١)] .

(٣) القصيدة والمذهب الفني

يروى أن أعرابيًّا سمع قصيدته التي مطلعها :

طَلَلَ الجَميعِ لَقَد عَفَوتَ حَميدا ∴ وَكَفى عَلى رُزئي بِذاكَ شَهيدا

وسئل : كيف ترى هذا الشِّعْر ؟ فقال : فيه ما أستحسنه ، وفيه ما لا أعرفه ولم أسمع بمثله ، فإما أن يكون هذا الرجل أشعر الناس

(١) بنية القصيدة في شعر أبي تمام ص٢٦٦ .



جميعًا ، وإمّا أن يكون الناس جميعًا أشعر منه[١] .

هذا الأعرابي منصف ، فلم يقطع برأي في المسألة ؛ لأنه لم يكن له عهد بمثل هذا الجديد .. أمّا الذين يرفضون الجديد لمجرد أنه جديد فلم يعبأ بهم أبو تمام – كما أسلفت – ومضى جادًّا في سبيله لا يلوي على شيء ..

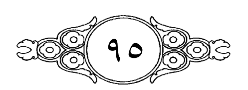
إن شعر أبي تمام " يستحوذ على صعوبات كثيرة ؛ لأنه يمتلئ بكثير من الأسرار الغامضة ، التي تجعل الإنسان يخرج عن نطاق المألوف ، ويسير مع الشّاعر كما يريد في عالمه الحالم الممتلئ الطريف ، حيث يلعب الالتواء ، والعمق ، والخفاء ، والثقافة ، والفكر الفلسفي ، أدوارًا تعبيرية هامة ، إذ يبحث الشّاعر ويجرب ، ويكتشف ويبدع ويطور ، ويبتكر أفكارًا وصورًا جديدة ، في وقت لم تكن قد تمت فيه رياضة اللّغة على ذلك ، في تلك المرحلة من الإنتاج الأدبي ، فتستكين له طاعة ، وتتأبى جافية تارة أخرى " .

" وهذا سبب هام أدى بشعر الطائي إلى أن يستحوذ على اهتمام نقاد عصره ، فلم يناقشوه في أصول عمله ، ودقائق فنه ، ومعطيات فكره ، بل عكفوا على العبارة الغريبة ، والصورة غير المألوفة ، والعثرة اللفظية ، وطفقوا يناقشون القشرة الخارجية لشكل العمل الإبداعي ، تاركين مضامينه وعوالمه الباطنة الزاخرة بالينابيع والطاقات "[٢] .

---

(١) أخبار أبي تمام ص٢٤٥ .

(٢) النثيرة والقصيدة المضادة ص١٤٨ – مُحمّد ياسر شرف – النادي الأدبي – الرياض ١٩٨١م .



لقد تعمق أبو تمام العلوم العقلية المستحدثة ، ولاسيما الفلسفة ، فوظفها توظيفًا جَيِّدًا وجديدًا في شعره ، حتى ليرى أحد الباحثين[(١)] " أن أبا تمام يعدّ أبا الجدل الحديث ، فهو قد سبق فلاسفة العصر الحديث " .

إن غرابة الصور التي ابتكرها أبو تمام ، والمزج بين أشياء لم يكن للنقاد بها عهد ، هي التي جعلت معاصريه يتنكرون له ، ويشنون هجومهم عليه ..

وقصيدة عمورية تعدّ نموذجًا رائعًا لمذهب أبي تمام الفني ، فقد أبانت عن تجديده في (الطباق والمقابلة) ذلك التجديد الذي أطلق عليه بعض نقادنا : (نوافر الأضداد)[(٢)] ، وفيها (الجناس) و(المشاكلة) و(ردّ الصدر على العجز) ... إلخ .

وتتجلى فكرة (نوافر الأضداد) في القصيدة في مشهد الحريق ، حين يقول :

غادَرتَ فيها بَهيمَ اللَيلِ وَهوَ ضُحىً ∴ يَشُلُّهُ وَسطَها صُبحٌ مِنَ اللَهَبِ
حَتّى كَأَنَّ جَلابيبَ الدُجى رَغِبَت ∴ عَن لَونِها أَو كَأَنَّ الشَمسَ لَم تَغِبِ
ضَوءٌ مِنَ النارِ وَالظَلماءُ عاكِفَةٌ ∴ وَظُلمَةٌ مِن دُخانٍ في ضُحىً شَحِبِ
فَالشَمسُ طالِعَةٌ مِن ذا وَقَد أَفَلَت ∴ وَالشَمسُ واجِبَةٌ في ذا وَلَم تَجِبِ

يقول الدكتور يوسف خليف[(٣)] : " إن أبا تمام لا يقيم طباقًا تقليديًّا كالذي نعرفه عند غيره من الشعراء ، يتلاعب فيه بالألفاظ وحدها ، ولكنه يقيم طباقًا جديدًا بديعًا يعتمد على (نوافر الأضداد) يتلاعب فيه

---

(١) د/ عبد الكريم اليافي – دراسات فنية في الأدب العربيّ ص٨٠ – مطبعة جامعة دمشق .
(٢) د/ البهبيتي يرفض هذا المصطلح ، ويرد ما عند أبي تمام إلى المقابلة .. راجع كتابه : تاريخ الشِّعْر العربيّ ص٥٠٠ وما بعدها .
(٣) في الشِّعْر العباسي ص١٠٢ .



بالألفاظ كما يتلاعب بالمعاني ، ويقيم بين ألفاظه طباقًا كما يقيم بين معانيه مقابلة ، ليُخرج لنا صورًا غير مألوفة في الشِّعْر العربيّ ... " .

" وهاهو يقدم صورة رائعة من (نوافر الأضداد) في وصفه للحريق الذي أشعله جيش المعتصم في عمورية بعد فتحها ...

فنجد في الصورة (الليل الذي يستحيل ضحى لشدة الحريق الذي أشعله المعتصم ، وضحى يطارده الصبح ، والظلام وجلابيبه ملت لونها الأسود فاستبدلت به اللون الأحمر من النار واللهب ، والشمس التي غابت ، ولم تغب ، ثم ضوء النار الذي نشب بينه وبين الظلام معركة أخرى ، كُلّ منهما يريد أن تكون له الغلبة والهيمنة ، ضوء نار المعركة ، وظلام الدخان) ... " .

" كُلّ هذا يستخدمه أبو تمام ليلون به صوره ، وينشر فيها تلك الأضداد المتنافرة التي تتحكم فيها فكرة المقابلة والتضاد بين الألوان التي يستمدها من ظاهرة اختلاف ألوان الطبيعة ، التي تحولت من خلال رؤيته الجديدة إلى ألوان غير مألوفة "(١) .

وقد بنى أبو تمام الصورة من خلال اللونين الأبيض والأسود : **(الشَمس – الضُحى – اللَهَب – الضَوء – الحُسن – الصُبح – البشاشة ...)** ، **(الظَلماء – الظُلمَة – الدُجى – الدُخان – التَرِبِ ...)** .

وهو يستخدم أسماء الأضداد انطلاقًا من فهمه لطبيعة الشِّعْر ، حتى يشغل فكر قارئه(٢) .

---

(١) في الشِّعْر العباسي ص١٠٣ .
(٢) العصر العباسي الأوّل ص٢٨٥ – د/ شوقي ضيف .



وبعض المحدثين ربط بين تضاد أبي تمام والجدلية عند الفيلسوف الألماني (هيجل) وعدّ أبا تمام سابقًا لـ (هيجل) في تلك الفكرة التي بنى عليها الفيلسوف جدليته[1] .

غير أن الدكتور مصطفى ناصف يذهب بقراءته للأبيات إلى ما هو أبعد من ذلك ، حين يقول[2] : " ... وكم سخر الشعراء السابقون على أبي تمام نفسه وقائع الحرب بحثًا عن ضوء الليل ، والناس يرددون قول أبي تمام : " **والشمس قد غربت ولما تغرب** " .

ويذكرون وصف الدخان والنار ، ويرددون هذا قائلين : هذا هو البديع الذي أحبه أبو تمام .. ولنا أن نتساءل : هل هذا البديع بمعزل عن معابثة الظلام نفسه ؟!

ألا يمكن إدارة حوار بين البديع والشعور بالظلام ، حتى نعطي لوقائع اللّغة الشِّعْريّة بعدًا وجوديًّا قابلاً للإثارة والاستقرار ؟ " .

وقد انتشر البديع في القصيدة بشكل واضح ، غير أنني لا أراه متكلفًا ، ولننظر على سبيل المثال بيتي الافتتاح :

السَيفُ أصدَقُ أنباءً مِنَ الكُتُبِ ∴ في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَعِبِ
بيضُ الصَفائِحِ لا سودُ الصَحائِفِ في ∴ مُتونِهِنَّ جَلاءُ الشَكِّ وَالرِيَبِ

(حَدِّهِ/الحَدُّ – الجِدِّ/اللَعِبِ – بيضُ/سودُ – الصَفائحِ/الصَحائِفِ) .

فكُلّ كلمة جاءت مناسبة في مكانها لتؤدي المعنى الذي قصد إليه الشّاعر ، ولتنقل عاطفته نقلاً صادقًا .. " فلو حاولنا أن نستبدل كلمة

(١) د/ عبد الكريم اليافي .. وانظر : شعر الصراع مع الروم ص١٨٢ .
(٢) اللّغة بين البلاغة والأسلوبية ص٣٠٩ .



(**الحَـدُّ**) بـ (الفصـل) مـثلاً لنتقـادى الجنـاس لاختـلّ المعنـى ، ولمـا استطاعت الكلمة الجديدة أن تقوم بالمعنى ، فالفصل بين الجد واللعب لا يكون حاسمًا ، كما هو عند استخدام كلمة (**الحَدّ**) خاصة وأنها تجانس حد السيف "[١] .

أضف إلـى ذلـك أن التشديد فـي كلمـة (**الحَـدّ**) ينبـئ عـن التـوتر والانفعال ، وهذا لا يتأتَّى مع كلمة (الفصل) .

و(**البـيضُ والسـودُ**) مقصـودان ؛ لأن الأمـر هنـا فيـه حسـم ، ولا يحتمل الألوان الرمادية أو تلك التي فيها تداخل ، فالسيوف الحاسمة تزيل كُلّ غبش ليظل الأبيض ناصعًا ، والسيوف لأنها بيضاء في خصومة مع السواد ، والبياض وضوح وصفاء ونور ، والسواد ظلمة وكآبة ..

وقـد " شـكلت الموازنـة بـين الإيمـان بـالقوة العادلـة ، والاستسـلام للـروح الانهزاميـة بعـدًا محوريًّـا فـي قصـيدة أبـي تمـام كُلّهـا ، ولـذلك حلـت نفسـها فـي علاقـات أخـرى قادمـة كالعلاقـة بـين (**الصَفائِحِ**) و(**الصَحائِفِ**) في هذا البيت ... " .

" الجديد في هذه العلاقة هو أن الكلمتين مؤلفتان من أحرف واحدة مع بعض الاختلاف في التركيب ، فقد تحرك حرف الحاء من الآخر فـي كلمـة (**الصَـفائحِ**) إلـى الوسط فـي كلمـة (**الصَـحائِفِ**) .. لكـن هـذا التحرك البسيط على المستوى الصناعي أدى إلى اختلاف كبير في مجال الفكر .. فإذا كانت (**الصَـفائِحِ**) تمثل عدالة القوة وشرعيتها في خدمة الخير ، فإن (**الصَحائِفِ**) تؤلف وجه الحياة الآخر الممثل

(١) أبو تمام بين ناقديه ص١١٨ .



بالانهزامية والعبثية ... "[١] .

" وتغدو رؤيا الشّاعر لهذين المتضادين من خلال الاجتماع على نوعية الأحرف والاختلاف في التشكيل (**الصَفائِحِ – الصَحائِفِ**) رؤيا فكرية صافية عميقة ، تبتعد كثيرًا عن مسألة الزينة المصطنعة "[٢] .

وفي البيت الثّالث يقول :

وَالعِلمُ في شُهُبِ الأرماحِ لامِعَة ∴ بَينَ الخَميسَينِ لا في السَبعَةِ الشُهُبِ

فقد وفق في اختيار كلمة (**شُهُبِ**) بدلاً من (الأسنة) ؛ " لأن الحديث يدور عن الشهب ، ولأنه يريد أن يرسم صورة مركبة ، فيها الضوء والحركة ، ومن خلفها حديث الناس "[٣] .. وهكذا سائر القصيدة ...

(٤) الثنائية الضدّية في القصيدة

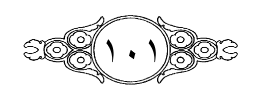
هذه الثنائية الضدية صورة من صور المقابلة ، التي أغرم بها أبو تمام ، ومنذ بيت الافتتاح نجد أبا تمام يوازن بين أمرين ، ويمضي في هذه الموازنة إلى نهاية القصيدة مستخدمًا الإثبات والنفي ، والإيجاب والسلب :

* فتجد الخير والشر ، والنور والظلمة ، والجمال والقبح ، والطهر والنجاسة ، والنصر والهزيمة ... إلخ .
* فقد وازن أوّلاً بين (**السَّيف**) و(**الكُتب**) مثبتًا الصدق للسيف ، نافيًا إياه عن كتب المنجمين .

(١) تشكيل المعنى الشِّعْريّ – د/ عبد القادر الرباعي – مجلة فصول مج٤ ع٢ ص٦٦ .
(٢) السابق نفسه .
(٣) دراسات في النص الشِّعْريّ : العصر العباسي ص٢٧ – د/ عبده بدوي – دار الرفاعي – الرياض – ط/ ثانية .



* ثم وازن بين الصفائح البيض ، والصحائف السود ، مثبتًا للأولى جلاء الشك والريب ، وبمفهوم المخالفة يثبت للأخرى الكذب والتضليل .
* وبين شهب الأرماح ، والسبعة الشهب ، وأثبت للأولى العلم ، نافيًا إياه عن السبعة الشهب .
* ثم بين (**جَدّ بَنِي الإسلامِ في صَعَدٍ**) و(**المُشرِكينَ وَدارَ الشِركِ في صَبَبِ**) .
* وتمضي المقابلة بين (**شابَت نَواصي اللَيالي**) وعمورية (**لَم تَشِبِ**) .
* و(**الفَألُ**) و(**النحس**) .
* و(**سُنَّةِ السَيفِ**) (**لا سُنَّةِ الدِينِ وَالإِسلامِ**) .
* وتتجلى فكرة (نوافر الأضداد) في منظر حريق عمورية – كما أسلفت – .
* ثم (الطهارة) و(الجنابة) ، و(**بانٍ بِأَهلٍ**) و(**عَزَبِ**) .
* وعن طريق الاستدارة يوازن بين مشاهد الخراب والدمار في عمورية ، ويراها أحسن من (**رَبعِ مَيَّةَ مَعمورًا يُطيفُ بِهِ غَيلانُ**) ، ويرى عمورية المعفّر خدّها بالتراب ذلّة وانكسارًا أشهى من خدود الفتيات .. سماجة صارت في عينيه أحسن من كُلّ حسن ، وأجمل من كُلّ منظر عجيب .. إنها الثنائية بين الجمال والقبح ، والحسن والسوء .
* ثم هناك (**حَرُّ الثُغورِ**) و(**بَرِدِ الثُغورِ**) .
* وموازنة طويلة بين موقف كُلّ من (المعتصم) قائد المسلمين ، و(تيوفيل) قائد الروم .. فبينما يصور (المعتصم) رجلاً شجاعًا ، بطلاً ، يودّع حياة النعيم والرفاهية ليغيث صوتًا مستغيثًا صادرًا من (زبطرة) ، ويقتحم الأهوال ، وينفق الذهب المربى بكثرته على



الحصى في سبيل ذلك ، نجده يصور (تيوفيل) رعديدًا ، جبانًا ، محتالاً ، يحاول إثناء المعتصم عن مواصلة الحرب ، فيعرض عليه قدرًا من المال ، ثم لما فشل تخلّى عن جنوده وخاصته ، وولى كالظليم مستطار القلب ، مفزّعًا ..

و" هذه الثنائية الضدية بين الكلمات ، وبين الجمل لإعطاء تلك الفكرة قوة تصويرية ، تصله بالمتلقي ليشاركه انفعاله ونشوته بهذا الانتصار العظيم "(١) .

(٥) الموسيقا

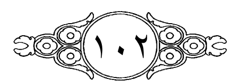
والوزن والموسيقا في الشِّعْر جزء من التجربة الشِّعْريّة ، يقول كولردج : " وبما أن الوزن نتيجة فعل إرادي لأجل مزج اللذة بالانفعال ، فإنه يجب أن تكون آثار هذه الإرادة واضحة في سائر اللّغة المنظومة حسب تدخل هذه الإرادة "(٢) .

وقد تجلى تعانق اللفظ بالفكر من خلال الموسيقا في أبيات حريق عمورية من البيت (٢٥) إلى البيت (٣٥) ، وفيها نجد " موسيقية الألفاظ متعانقة مع موسيقية الفكر ، والشاعر الكبير هو الذي يلائم في شعره بين موسيقية اللفظ وموسيقية الفكر – إن صح التعبير –(٣) .

(أ) **البحر** : هو البسيط ، ذلك البحر الذي يلي (الطويل) مساحة على خريطة الشِّعْر القديم .. وهذا البحر مناسب تمام التناسب لموضوع

---

(١) المعارضات الشِّعْريّة ص١٧٠ (مرجع سابق) .
(٢) كولردج ص١٠٠ .
(٣) أبو تمام بين ناقديه ص٤٢٥ ، والشاعر أبو تمام – مُحمّد عطا ص٨٢ .



القصيدة ، إذ يتسع للبسط والتفصيل .

(ب) **القافية** : اختار لها الشّاعر حرف الباء ، ذلك الصوت الشديد المجهور ، الذي هو من حروف القلقلة .. ومن هنا فهو مناسب للتجربة الشِّعْريّة في موضوع الحرب ، والتدمير ، والتحريق ، والخراب ، " ولا يخفى أن اهتداء الشّاعر إلى هذا الرّويّ المناسب القوي قد أفاد القصيدة بعامة ، فأضحت نموذجًا للشعر الحربي الذي تحاكي أبياته أمواج البحر الهادرة "(١) .

والحرف يتكرر داخل الأبيات كثيرًا ، ففي البيت الأوّل يرد ثلاث مرّات ، وفي الثّاني مرّتين ، وفي الثّالث أربع مرّات ... وهكذا في سائر القصيدة .

(ج) **موسيقا الحشو** : وهناك حروف قوية تتكرر في القصيدة لتواكب الانفعال الذي يسيطر على الشّاعر .. والشاعر راعى المعنى الداخلي فعبر بالأصوات المناسبة له .. لننظر البيت الأوّل :

السَيفُ أصدَقُ أنباءً مِنَ الكُتُبِ ∴ في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَعِبِ

فنشعر " ونحن نقرأ البيت الأوّل أننا أمام نغمتين مختلفتين ، وزعتا على الشطرين : الأولى في الشطر الأوّل بطيئة ، والثانية سريعة ، وذلك لأن الشّاعر في الشطرة الأولى يقرر حقيقة عامة بلغة هادئة غير قلقة ، لكنها هي الباعث على ما في الشطر الثاني من توتر .. هذا التوتر سرى في كُلّ نبرة من نبرات الألفاظ التي ترابطت واتحدت في كُلّ مكان بدا كثيف النغمة ، قوي الحروف (الحاء ، والدال ، والجيم ،

(١) شعر جهاد الروم ص٤٨٠ .



والعين) بالإضافة إلى التشديد في (الدال واللام) تشديدًا متلاحقًا ... "[1] .

وفي القصيدة بيت فيه التشطير أو التناسب أو المناسبة ، وذلك في قوله[2] :

فَالشَمسُ طالِعَةٌ مِن ذا وَقَد أَفَلَت ∴ وَالشَمسُ واجِبَةٌ فِي ذا وَلَم تَجِبِ

فقد وزع الحركات والسكنات على الشطرتين بطريقة متوازنة : (**فَالشَمسُ** ، **وَالشَمسُ** – **طالِعَةٌ** ، **واجِبَةٌ** – **وَقَد** ، **وَلَم** – **أَفَلَت** ، **تَجِبِ**) .

وفيها حسن تقسيم وترصيع – كما يسميه العسكري وابن قدامة – :

تَدبيرُ مُعتَصِمٍ ، بِاللهِ مُنتَقِمٍ ∴ لِلَّهِ مُرتَقِبٍ ، فِي اللهِ مُرتَغِبِ

" فقد انقسم البيت إلى أربع جمل متفقة في تركيبها النحوي الدلالي ، وفي إيقاعها أيضًا ، والنّبر يعانق نهايات الكلمات التي ترتكز على فونيمات دالة "[3] .. وقد ساعدت تفعيلات بحر البسيط على ذلك .

(٦) التكـــرار

" والتكرار لا يكون – غالبًا – إلاّ حين تثور نفس الشّاعر بالأحاسيس ، وتمور بالوجدان ، فيأتي التكرار معبرًا عن تلك الثورة المشتعلة في نفسه ، وعما ينتابها من روح التحفز والانقضاض "[4] .

" ويغلب التكرار في لفظ أبي تمام غلبة واضحة ، تجعله ظاهرة من الظواهر التي تستدعي التعليل ، وهو في غالب صوره من صور بديع أبي تمام ، مما يسميه القدماء : (رد الأعجاز على الصدور)[5] .

---

(١) راجع : فصول – مج٤ ع٢ ص٦٥ ، وتشكيل المعنى الشِّعْريّ – د/ عبد القادر الرباعي .
(٢) وقد يُسمّى بـ (التعادلية) .
(٣) بنية القصيدة في شعر أبي تمام ص٥٦ .
(٤) حسن كامل الصيرفي ص٢٥١ – د/ مُحمّد سعد فشوان .
(٥) البهبيتي ص٢٣٥ .



وقصيدة عمورية " مشحونة بروائع التكرار من جميع ضروبه .. ولعلك تكون قد تنبهت إلى التكرار الخفي في قوله : " **زُخرُفٍ – كَذِبِ – تَخَرُّص – أَحاديث مُلَفَّقَة** " .. وإلى قوله : " **صَفَرِ الأَصفارِ أَو رَجَبِ** " ، وقوله : " **الكَوكَبُ الغَربِيُّ ذو الذَنَبِ** " ، وقوله : " **في فُلُكٍ** " ، وقوله : " **في قُطُبِ** " .

ومما برع فيه أبو تمام تلطفه في إخفاء التكرار عند قوله :

يا يَومَ وَقعَةِ عَمّورِيَّةَ انصَرَفت ∴ مِنكَ المُنى حُفَّلاً مَعسولَةَ الحَلَبِ

فقد جعل (**المُنى**) هنا مثل النعم الحفل ، أي الممتلئة الضروع باللبن ، ثم أضاف إلى معنى الامتلاء ، معنى الحلاوة بذكر العسل ، وجعل اللبن المحلوب من هذه المنى معسولاً .. ولا يخفى على البصير أن قول الشّاعر : " **مَعسولَةَ الحَلَبِ** " إن هو إلاّ تكرار وتأكيد لقوله : " **حُفَّل** " بالرغم من الزيادة المعنوية " .

كما لا يخفى التكرير في قوله : " **الشَكِّ وَالرِيَبِ** " .

أمّا **التكرار اللفظي** فهو كثير في القصيدة منذ أوّل بيت فيها : (**في حَدِّهِ الحَدُّ – في شُهُبِ ، لا في السَبعَةِ الشُهُبِ – فَتحُ الفُتوحِ – فَتحٌ تَفَتَّحُ – مَخَّضَ اللهُ ، مَخضَ البَخيلَةِ – الكُربَةُ ، فَرّاجَةَ الكُرَبِ – قَد خَرِبَت ، كانَ الخَرابُ – تَصَرَّحَ الدَهرُ تَصريحَ – ما رَبعُ مَيَّةَ ، مِن رَبعِها الخَرِبِ – وَلا الخُدودُ ، مِن خَدِّها التَرِبِ – وَحُسنُ مُنقَلَبٍ ، سوءِ مُنقَلَبِ**) ... إلخ .

(٧) روافد أبي تمام في القصيدة

من يقرأ تلك الحملة التي شنها النقاد على أبي تمام ، زاعمين أنه خرج عن عمود الشِّعْر العربيّ ، وإن كان ما قاله شعرًا فكلام العرب باطل ... إلخ ما قيل من ذلك .. يظن أن أبا تمام قطع صلته بالتراث ، وانبتّ عنه تمامًا ..

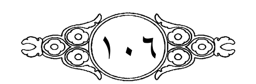
لكن الحقيقة غير ذلك ، فلقد كانت علاقة أبي تمام بالتراث وثيقة ، وقد أفاد منه إفادة عظمى لم يفدها أحد من قبل ، وهذا ما أراد أبو تمام أن يعيه النقاد المعارضون له ..

يقول البهبيتي(١) : " لا أعرف شاعرًا من شعراء العربيّة تأثّر بالقرآن تأثّر أبي تمام به ، فإن القارئ لا يكاد يمضي في الديوان حتى يعثر بين خطوة وأخرى بشاعر كأنما يضع نصب عينيه النقل من الكتاب الكريم " .

وأما الحديث الشريف فقد ذكر البهبيتي(٢) أن لأبي تمام ذكرًا في المحدثين ... ثم قال(٣) : " واتصال موضوع الحديث بصناعة أبي تمام وعمله ، لا يدل على أنه كان يطلب الحديث طلب المخصص له جهدًا ، ولكنه يدل على أنه اتصل بالمحدّثين " .

أمّا صلته بالتراث الشِّعْريّ القديم فتكشف عنها اختياراته الشِّعْريّة ،

(١) أبو تمام الطائي ص٦٧ (مرجع سابق) .
(٢) السابق ص٧٣ .
(٣) أبو تمام الطائي ص٧٣ .



كما أن صلته بالتاريخ القديم ، والسيرة النّبويّة ، والحكم والأمثال قوية ..

وقد درس العلوم المستحدثة في عصره ، فثقفها ، ووعاها ، وتعمقها .. وكُلّ ذلك له صداه في هذه القصيدة :

(أ) القرآن الكريم والحديث الشريف :

يقول أبو تمام :

لَم يَغزُ قومًا وَلَم يَنهَض إلى بَلَدٍ ∴ إلا تَقَدَّمَهُ جَيشٌ مِنَ الرَعَبِ

وفي الذكر الحكيم : ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ (آل عمران : من ١٥١) .

وقال ﷺ : « **أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي ... ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ...** »[1] .

وقال أبو تمام :

رَمى بِكَ اللهُ بُرجَيها فَهَدَّمَها ∴ وَلَو رَمى بِكَ غَيرُ اللهِ لَم يُصِبِ

فهو من قوله تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال : من ١٧) .

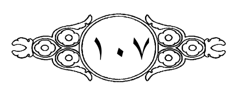
وقال :

تِسعونَ ألفًا كَآسادِ الشَرى نَضِجَت ∴ جُلودُهُم قَبلَ نُضجِ التينِ وَالعِنَبِ

من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (النساء : من ٥٦) .

---

(١) سبق تخريجه .



وقال :

فَـتحٌ تَفَـتَّحُ أبـوابُ السَـماءِ لَـهُ ∴ وَتَبـرُزُ الأرضُ فـي أثوابِهـا القُشُـبِ

يجعلنا نستحضر الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الأعراف : من ٤٠) .

وقوله :

وَمُغضَـبٍ رَجَعَـت بـيضُ السُـيوفِ بِـهِ ∴ حَـيَّ الرِضـا مِـن رَداهُـم مَيِّـتَ الغَضَـبِ

نستحضـر معـه قـول الحـق χ : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ ﴾ (الأعراف : من ١٥٤) .

وفي قوله :

إنَّ الحِمـامَينِ مِـن بـيضٍ وَمِـن سُـمُرٍ ∴ دَلـوا الحَيـاتَينِ مِـن مـاءٍ وَمِـن عُشُـبِ

تجد معنى حديث الرسول ﷺ : « **وجعل رزقي تحت ظل سيفي** » .

(ب) قصص الأنبياء والسيرة النّبويّة :

قوله :

حَتّـى كَـأَنَّ جَلابيـبَ الـدُجى رَغِبَـت ∴ عَـن لَونِهـا أو كَـأَنَّ الشَـمسَ لَـم تَغِـبِ

ربما استحضر من قصص الأنبياء قصة يوشع بن نون ، وذلك حين حبس الله الشمس له عن المغيب .. وسمّوها أخت يوشع ، فقال شوقي في قصيدته (توت عنخ آمون)[(١)] :

قِفـي يـا أُخـتَ يوشَـعَ خَبِّرينـا ∴ أحاديـثَ القُـرونِ الغابِرينـا

وقال حافظ[(٢)] :

مِـن أيِّ عَهـدٍ فـي القُـرى قَـد تَفَجَّـرَت ∴ يَنـابيعُ هَـذا الفِكـرِ أم أُخـتُ يوشَـعِ

---

(١) الشوقيات ٢٦٧/١ – دار الكتب العربيّة ١٩٤٦م .

(٢) ديوانه ١٢٢/١ – شرح وتصحيح أحمد أمين ورفاقه – دار الكتب العربيّة ١٩٣٧م .

وتجد غزوة بدر واضحة في قوله :

إن كانَ بَينَ صُروفِ الدّهرِ مِن رَحِمٍ ∴ مَوصولَةٍ أو ذِمامٍ غيرِ مُنقَضِبِ
فبَينَ أيّامِكَ اللاتي نُصِرتَ بِها ∴ وَبَينَ أيّامِ بَدرٍ أقرَبُ النَسَبِ
أبقَت بَني الأصفَرِ المِمراضِ كَاسمِهِمُ ∴ صُفرَ الوُجوهِ وَجَلَّت أوجُهَ العَرَبِ

فهو يعقد مشابهة بين (عمورية ، وبدر) ، وإذا كانت بدر هي غزوة الفرقان كما سماها القرآن الكريم ، فعمورية فتح الفتوح عند أبي تمام .

وذلك لأن مشركي قريش ﴿ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ (الأنفال : من ٤٧) ، وكانت غايتهم استئصال شأفة المسلمين والقضاء عليهم ، فكانت هزيمتهم الشنعاء .

والصليبيون تكرّرت اعتداءاتهم على المسلمين في (زبطرة) .. فكان نصر الله للمسلمين ..

ولا عجب حين تجد آية الرعب التي أشرنا إليها قد جاءت في سورة الأنفال في سياق الحديث عن غزوة بدر .. وهنا تجد أبا تمام يحدثك عن الرعب الذي قذفه الله في قلوب الصليبيين في عمورية .

كما أن غزوة بدر كانت في يوم السابع عشر من رمضان ، وكذا فتح عمورية – كما ذكر اليعقوبي – في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان .. وكان المسلمون قد طمروا سائر الآبار عدا بدرًا ، حتى لا يشرب الكفار ، ونجد أبا تمام هنا يشير إلى ذلك ، فيذكر أن الصليبيين فكروا هذا التفكير حين قال :

وَقالَ ذو أمرِهِم لا مَرتَعٌ صَدَدٌ ∴ لِلسارِحينَ وَلَيسَ الوِردُ مِن كَثَبِ

وقد ذهب الدكتور عبد الله المحارب[١] إلى أنه " ليس في ذكر أبي

---

(١) أبو تمام بين ناقديه ص٤٩٨ .



تمام لها – يقصد غزوة بدر – دليل على ثقافته التاريخية ، ولكن فيه تأكيد لحسن استفادة أبي تمام من الحوادث التاريخية المشهورة " .

وقد ذكرنا في معرض حديثنا عن الأنوثة ، بالإضافة إلى ما ذكرناه هنا من أوجه شبه بين الوقعتين ، مما يؤكّد قراءة أبي تمام الفاحصة للتاريخ الإسلاميّ ..

(ج) الشِّعْر القديم وأمثال العرب :

من أمثال العرب : " أذل من وتد بقاع " ، وفي أشعارهم :

وَلَنْ يُقِيمَ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُ بِهِ ∴ إلّا الْأَذَلّانِ عَيْرُ الْحَيّ وَالْوَتَدُ
هَذا عَلَى الْخَسْفِ مَعْكُوسٌ بِرُمَّتِهِ ∴ وَذا يُشَجَّ فَلَا يَبْكِي لَهُ أَحَدُ

ويقول أبو تمام :

لَقَد تَرَكتَ أميرَ المُؤمِنينَ بِها ∴ لِلنارِ يَومًا ذَليلَ الصَخرِ وَالخَشَبِ

كما نجده يستحضر صورة (ذي الرمة) الشاعر الأموي وهو يطوف بديار محبوبته (مية) :

ما رَبعُ مَيَّة مَعمورًا يُطيفُ بِهِ ∴ غَيلانُ أبهى رُبىً مِن رَبعِها الخَرِبِ

ويبدو أبو تمام معجبًا بذي الرمة ، وقارئًا لشعره ، ولاسيما بائيته الرائعة التي تضارع أعظم قصائد الشِّعْر القديم[1] .. فإذا كان ذو الرمة قد قال فيها :

جاءَت مِنَ البَيضِ زُعرا لا لِباسَ لَها ∴ إلاّ الدَهاسُ وَأمٌّ بَرَّةٌ وَأبُ

فإن أبا تمام يقول في بائيته :

أمٌّ لَهُم لَو رَجَوا أن تُفتَدى جَعَلوا ∴ فِداءَها كُلَّ أمٍّ مِنهُمُ وَأبِ

وأبو تمام – وهو صاحب الحماسة ، التي منها القصائد المنصفات –

(١) راجع كتابنا : ثور الوحش بين النابغة وذي الرمة .

يتأثر بها في هذه القصيدة ، وذلك حين يقول عن جند الروم :

تِسعونَ أَلفًا كَآسادِ الشَرى نَضِجَت ∴ جُلودُهُم قَبلَ نُضجِ التينِ وَالعِنَبِ

فهو يصف مدى شجاعة أولئك الجنود ، ويشبههم بأسود الشرى ، أي أسود الجبال المعروفة بقوتها وشدة بأسها .. ولكن الشاعر في الوقت ذاته حين يريك قوة الأعداء يثبت لجند المسملين ما هو أشد ، وهذا هو المقصد الأوّل من المنصفات ؛ لأنه كلما كان الخصم أقوى كانت القوة للمنتصر أشد وأعظم .

وقوله :

لَبَّيتَ صَوتًا زِبَطرِيًّا هَرَقتَ لَهُ ∴ كَأسَ الكَرى وَرُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

عَداكَ حَرُّ الثُغورِ المُستَضامَةِ عَن ∴ بَردِ الثُغورِ وَعَن سَلسالِها الحَصِبِ

قريب من قول الحطيئة[1] :

إذا هَمَّ بِالأَعداءِ لَم يُثنِ هَمَّهُ ∴ كَعابٌ عَلَيها لُؤلُؤٌ وَشُنوفُ

وقول أبي تمام واصفًا حريق عمورية ، والجو المظلم :

ضَوءٌ مِنَ النارِ وَالظَلماءِ عاكِفَةٌ ∴ وَظُلمَةٌ مِن دُخانٍ في ضُحىً شَحِبِ

فَالشَمسُ طالِعَةٌ مِن ذا وَقَد أَفَلَت ∴ وَالشَمسُ واجِبَةٌ في ذا وَلَم تَجِبِ

نظر فيه إلى قول النابغة :

تَبدو كَواكِبُهُ وَالشَمسُ طالِعَةٌ ∴ لا النورُ نورٌ وَلا الإِظلامُ إِظلامُ

وقوله :

وَمُطعَمِ النَصرِ لَم تَكهَم أَسِنَّتُهُ ∴ يَومًا وَلا حُجِبَت عَن رَوحِ مُحتَجِبِ

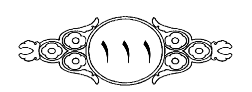
مأخوذ من قول علقمة بن عبدة[2] :

وَمُطعَمُ النصرِ يَومَ النصرِ مُطعَمُهُ ∴ أَنّى تَوَجَّهَ وَالمَحرومُ مَحرومُ

---

(١) ديوانه ص١٣١ .. والشنف : القرط الأعلى .

(٢) الديوان ١/٥٨ .



وقوله :

وَالحَربُ قائِمَةٌ في مَأزِقٍ لَجِجٍ ∴ تَجثو القِيامُ بِهِ صُغرًا عَلى الرُكَبِ

مثل قول الثقفي[1] :

إن حَمَلوا لم نَرِمِ مواقِفَنا ∴ وإن حملنا جثوا على الرُّكَبِ

وقوله يصور جبن (تيوفيل) ومحاولته إثناء المعتصم عن مواصلة القتال :

إنّ الأسودَ أسودَ الغيلِ هِمَّتُها ∴ يَومَ الكَريهَةِ في المَسلوبِ لا السَلَبِ

يذكرنا بقول عنترة مخاطبًا حبيبته[2] :

يُخبِركِ مَن شَهِدَ الوَقيعَةَ أنّني ∴ أغشى الوَغى وَأعِفُّ عِندَ المَغنَمِ

وقوله[3] :

يا عَبلَ لَو أبصَرتِني لَرَأيتِني ∴ في الحَربِ أقدِمُ كَالهِزَبرِ الضَيغَمِ

فأرى مَغانِمَ لَو أشاءُ حَوَيتُها ∴ فَيَصُدُّني عَنها كَثيرُ تَحَشُّمي

(د) التاريخ القديم والمعاصر :

كان أبو تمام ملمًّا " بأيام العرب وتاريخهم في الجاهلية والإسلام ، وقصصهم وأساطيرهم "[4] ، وكذا التاريخ القديم .. ونجد ذلك في استخدامه الرموز التاريخية (**كِسرى – أَبي كَرِبِ – إِسكَندَرٍ**) وذلك في المقطع الثّاني من القصيدة .

وهناك إشارات تاريخية وثائقية للغزوة ، منها :

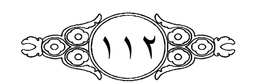
– مكانة عمورية لدى الروم ، وحصانتها ومنعتها ، واستعصائها على الفاتحين من قبل ..

(١) السابق ١/٧١ .

(٢) ديوانه – المعلقة ص٢٥ – دار صادر .

(٣) ديوانه – المعلقة ص٢٠٧ .

(٤) أبو تمام الطائي ص٧٠ .



– وكون فتحها جاء بعد فتح أنقرة .
– واعتقاد أهلها أنها لن تفتح ، حيث " كان حاكم المدينة يقول لجنده : لا تخافوا فإن مدينتنا ممتنعة عالية ، لا ينالها العدو ، وليس بالقرب منا ما ترعاه خيولهم ، ولا ماء يشربون منه "(١) .
– وعرض (تيوفيلوس) فدية على (المعتصم) للتراجع .
– أمّا عدد قتلى الروم فقد ذكر أبو تمام أنهم (**تِسعونَ أَلفًا**) وقد " ذكر المؤرخ فاسيلييف أن المعتصم قتل من أهل عمورية أربعين الفًا "(٢) .

" وهذه المقارنة بين القصيدة والتاريخ تُرِي مبلغ ما كان أبو تمام يعتمد على الواقع في نظم شعره ، وأن فنه إنما كان في صياغة هذا الواقع صياغة شعرية ، فهو في فنه أشبه بالقاص الذي يصف ما رأى وما سمع "(٣) .

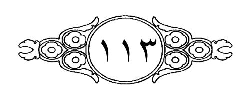
(هـ) علم الفلك والتنجيم :

فقد أشار " إلى النجوم إشارات تنبئ عن اتصاله بعلم التنجيم ، وقد أزهر في عصره "(٤) .

وهو في مطلع القصيدة يسخر من المنجمين ، ونحن " إن أعرقنا اليوم في الثقافة لا يقدر أحد أن يسخر بالتنجيم أكثر مما سخر منه أبو تمام في شعره منذ نيّف وعشرة قرون "(٥) .

---

(١) أبو تمام الطائي ص٢٢٤ .. وانظر : تاريخ الشِّعْر العربيّ ص٤٩٧ وما بعدها .
(٢) في الشِّعْر العباسي ص١٣٤ (هامش) – د/ عز الدِّين إسماعيل .
(٣) أبو تمام الطائي ص١٤٣ .
(٤) أبو تمام الطائي ص٧٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ .
(٥) السابق نفسه .



أمّا مسألة (**الكَوكَبُ الغَربِيُّ ذو الذَنَبِ**) فكان قد ظهر قبل فتح عمورية .. يقول ابن الأثير في حوادث ٢٢٢هـ : " وَفِيهَا ظَهَرَ عَنْ يَسَارِ الْقِبْلَةِ كَوْكَبٌ ، فَبَقِيَ يُرَى نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَلَهُ شِبْهُ الذَّنَبِ ، وَكَانَ أَوَّلُ مَا طَلَعَ نَحْوَ الْمَغْرِبِ ، ثُمَّ رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحْوَ الْمَشْرِقِ ، وَكَانَ طَوِيلًا جِدًّا ، فَهَالَ النَّاسَ ذَلِكَ وَعَظُمَ عَلَيْهِمْ ... "[١] .

ومما جاء في القصيدة من هذا العلم : (**الكُتُب – سودُ الصَحائِف – السَبعَة الشُهُب – الكَواكِب – النُجوم – وَما صاغوهُ مِن زُخرُفٍ فيها وَمِن كَذِبِ – صَفَرِ الأَصفارِ – رَجَبِ – الكَوكَبُ الغَربِيُّ ذو الذَنَبِ – الأَبرُجَ العُليا – ما دارَ في فُلُكٍ – وَفي قُطُبِ ...**) .

(و) الثقافة البدوية :

وذلك في قوله :

حَتّى إِذا مَخَّضَ اللهُ السِنينَ لَها ∴ مَخضَ البَخيلَةِ كانَت زُبدَةَ الحِقَبِ

وقوله :

لَمّا رَأَت أُختَها بِالأَمسِ قَد خَرِبَت ∴ كانَ الخَرابُ لَها أَعدى مِنَ الجَرَبِ

وقوله :

يا يَومَ وَقعَةِ عَمّورِيَّةَ انصَرَفَت ∴ مِنكَ المُنى حُفَّلاً مَعسولَةَ الحَلَبِ

وصورة الخيمة وعمودها الذي تشد إليه ، والأوتاد والطنب .. وكذا الربع المعمور ...

وهكذا استطاع أبو تمام رأس وزعيم مدرسة التجديد في العصر العباسي أن يهضم التراث ، ويعيه ، ويوظفه توظيفًا جديدًا في شعره ،

---

(١) أبو تمام الطائي ص٧٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ .



استغل الثقافة العربيّة والإسلامية لتعبر عن فكره وثقافته .

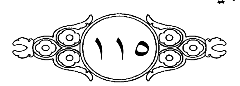
لم ينبتّ أبو تمام عن تراثه وأصوله ، أو يرفض عناصره ، وهذا سر نجاحه في حركته التجديدية .

ولم يكن اتصال أبي تمام بالثقافات الوافدة اتصالاً سطحيًّا بسيطًا ، بل كان اتصالاً عميقًا دقيقًا ، إنه اتصال العالم .. ومن هنا سار بخطى ثابتة ، وكأنه يتحدى العلماء ، ولا يخضع لشروطهم ، ولا يرى مثالهم الذي ينبغي أن يحتذى ، وإنما صنع النموذج بنفسه ، ليس مندفعًا ، أو متعصبًا ، أو متحركًا بدافع سياسي أو غيره[١] .

ولذا ذهب الدكتور شوقي ضيف[٢] قائلاً : " لعل أروع نموذج في شعر أبي تمام يمثل هذا المزج الواسع بين ألوان التصنيع العقلية وألوان التصنيع الحسية هو قصيدة عمورية .. فقد تجلت فيها مقدرة أبي تمام في المزج بين الألوان الثقافية القاتمة والألوان الفنية الزاهية ... " .

والقصيدة فيها مزج غريب بين الثقافات المختلفة من جهة ، وبين ألوان الشِّعْر العربيّ من جهة أخرى .. وحينما تنظر في القصيدة تشعر أن أبا تمام يستعلي على الشعراء ، حين يحدث ذلك المزج بين الثقافات وألوان الشِّعْر مزجًا طريفًا ..

(١) د/ يوسف خليف – في الشِّعْر العباسي ص٩٥ .
(٢) الفن ومذاهبه في الشِّعْر العربيّ ص٢٦٠ .



(٨) وظائف السيف وأدوات الحرب

للسيف في الشِّعْر العربيّ مكانة متميزة ، تابعة لمكانته عند الفرسان منذ الجاهلية ، ومن أبرز مظاهر هذا الاهتمام كثرة أسمائه ، فهو : (السيف – الحسام – الإفرند – الصارم – النصل – المهند – الهندي – الهندواني – السمهري – المشرفي) .

" وفكرة السيف في الشِّعْر العربيّ من أكثر الأفكار صعوبة وتعقيدًا ، لكثرة ورودها في كُلّ سياق ، تجدها مع الشيب والحديث عن النساء ، وتجدها في الحديث عن الموت والحب ... ومداعبة السيف ذات معنى خاص ، ليس للفارس صديق إلاّ سيفه .. الفَرَس والسيف كلاهما صديق حين يعز الأصدقاء ، ويحتمل الفرس ما يحتمله الشّاعر ، ويؤدي عنه هذه الضريبة المقسومة عليه ، وكل صلة بين الفارس والمجتمع مقطوعة بفضل هذا السيف من ناحية ، والفَرَس والكتاب من ناحية أخرى ... "[١] .

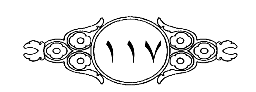
والسيف وأخواته في هذه البائية محور القصيدة ، بحيث يمكننا أن نعون لها بقصيدة (السيف) – كما أسلفت – .. فهو ليس مجرد أداة بيد المقاتل ، وإنما وفر أبو تمام له من الوظائف ما جعله أرفع وأسمى من السيف المعروف :

– فالسيف قد استجمع صفة الصدق بحيث لم يترك منها شيئًا .
– وهو الحاسم الفاصل بين الجد واللعب .
– والسيف أبيض ، بينما الكتب سود .

---

(١) اللّغة بين البلاغة والأسلوبية ص٣٥٥ ، ٣٥٦ ، وراجع كتابنا : ميمية المتنبي ، وكتابنا : مصرع فارس في بلاد الغربة .

- وفي متون السيوف الفرقان بين الحق والباطل .
- والعلم في شهب الأرماح وليس في أقوال المنجمين .
- ثم نجد السيف (مخضّبًا) للجند (البيت ٢٤) .
- والمنية تكمن للكفر وتتربص له بين الرماح والسيوف (البيت ٣٦) .
- وظبي السيوف وأطراف الرماح تتغلغل داخل نفوس المشركين وقلوبهم فتخرج أضغانهم ، وتستل أمانيهم ، تلك الأماني التي تتلخص في منع الماء والعشب عن جيش المسلمين وخيلهم ، فيموتون جوعًا وعطشًا .. السيوف والرماح اجتثت هذه الأماني ، وسلبت تلك الآمال .. (البيت ٤٤) .
- وفي البيت (٤٥) يواصل هذا المعنى حين جعل السيوف والرماح حمامين ودلوى الحياتين من ماء ومن عشب .
- وفي البيت (٤٨) يؤكد إيمانه بمبدأ القوة ، فيقول للمعتصم : إن الإجابة الحقيقية ، بل الوحيدة لإغاثة المستغيث في زبطرة عن طريق السيف لا غير .
- وفي البيت (٥٥) نجد الرماح ملجمة لـ (تيوفيل) بينما كانت أحشاؤه تصوّت من شدة الذعر .
- والسيوف أحالت الغضب رضًا ، بل أماتت الغضب (البيت ٦١) .
- وكانت قائدة هادية ، فهي الذاهبة بالجيش ، وهي الراجعة به .
- وقد استحقت هذه السيوف المصلتة الحسناوات من الروميات ، فالقضب الهندية أحرزت القضب الرومية (البيت ٦٥) .
- والسيوف البيض كانت حقيقة ببيض الأبدان من حجبها (البيت ٦٦) .



وهذا كله صدى من أصداء إيمانه بمبدأ القوة .

(٩) المعجم الشِّعْريّ

يقول بودلير – ناقلاً عن أحد النقاد – : " من الممكن للناقد أن يكشف عن روح شاعر ما ، أو على الأقل عن شواغله العظمى ، من خلال البحث عن أكثر الكلمات دورانًا في أعماله ، فهذه الكلمات هي التي تبوح بهواجسه "[١] .

وإذا كنا قد درسنا هذه القصيدة تحت اسم **(فلسفة القوة)** فإننا – ضرورة – واجدون هذه الألفاظ التي تعبر عن القوة بشكل واضح في القصيدة منذ أوّل كلمة فيها إلى آخر كلمة .

ويمكننا أن نضع هذه الألفاظ في حقول دلالية على النحو التالي :

١ – السيف وأدوات الحرب ووظائفها :

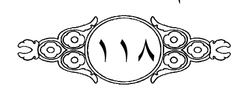
(السَيف – حَدِّه – الحَدّ – الجِدّ – الصَفائِح – مُتونِهِنّ – شُهُب – الأَرماح – سُنَّة السَيف – السُمر – القُضُب – أَسِنَّتُه – ظُبى السُيوف – أَطرافُ القَنا السُلُبِ – الخَطِيّ – قُضُب الهِندِيّ – حُجبِها ...) .

٢ – الحرب والجيش :

(الخَميسَين – وَقعَة عَمّورِيَّة – هَيجاء – جَحفَلا – جَحفَل لَجِب – الحَرْب – الحَرَب – غَزو مُحتَسِب – يَوم الكَريهَة – سَناها –

---

(١) علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته ص٢٠٧ – د/ صلاح فضل – الهيئة المصرية =
= العامة للكتاب – ط/ ثانية ١٩٨٥م .



عارِضِها ...) .

٣ – **الخراب والدمار والموت :**

(صَبَب – الكُربَة السَّوداء – بَرِحًا – وَحشَة – خَرِبَت – الخَراب – الجَرَب – قاني الذَوائِب – آني دَم سَرَب – رَبعِها الخَرِب – خَدِّها التَرِب – سَماجَة – سوء مُنقَلَب – كمنت المنية – رَمى بِك الله – فَهَدَّمَها – سَلَبَتهُم – الحِمامَين – مُنعَفِرًا – عَزَّه – الرَّدى – الخَوف – حَرِّها – جاحِمَها – الحَطَب – نَضِجَت جُلودُهُم – اجتُثّ دابِرُهُم – مَأزِق لَجِج – تَجثو – صُغرًا– قَطع أَسباب الرِّقاب – صُفر الوُجوه...).

٤ – **الألـــوان :**

(بيض – سود – شُهُب – مُظلِمَة – شابَت – السَوداء – قاني الذَوائِب – دَم – الحناء – الخضاب – بَهيم اللَيل – ضُحى – صُبح – اللَهَب – جَلابيب الدُجى – الشَمس – ضَوء – النار – الظَلماء – ظُلمَة – دُخان – ضُحى شَحِب – الشَمس طالِعَة – الشَمس واجِبَة – تَصريح الغَمام – أُدمين – السُمر – بيض وَسُمُر – سَناها – سَنا – قَمَر – بيض – بَني الأَصفَر – صُفر الوُجوه – جَلَّت ...) .

٥ – **نشوة النصر والتغني بالفتح :**

(أَصدَق – الحَدّ بَين الجِدّ وَاللَعِب – بيض الصَفائِح – جَلاء الشَكّ – العِلم في شُهُب الأَرماح لامِعَة – فَتح الفُتوح – تَعالى أَن يُحيط بِه نَظم مِن الشِعر أَو نَثر مِن الخُطَب – فَتح تَفَتَّح أَبواب السَماء لَه – تَبرُز الأَرض في أَثوابِها القُشُب – المُنى حُفَّلا – مَعسولَة الحَلَب – أَبهى رُبى – أَشهى إِلى ناظِر – غَنِيَت مِنّا العُيون بِها عَن كُلّ حُسن بَدا أَو

مَنظَر عَجَب – حُسن مُنقَلَب – بَشاشَتُه ...) .

٦ – الإسلام والمسلمون والعرب :

(بَنـي الإسلام – أَميـر المُـؤمِنين – مُعتَصِـم بِـالله – مُنـتَقِم لِلَّه – مُرتَقِب في الله – مُرتَغِب – خَليفَـة الله – جُرثومَـة الدِين – الإسلام – الحسب والعرب) .

٧ – الشرك والمشركون :

(الأَوثـان – الصُـلُب – المُشـرِكين – دار الشِّـرك – الكُفـر – عَمود الشِّرك – بَني الأَصفَر ...) .

٨ – الكـــذب :

(زُخرُف – كَذِب – تَخَرُّصًا – أَحاديث مُلَفَّقَة – عَجائِبًا – زَعَموا – وَخَوَّفوا – وَصَيَّروا ...) .

ومن الواضح أن هذا المعجم يكشف عن فلسفة القوة لدى أبي تمام .

جريمة قتل في قصر الجعفري

بين يدي القصيدة

رأى الخليفة (المعتصم) أن الفرس قد زاد نفوذهم ، وصاروا هم المتحكمين في الخلافة .. فاستعان بـ (الترك) ليقلّم أظافرهم ، ويحدّ من نفوذهم ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، إذ أصبح الترك أكثر حدّة.. وحاكوا المؤامرات والدسائس ، وورث المتوكل إرثًا صعبًا ، فحاول التخلص منهم .. إلاّ أنهم لما شعروا بذلك دبّروا مؤامرة اغتياله هو ووزيره (الفتح بن خاقان) سنة (٢٤٧هـ) .. وكان (المنتصر) ابن الخليفة على رأس المتآمرين.

وقَتْل المتوكل بهذه الصورة يكشف بجلاء عن حال الخلافة في ذلك الزمان ، لقد كان الخليفة ألعوبة بأيدي عبيده .. وكان للمتوكل ولدان (المنتصر ، المعتز) والأول كان ولي العهد .. والثاني يؤيده (عبيد الله بن خاقان) و(الفتح بن خاقان) ، هذا التأييد – فيما يبدو – أوغر صدر (المنتصر) ، وتوقع أن يعزله الخليفة ويولّي أخاه ..

فاستغل الترك الفرصة ونصحوا المنتصر بالقضاء على أبيه حتى ينفرد بالخلافة ، وتولى (بُغا) الصغير تدبير المؤامرة ، وشارك في الاغتيال (باغر) التركي ، حارس المتوكل .. وهكذا قَتَل العبيد سيّدهم ، قال ابن الجهم :

عَبيدُ أَميرِ المُؤمِنينَ قَتَلنَهُ ∴ وَأَعظَمُ آفاتِ المُلوكِ عَبيدُها

بَني هاشِمٍ صَبرًا فَكُلُّ مُصيبَةٍ ∴ سَيَبلى عَلى طولِ الزَمانِ جَديدُها

لم تكن الجريمة قتلاً لشخص ، وإنما انتهاك لحرمة الخلافة ، واغتيال دولة بأسرها ، وهو إيذان بنزيف مستمر ومروّع في دماء الدولة العباسية

سيؤدي في النهاية إلى دمارها "[1] .

وإذا كانت الدولة والخلافة سيواجهان المجهول ، فإن البحتريّ بعد مقتل نديمه سيواجه مجهولاً أيضًا – وهو ما سيفصح عنه في السينية – " إن مجده الأدبي الشامخ قد بات مهددًا بالتداعي "[2] .

كان البحتريّ أثيرًا عند المتوكل ، فهو شاعر البلاط الأوّل ، وكان ينادم الخليفة ، وبذلك أصبح له من المكانة والمنزلة ما يجعله حريصًا كُلّ الحرص على حياة المتوكل .. لقد كان في تلك الليلة نديمًا للمتوكل ، وادّعى أنه دافع عنه باليدين (البيت ٢٣) ، وهذا ادعاء بعيد عن القبول :

- لأن مَن يقتل أباه لا يتورع عن قتل أي أحد آخر .. والقاتل حينئذ يقتل كُلّ مَن رآه وكان شاهد عيان على جريمته .
- أن البحتريّ كان معروفًا بالجبن والخوف ، وليس معه حينئذ سلاح .

وبمقتل المتوكل انقلبت حياة البحتريّ ، وأصبح من عامة الناس ودهمائهم ، ومن ثَمّ فهو يبكي بكاء حارًّا .. وكان حاله كحال حُرقة بنت النعمان حين قالت :

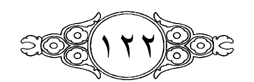
فَبينا نَسوسُ الناسَ وَالأمرُ أمرنا ∴ إذا نَحنُ فيهم سوقةٌ نتنصّفُ
فَأفّ لِدنيا لا يدومُ نَعيمها ∴ تَقلّبُ تاراتٍ بنا وتصرّفُ

* هذه القصيدة مختومة بهاء السكت ، وهي في الديوان تالية للقصيدة الرائية التي يصف فيها الشّاعر (قصر الجعفري) أيام عزّه ومجده .. فهل كان هذا الترتيب جزافًا ؟

كلا ، وإنما اراد الشّاعر أن يضع المتلقي أمام موازنة اضطرارية ، ليرى فيها شيئًا واحدًا ، (كان) ثم (أصبح) .. **كان** هناك عز ونعيم ، وأبهة

---

(١) صالح اليظي .
(٢) السابق نفسه .



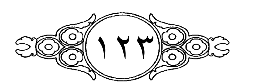
وسؤدد ، وحُكْمٌ وأوامر ونواه (فرمانات) .. وكان المكان غاصًّا بالناس : الخليفة ، والوزراء ، والقواد ، والحاشية ، والخدم والحشم ، فضلاً عن : حُجّاب ، وشرطة ... **وأصبح** هذا القصر قبرًا .. قُتل الخليفة ، وخلا القصر من سكانه وزواره ..

أراد الشّاعر تلك الموازنة .. وجاء بالهاء الساكنة : مواكبة للسكون المخيم على المكان ، ولتمثل الآهات والزفرات " التي تنطلق من صدر البحتريّ في صوت خفيض مكتوم ، يخشى أن يعلن عنه ... "[1] .

* وقصر الجعفري أجمل قصور المتوكل ، وأعظمها أبهة وترفًا ، يقع على ضفاف القاطول ، قرب سامراء ، وكان قد شق إليه نهرًا من دجلة ، وأنفق على إنشائه وأثاثه ثلاثة ملايين من الدنانير .. وأحاطه بالحدائق ذوات البهجة ، وبالبركة – التي وصفها البحتريّ – ..

في هذا القصر شهد البحتريّ أجمل أيام حياته ، نديمًا للمتوكل ، وتسنم الذروة العليا بين سائر الشعراء .. وفيه كان البحتريّ شاهدًا على مقتل المتوكل في جريمة بشعة ، وكان ذلك اليوم فاصلاً في حياة البحتريّ ، حيث بدأ انحسار مجده الأدبي ..

(١) الخيال الشِّعْريّ ص١٠٨ .



القصيـــدة(*)

١ – مَحَــلٌّ عَلــى القــاطولِ أَخلَــقَ داثِــرُه(**) ∴ وَعــادَت صُــروفُ الــدَهرِ جَيشًــا تُغــاوِرُه(١)

٢ – كَــأَنَّ الصَــبا تــوفي نُــذورًا إِذا انبَــرَت ∴ تُراوِحُـــهُ أَذيالُهـــا وَتُبـــاكِرُه(٢)

٣ – وَرُبَّ زَمـــانٍ نـــاعِمٍ ثَـــمَّ عَهـــدُهُ ∴ تَـــرِقُّ حَواشـــيهِ وَيـــورِقُ نَاضِــرُه(٣)

٤ – تَغَيَّـــرَ حُســـنُ الجَعفَـــرِيِّ وَأُنسُـــهُ ∴ وَقُـــوِّضَ بـــادي الجَعفَـــرِيِّ وَحاضِــرُه(٤)

٥ – تَحَمَّـــلَ عَنـــهُ ســـاكِنوهُ فُجـــاءَةً ∴ فَعـــادَت سَـــواءً دورُهُ وَمَقـــابِرُه(٥)

٦ – إِذا نَحــنُ زُرنــاهُ أَجَــدَّ لَنــا الأَســى ∴ وَقَــد كــانَ قَبــلَ اليَــومِ يَــبهَجُ زائِــرُه(٦)

٧ – وَلَــم أَنــسَ وَحــشَ القَصــرِ إِذ ريــعَ سِــربُهُ ∴ وَإِذ ذُعِـــرَت أَطـــلاؤُهُ وَجَـــآذِرُه(٧)

٨ – وَإِذ صِـــيحَ فيـــهِ بِالرَحيـــلِ فَهُتِّكَـــت ∴ عَلـــى عَجَـــلٍ أَســـتارُهُ وَسَـــتائِرُه(٨)

٩ – وَوَحشَـــتَهُ حَتّـــى كَـــأَن لَـــم يُقِـــم بِـــهِ ∴ أَنـــيسٌ وَلَـــم تَحسُـــن لِعَـــينٍ مَنـــاظِرُه

(*) الديوان – تح/ حسن كامل الصيرفي ٤١٣/٢ – دار المعارف .

(**) في رواية : (**دائره**) ، وفي أخرى : (**عامره**) – وسيأتي حديث عن هذه الروايات – .

(١) القاطول : موضع على نهر دجلة ، كان به القصر الجعفري . أخلق : بلي واندثر . دائره : باليه ، والمراد : بلى جديده ، وخرب عامره . صروف الدهر : مصائبه ونوازله . تغاوره : تشن الغارات عليه .

(٢) الصبا : ريح لطيفة تهب من الشرق ، وقد تغنى بها كثير من الشعراء . تراوحه : تهب عليه في الرواح أي وقت العشي . تباكره ، تهب على بكرة أي صباحًا .

(٣) زمان ناعم : مثل ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ (الحاقة : من ٢١ ، والقارعة : من ٧) أي ينعم أهله . حواشيه : جوانبه . ترق حواشيه : تسعد أوقاته .

(٤) الجعفري : قصر المتوكل ، نسبة إلى اسم الخليفة وهو (جعفر) . قوض : هدّم . باديه وحاضره : أي ظاهره وداخله ، أو مظاهر البداوة والحضارة .

(٥) تحمّل ساكنوه : رحلوا .

(٦) أجدّ : جدّد .

(٧) وحش القصر : كانت هناك حديقة ملحقة بالقصر فيها حيوانات . ريع : أفزع . السرب : القطيع . الأطلاء : جمع طلا وهو الظبي . الجآذر : جمع جُؤْذر وهو ولد البقر الوحشي .

(٨) الأستار : جمع سِتْر ، والستائر : جمع ستارة .

١٠ – كَـأَن لَـم تَبِـت فيـهِ الخِلاَفَـةُ طَلْقَـةً ∴ بَشاشَـتُها وَالمُلْـكُ يُشـرِقُ زاهِـرُه[١]
١١ – وَلَـم تَجمَـعِ الـدُنيا إِلَيـهِ بَهاءَهـا ∴ وَبَهجَتَهـا وَالعَـيشُ غَـضٌّ مَكاسِـرُه[٢]
١٢ – فَـأَينَ الحِجـابُ الصَـعبُ حَيـثُ تَمَنَّعَـت ∴ بِهَيبَتِهـا أَبوابُـهُ وَمَقاصِـرُه[٣]
١٣ – وَأَيـنَ عَميـدُ النـاسِ فـي كُـلِّ نَوبَـةٍ ∴ تَنـوبُ وَنـاهي الـدَهرِ فـيهِم وَآمِـرُه[٤]
١٤ – تَخَفّـى لَـهُ مُغتالُـهُ تَحـتَ غِـرَّةٍ ∴ وَأَولـى لِمَـن يَغتالُـهُ لَـو يُجـاهِرُه[٥]
١٥ – فَمـا قاتَلَـت عَنـهُ المَنـونَ جُنـودُهُ ∴ وَلا دافَعَـت أَملاكُـهُ وَذَخـائِرُه
١٦ – وَلا نَصَـرَ المُعتَـزَّ مَـن كـانَ يُرتَجـى ∴ لَـهُ وَعَزيـزُ القَـومِ مَـن عَـزَّ ناصِـرُه[٦]
١٧ – تَعَـرَّضَ ريـبُ الـدَهرِ مِـن دونِ فَتحِـهِ ∴ وَغُيِّـبَ عَنـهُ فـي خُراسـانَ طـاهِرُه[٧]
١٨ – وَلَـو عـاشَ مَيـتٌ أَو تَقَـرَّبَ نـازِحٌ ∴ لَـدارَت مِـنَ المَكـروهِ ثَـمَّ دَوائِـرُه[٨]
١٩ – وَلَـو لِعُبَيـدِ اللهِ عَـونٌ عَلَـيهِمُ ∴ لَضـاقَت عَلـى وُرّادِ أَمـرٍ مَصـادِرُه[١]

(١) طلقة بشاشتها : ضاحكة . الملك يشرق زاهره : مظاهره تُعجب وتَجمُل في مرأى العين .
(٢) المكاسر : من الشجر ، جذوعها حيث تكسر منه الأغصان ، واستعارها الشّاعر للعيش . الغض : الطري اللين .
(٣) المقاصر : الحجرات والدور الواسعة المحصنة .
(٤) عميد الناس : سيدهم وهو الخليفة . النوبة : النازلة والمصيبة . ناهي الدهر : أي المتصرف النافذ الحكم كأنه يملي على الدهر إرادته .
(٥) مغتاله : أي قاتله غيلة ، وهو تركي اسمه (باغر) أحد الأتراك الذين جلبهم المعتصم .
(٦) المعتز : إمّا أن تكون صفة للخليفة المتوكل ، فقد اعتز برجال اعتقد أنهم سيحمونه فخذلوه ، وإمّا أن تكون اسمًا للمعتز ابن المتوكل حين خذله حزبه ولم يجد مَن = = يناصره ضد أخيه المنتصر المتآمر . عز ناصره : قوي معينه .
(٧) فتحه : الفتح بن خاقان ، وكان وزيرًا للمتوكل ، وقد قتل معه . طاهره : الأمير طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين واليه في ذلك الحين .
(٨) ميت : المقصود به : الفتح بن خاقان . نازح : طاهر بن الحسين ، أي : لو عاش وزيره ، أو أميره كان حاضرًا ، لانتقم للمقتول .
(١) عبيد الله : هو الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل .

٢٠ – حُلـومٌ أَضَلَّتها الأَماني وَمُدَّةٌ ∴ تَناهَت وَحَتفٌ أَوشَكَتهُ مَقادِرُه(١)
٢١ – وَمُغتَصِبٌ لِلقَتلِ لَم يُخشَ رَهطُهُ ∴ وَلَم تُحتَشَمْ أَسبابُهُ وَأَواصِرُه(٢)
٢٢ – صَريعٌ تَقاضاهُ السُيوفُ حُشاشَةً ∴ يَجودُ بِها وَالمَوتُ حُمرٌ أَظافِرُه(٣)
٢٣ – أُدافِعُ عَنهُ بِاليَدَينِ وَلَم يَكُن ∴ لِيَثني الأَعادي أَعزَلُ اللَيلِ حاسِرُه(٤)
٢٤ – وَلَو كانَ سَيفي ساعَةَ القَتلِ في يَدي ∴ دَرى القاتِلُ العَجلانُ كَيفَ أُساوِرُه(٥)
٢٥ – حَرامٌ عَلَيَّ الراحُ بَعدَكَ أَو أَرى ∴ دَمًا بِدَمٍ يَجري عَلى الأَرضِ مائِرُه(٦)
٢٦ – وَهَل أَرتَجي أَن يَطلُبَ الدَمَ واتِرٌ ∴ يَدَ الدَهرِ وَالمَوتورُ بِالدَمِ واتِرُه
٢٧ – أَكانَ وَلِيُّ العَهدِ أَضمَرَ غَدرَةً ∴ فَمِن عَجَبٍ أَن وُلِّيَ العَهدَ غادِرُه(٧)
٢٨ – فَلا مُلِّيَ الباقي تُراثَ الَّذي مَضى ∴ وَلا حَمَلَت ذاكَ الدُعاءَ مَنابِرُه(٨)
٢٩ – وَلا وَأَلَ المَشكوكُ فيهِ وَلا نَجا ∴ مِنَ السَيفِ ناضي السَيفِ غَدرًا وَشاهِرُه(٩)
٣٠ – لَنِعمَ الدَمُ المَسفوحُ لَيلَةَ جَعفَرٍ ∴ هَرَقتُم وَجُنحُ اللَيلِ سودٌ دَياجِرُه(١)

---

(١) حلوم : عقول . حتف : موت . أوشكتْه : قربته .
(٢) رهطه : قبيلته وجماعته . لم تحتشم أسبابه وأواصره : لم تحترم روابط القرابة والمودة بين القاتل والمقتول .
(٣) تقاضاه : تطالبه . الحشاشة : بقية الروح .
(٤) أعزل الليل : أعزل في الليل ، لا سلاح معه . الحاسر : الذي لا درع معه .
(٥) العجلان : المسرع . أساوره : أواثبه وأدافعه . والمناورة : المواثبة .
(٦) الرّاح : الخمر ، وقد حرمها البحتريّ على نفسه حتى يؤخذ بثأر المتوكل ، قال :
وَإِنّي هَجَرتُ الراحَ حَولاً مُجَرَّمًا ∴ لَهُ وَشُهودي بِالَّذي قُلتُ شُهَّدُ
وقال :
وَكَيفَ تَعاطي اللَهوِ وَالرَأسُ مُخلِسٌ ∴ مَشيبًا وَشُربُ الراحِ مِن بَعدِ جَعفَرِ
(٧) ولي العهد : هو المنتصر بن الخليفة المتوكل الذي خاف أن يفوز أخوه المعتز بالخلافة دونه ، فبادر بقتل أبيه ، وفي البيت سخط على القاتل .
(٨) ملي التراث : تمتع به طويلاً ، وهو دعاء على المنتصر ألا ينعم بميراث أبيه .
(٩) وأل : نجا ، وهو دعاء على القتلة أن يشربوا من الكأس نفسها .
(١) هرقتم : أرقتم . الدياجر : الظلمات .



٣١ – كَأَنَّكُمُ لَم تَعلَموا مَن وَلِيُّهُ ∴ وَناعيهِ تَحتَ المُرهَفاتِ وَثائِرُه[١]
٣٢ – وَإِنّي لَأَرجو أَن تُرَدَّ أُمورُكُم ∴ إِلى خَلَفٍ مِن شَخصِهِ لا يُغادِرُه[٢]
٣٣ – مُقَلِّبِ آراءٍ تُخافُ أَناتُهُ ∴ إِذا الأَخرَقُ العَجلانُ خيفَت بَوادِرُه[٣]

التحليل

١ – مَحَلٌّ عَلى القاطولِ أَخلَقَ داثِرُه ∴ وَعادَت صُروفُ الدَهرِ جَيشًا تُغاوِرُه

تأمل كلمة (مَحَلٌّ) التي برع الشاعر في استهلال قصيدته بها .. إنه يتحدث عن مقرّ الحكم ، بيت الخلافة ، الذي كان أعرف المعارف ، وأشهر المعالم ، ترنو إليه الأبصار ، وتتملاّه العيون ، وتتطلع إليه الأفئدة ، وتُصغي له الأسماع .. من هناك تصدُر (الفرمانات) ، والقرارات الحاسمة ..

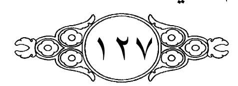
هاهو أصبح (محلاًّ) كسائر المحلات .. نكرة ، لم يعد يأبه به أحد إلاّ تحسرًا وألمًا ومصمصة شفاه لتلك الجريمة الشنعاء التي ارتكبها ابن الخليفة .

فالكلمة من حيث مبناها ومعناها وتنكيرها لخّصت القصة كاملة .. وجاء الشاعر بخبر عاجل كذلك الذي نراه في مقدمات نشرات الأخبار .

هذا المحل هو على نهر القاطول .. وقد دثر : أي باد وانتهى .. صار هو والقبر سواء ، فما المكان إلاّ بسكانه .. لقد كانت الوفود والأفواج تأتي إلى ذلك القصر ، والمكان خليّة نحل .. فأصبح السكون يخيم عليه ، ولا حركة هناك أو صوت .. وكأنما تربّص به الدهر ، واتخذه هدفًا له ، فحشد

---

(١) الولي : المطالب بالثأر . المرهفات : السيوف المرققة الحدّ .
(٢) أي : أرجو أن يبقى الحكم في خلفه لا يخرج عنه .
(٣) أناته : يرهب تدبيره في أناه . الأخرق : ضعيف الرأي . البوادر : جمع بادرة ، وهي الحدة أو ما يبدو من الإنسان عند حدته من خطأ . خِيفَتْ بوادره : أي يخشى من عجلته في إصدار الأحكام التي تكون خطرًا على الأمة .



جيوشه وعتاده ليحارب ذلك القصر ..

ويبدو لي أن البحتريّ جعل قصر الجعفري معادلاً موضوعيًّا لشخصه ، فبعد أن كان البحتريّ ملء السمع والبصر ، يشار إليه بالبنان ، يتخذ الناس منه شفيعًا (واسطة) لدى الخليفة .. أصبح نكرة ، رجلاً من عامة الناس ودهمائهم ، أحاله الدهر – بعد أن كان نديمًا للمتوكل – شخصًا عاديًا ..

٢ – **كَأَنَّ الصَّبا توفي نُذورًا إذا انبَرَت ∴ تُراوِحُهُ أَذيالُها وَتُباكِرُه**

لقد انعدم الوفاء في الابن الذي قتل أباه .. ولكن ريح (**الصَّبا**) وفيّة ، هاهي تأتي إلى القصر صباحًا ومساء ، بكرة وعشيًّا ، بالغدو والآصال .. وهي إذ تأتي إنما تأتي لتوفي النذور التي التزمت بها .. لقد كانت في الماضي تزور القصر لتؤنس سكانه ، فيتمتعوا بنسيمها .. وكأنها ماضية على عهدها القديم ..

٣ – **وَرُبَّ زَمانٍ ناعِمٍ ثَمَّ عَهدُهُ ∴ تَرِقُّ حَواشيهِ وَيورَقُ ناضِرُه**

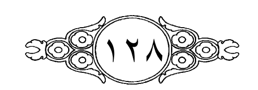
وكأن ريح الصبا التي وفت للعهد الماضي ذكّرته بذلك الزمان الناعم – مثل العيشة الراضية – فالزمان حين يكون ناعمًا لابد أن مَن يعيش ذلك الزمان ناعم ، في عيش رفيه ، كُلّ شيء فيه ناضر ..

٤ – **تَغَيَّرَ حُسنُ الجَعفَرِيِّ وَأُنسُهُ ∴ وَقُوِّضَ بادي الجَعفَرِيِّ وَحاضِرُه**

لقد تبدّل كُلّ شيء ، ودالت دولة الجعفري ، فالحُسن صار قُبحًا ، والأُنس أصبح وحشة ، وكُلّ ما في القصر من مظاهر الحضارة ، وما فيه من مظاهر البداوة .. قُوض وتهدّم .. وقد يكون البادي والحاضر : أي الظاهر والداخل .. الهدم عمّ أقطاره ونواحيه .

وتلاحظ في هذا البيت :

– تكرار لفظ (**الجَعفَرِيّ**) ، وهذا التكرار في مقام الرثاء يوحي بالأسى العميق ، والحزن الدفين .



- هذا التقسيم الموسيقي الرائع (تَغَيَّرَ – قُوِّضَ) ، (حُسنُ – بادي) ، (الجَعفَرِيّ – الجَعفَرِيّ) ، (وَأُنسُهُ – وَحاضِرُه) تعادلية موسيقيّة ليست غريبة على البحتريّ ، الشاعر الذي يتميز بالحس الموسيقي العالي .
- الفعل المبني للمجهول (وَقُوِّضَ) دون ذكر الفاعل : إمّا خوفًا من مغبة ذكره ، وإمّا أنه يستعجل ذكر المفعول الذي وقعت مصائب الدهر به ، وأنزلته من عال إلى خفض .. والبناء للمجهول فيه تعظيم وتهويل للحدث.

٥ – **تَحَمَّلَ عَنهُ ساكِنوهُ فُجاءَةً ∴ فَعادَت سَواءً دورُهُ وَمَقابِرُه**

إنه الرحيل المفاجئ ، أصعب أنواع الرحيل وأقساه ، وخلا القصر تمامًا من كُلّ مَن يسكنه وما يسكنه .. فعاد القصر قبرًا .. سكون تام يخيّم عليه ، ووحشة وكآبة تملأ المكان .. لقد رحل كُلّ ما في القصر .. فصار مظلمًا موحشًا ..

٦ – **إذا نَحنُ زُرناهُ أَجَدَّ لَنا الأَسى ∴ وَقَد كانَ قَبلَ اليَومِ يَبهَجُ زائِرُه**

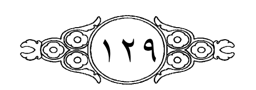
وإذا كانت ريح الصبا قد وفت ، فالبحتريّ ليس أقل وفاء منها ، كيف لا يوفي وقد عاش أفضل أزمانه هناك نديمًا للمتوكل ؟! فهاهو يأتي زائرًا اليوم كما كان يزور كثيرًا من قبل .. وما أبعد البَوْن بين زياراته اليوم وزيارات الأمس !!

بالأمس كان يزور وهو مرح مختال مسرور .. واليوم يزور حزينًا ملتاعًا ، لمجده – هو أوّلاً – الذي قُوّض واندثر .. ولمجد القصر ودار الخلافة .

وفي البيت (توشيح) ، أو (تصدير) : (زُرناهُ – زائِرُه) .

يوم مصرع المتوكل :

٧ – **وَلَم أَنسَ وَحشَ القَصرِ إِذ ريعَ سِربُهُ ∴ وَإِذ ذُعِرَت أَطلاؤُهُ وَجَآذِرُه**



تأمل كيف مهّد الشاعر تمهيدًا سلسًا رائعًا لعرض المشهد الذي كان سببًا في تحوّل حاله ، وتحوّل القصر !!

إنه (مقتل المتوكل) .. في ذلك اليوم المشهود .. يوم فزعت وحوش القصر ، وريعت أسرابها ، وحتى الصغار منها كانت مذعورة مهتاجة ..

لقد ملأ الرعب والفزع المكان كُلّه .. وكُلّ ما في القصر أصابه الهلع والخوف .. والبحتريّ يركز على عالم الحيوان ، ويُغضي عن عالم الإنس ، ربما لأن عالم الإنس فيه الغدْر ، والقسوة ، والغلظة .. حتى إن الولد يقتل أباه ..

وربما أراد أن الحيوان أصيب بما أصيب به فما بالك بالإنسان ؟!

كيف كان حال النساء والأطفال ؟!

ويبدو لي أنه كانت هناك (حديقة حيوان) ملحقة بالقصر ، وداخل أسواره .. حيث افتتن المتوكل في بناء القصر وجعله فريدًا بين القصور ، وربما كانت البِرْكة هناك ، فكان جنة من جنان الدنيا .

٨ – **وَإذْ صِيحَ فيهِ بالرَحيلِ فَهُتِّكَت ∴ عَلى عَجَلٍ أَستارُهُ وَسَتائِرُه**

انظر كيف استخدم الشاعر الفعل المبني للمجهول – مرّتين في البيت السابق ، ومرّتين هنا – وهو مقصود للشاعر :

لقد انطلقت صيحة .. ممّن ؟ ليس مهمًّا مَن الصائح .. فالصيحة تُنادي سكان القصر : أن ارحلوا .. حينئذ لا يأبه السامعون بالصائح ، وإنما شغلوا من فورهم بالرحيل طلبًا للنجاة بأنفسهم ، حتى لا يلحقوا بالمتوكل .. إنه الهرج والمرج .. الكل يهرول نحو الأبواب والمداخل والشرفات ليقفز من هنا ، أو يتسلل من هناك ... وهو ماض في سبيله ، يهتك الأستار والستائر التي تعوّق طريقه ..

٩ – **وَوَحشَتَهُ حَتّى كَأَن لَم يُقِم بِهِ ∴ أَنيسٌ وَلَم تَحسُن لِعَينٍ مَناظِرُه**



إن مَن ينظر إلى القصر ، ويرى السكون فيه ، والوحشة مخيمة عليه ، ضاربة بأطنابها في جنباته ، لا يتخيل أن هذا المكان كان عامرًا بالسكان ، بل لم يقم به أنيس .. ولم يكن يخطف الأبصار ..

إن مظاهر الجمال والأبهة حالت – بفعل تلك الأيدي العابثة المفسدة – قبرًا موحشًا .. والشاعر يصور لك في هذه الأبيات مدى قسوة ذلك العابث الذي نزعت من قلبه الرحمة ، فصار كالحجر أو أشد قسوة ..

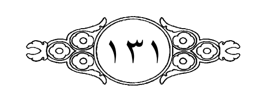
إن مثل هذا القاتل لا يستحسن صورة جميلة ، أو منظرًا بهيًّا خلاّبًا .. وإنه كما يقتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ، لا يلفت نظره قدرة الله في مخلوقاته : نبات ، حيوان ، جماد ... هؤلاء يبشون للدماء تراق ، فكيف يتأثرون بمنظر بهيج ؟ لقد لفت القرآن الكريم الأنظار إلى هذه الآيات الإلهية في الكون : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ (النمل : من ٦٠) ، ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ (ق : ٧ ، ومن ٨) ، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج : من ٥) .

لكن الذين يهدمون بنيان الله في الأرض – وهو الإنسان – يعبثون بآيات الله في الكون .. فأنَّى لهم أن يعتبروا ويتعظوا ؟! إنها القلوب القاسية، والأكباد الغليظة .

١٠ – كَأَن لَم تَبِت فيهِ الخِلافَةُ طَلْقَةً ∴ بَشاشَتُها وَالمُلكُ يُشرِقُ زاهِرُه

١١ – وَلَم تَجمَعِ الدُنيا إِلَيهِ بَهاءَها ∴ وَبَهجَتَها وَالعَيشُ غَضٌّ مَكاسِرُه

وعلى طريقة (زَمانٍ ناعِمٍ) في البيت (٣) .. تأتي (**الخِلافَةُ طَلْقَةً**) و(**المُلكُ يُشرِقُ زاهِرُه**) و(**العَيشُ غَضٌّ مَكاسِرُه**) ..



يوازن الشّاعر بين الماضي والحاضر .. كيف كانت الخلافة في أبهى صورها ، وأوج فخارها وعزها .. والبحتريّ كذلك !! وكيف كان المُلْك مُشْرقًا، زاهيًا ، حياة رفاهية ، وأبهة ملك ، وعيش خفيض .. كُلّ ذلك أصبح في خبر كان .

وإذا كان العيش في أهنأ مظاهره ، والخلافة في أعظم الأبهة ، فإن الحسرة تشتد بالشاعر ، وتعظم هول الفجيعة على ما آلت إليه كُلّ هذه المعالم ..

١٢ – فَأَيْنَ الحِجابُ الصَعبُ حَيثُ تَمَنَّعَت ∴ بِهَيبَتِها أَبوابُهُ وَمَقاصِرُه

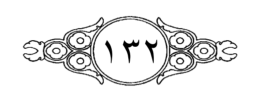
١٣ – وَأَينَ عَميدُ الناسِ في كُلِّ نَوبَةٍ ∴ تَنوبُ وَناهي الدَهرِ فيهِم وَآمِرُه

إن البحتريّ مندهش ، مستنكر ما حدث .. وكأنه يشير من طرف خفي إلى أن هؤلاء المنوط بهم حراسة الخليفة شاركوا في مؤامرة اغتياله ، وتواطأوا مع المنتصر ضد المتوكل .

إنهم الحجاب ، والحراس ، الذين انتشروا حول كُلّ مداخل القصر وشرفاته ، وكل مكان يتوقع التسلل منه ... أين الشرطة ؟ إن هؤلاء جميعهم موظفون للحراسة ، والحفاظ على هيبة القصر وحصانته .. فأين كانوا حين تسلل المجرمون إلى الخليفة وقتلوه ؟!

لقد تمت الجريمة بتدبير متقن ، فاستطاع الجناة أن يقتحموا القصر فجأة ، ودخلوا دونما مقاومة .. وارتكبوا فعلتهم الشنيعة ..

ولست أدري هل باستطاعة هؤلاء المذكورين – ممن أنيط بهم الحراسة – أن يمنعوا وليّ العهد ، ابن الخليفة من الدخول على أبيه ؟ ألم يكن المنتصر مقيمًا في القصر نفسه ؟ وهل من سلطات هؤلاء أن يمنعوا عصابة دخلوا في ركاب المنتصر ؟! وربما توارى المنتصر ، وقام بالاغتيال الشرطة نفسها .



١٤ – تَخَفّى لَهُ مُغتالُهُ تَحتَ غِرَّةٍ ∴ وَأَولى لِمَن يَغتالُهُ لَو يُجاهِرُه
١٥ – فَما قاتَلَت عَنهُ المَنونَ جُنودُهُ ∴ وَلا دافَعَت أَملاكُهُ وَذَخائِرُه
١٦ – وَلا نَصَرَ المُعتَزَّ مَن كانَ يُرتَجى ∴ لَهُ وَعَزيزُ القَومِ مَن عَزَّ ناصِرُه

لقد كانت جريمة اغتيال .. فاعلها عادة يكون جبانًا رعديدًا .. لقد تسلل المغتال مغافلاً الحُرّاس والحُجّاب في ظلمة الليل .. وتخفى عن الأنظار ليطعنه فجأة ، تمامًا كما فعل (جساس بن مرة) بالمهلهل ، إذ اغتاله ، وطعنه في ظهره ..

وكان حريًّا به لو كان شجاعًا أن يقاتله وجهًا لوجه .. لكن السيوف عاجلته من كُلّ صوب وحدب ...

ولم يكن ليدفع عنه الموت دافع .. فلا الجنود ، ولا الأملاك والذخائر ..

وقوله :

١٦ – وَلا نَصَرَ المُعتَزَّ مَن كانَ يُرتَجى ∴ لَهُ وَعَزيزُ القَومِ مَن عَزَّ ناصِرُه

هذا البيت قد يبدو ملبسًا .. وسبب هذا اللبس كلمة (**المُعتَزَّ**) فقد يفهم منه أن (**المُعتَزَّ**) وصف يطلق على الخليفة المتوكل ، الذي كان يعتز بحاشيته ، وحرّاسه ، وحجّابه ، ومَن وجب عليه نصرته .

وربما كان (**المُعتَزّ**) هو ابن الخليفة ، الذي لم يجد مَن يناصره ضد أخيه (المنتصر) الذي كان زعيم المؤامرة على أبيه .. وفيه التماس عذر للمعتز ، وتبرير لعدم قيامه بثورة على المعتدي ، إذ إن الناس قد انفضوا عنه .. وقد استشهدوا لهذا التفسير بالخبر الذي ذكره عبد الله ابن المعتز ، وذكر فيه أن البحتريّ نظم القصيدة في عهد المعتز ، يتقرب بها إليه .

١٧ – تَعَرَّضَ ريبُ الدَهرِ مِن دونِ فَتحِهِ ∴ وَغُيِّبَ عَنهُ في خُراسانَ طاهِرُه
١٨ – وَلَو عاشَ مَيتٌ أَو تَقَرَّبَ نازِحٌ ∴ لَدارَت مِنَ المَكروهِ ثَمَّ دَوائِرُه
١٩ – وَلَو لِعُبَيدِ اللهِ عَونٌ عَلَيهِمِ ∴ لَضاقَت عَلى وُرّادِ أَمرٍ مَصادِرُه

لقد كان الأعوان والظهراء الذين يرتجى منهم الدفاع عن المتوكل بعضهم غائب وهو (طاهر بن عبد الله بن طاهر) فقد كان في خراسان، و(الفتح بن خاقان) الوزير الوسيم الأديب ، خصب العطاء والوفاء .. قتل مع الخليفة .. ولو عاش الميت ، وكان النازح قريبًا ، لدارت الدوائر على القاتل .. وأما الوزير (عبدالله بن يحيى بن خاقان) فلو أُعين على الثأر لانتقم من القتلة .

٢٠ – حُلُومٌ أَضَلَّتها الأَماني وَمُدَّةٌ ∴ تَناهَت وَحَتفٌ أَوشَكَتهُ مَقادِرُه

حلوم مضللة ، أعمتها الأماني عن رعاية الحقوق ، وأورثتها العقوق ، فلم ترع حرمة ..

ولكن الشّاعر يعود إلى صوابه ، فيرى أن ذلك قَدَر الله ﷻ ، وأجل قد انتهى ، ولو اجتمعت الدنيا بأسرها ما أخرت أجله ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (النحل : من ٦١) ، ولا يُغني حذر من قَدَر .. فلا الفتح بن خاقان ، ولا طاهر بن الحسين ، ولا فلان ... بمستطيع أن يدافع الموت .

٢١ – وَمُغتَصِبٌ لِلقَتلِ لَم يُخشَ رَهطُهُ ∴ وَلَم تُحتَشَمْ أَسبابُهُ وَأَواصِرُه

(مُغتَصِبٌ لِلقَتلِ) .. تعبير عجيب ! فالمغتصب يغتصب مالاً أو ضياعًا ... أمّا مغتصب للقتل .. فكأنه – هو ومَن يقدم على قتل نفس – اغتصب حَقًّا ليس له .. فالموت والإحياء بيد الله ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ (الزمر : من ٤٢) .

والقاتل لم يخش رهط القتيل ، ولم يراع روابط القرابة ، وهل هناك أقرب من الابن لأبيه ؟!

٢٢ – صَريعٌ تَقاضاهُ السُيوفُ حُشاشَةً ∴ يَجودُ بِها وَالمَوتُ حُمْرٌ أَظافِرُه

الصريع هو المتوكل ، تناوشته السيوف من كُلّ جانب ، كأنما هو مدين ،



وأولئك القتلة دائنون يطلبون ديونهم .. وما ديونهم إلاّ روحه التي بين جنبيه .. وحشاشة الروح : بقيتها ، والشاعر يصفهم بقسوة القلوب ، وغلظة الأكباد حين يرونه في النزع الأخير لكنهم لا يكفون سيوفهم عنه .. إنه الموت ، السبع المفترس ، أنشب أظافره في القتيل ، فكانت نهايته .. وهو يذكرنا بقول أبي ذؤيب :

وَإذا المَنِيَّةُ أَنشَبَت أَظفارَها ∴ أَلفَيتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنفَعُ

ومن الملاحظ أن الشاعر أكثر من استخدام حروف المد واللين في هذا البيت الذي صور فيه مشهد القتل : (**صَريعٌ – تَقاضاهُ – السُيوفُ – حُشاشَةً – يَجودُ – أَظافِرُه**) .. وهي تدل على التوجع وشدة الأسى والأنين .

موقف البحتريّ :

٢٣ – **أُدافِعُ عَنهُ باليَدَينِ وَلَم يَكُن ∴ لِيَثني الأَعادي أَعزَلُ اللَيلِ حاسِرُه**

٢٤ – **وَلَو كانَ سَيفي ساعَةَ القَتلِ في يَدي ∴ دَرى القاتِلُ العَجلانُ كَيفَ أُساوِرُه**

لقد كان البحتريّ مع الخليفة في تلك الليلة يسمران ويتنادمان ، وربما كان ينشده من أشعاره .. فالمقام للطرب والسهر .. فلم يكن يحمل سلاحًا ، ولذلك قال : دافعت عنه باليدين ، ولكن ماذا يفعل الأعزل أمام قوة باطشة غاشمة مسلحة ؟!

لو كان معي سيفي لدارت الأمور على وجه آخر ، وحينئذ يرى القاتل كيف يكون الصراع ، والكر والفر ، والمساورة ...

و(**القاتِلُ العَجلانُ**) لها معنيان : إمّا أن يكون المقصود بها مَن قام بضرب الخليفة ، أي المغتال ، ومثله يكون متعجلاً إزهاق روح القتيل ، والقضاء عليه بأقصى سرعة ، حتى لا يظفر به أحد ، أو يعطي فرصة لذائد عنه فيقتل ، بينما ينجو الخليفة .. أو أن (**القاتِل العَجلان**) هو (المنتصر) ابن الخليفة ، الذي كان به من الحمق ما جعله متسرعًا في سائر



أمور حياته ، ومنها تعجّل الوثوب على كرسي الخلافة .. وذُكر أن الخليفة قد لاحظ هذه الصفة في المنتصر ، فكان يسميه (المنتظر) ، كناية عن تربصه للوثوب إلى العرش .. وليس بالضرورة أن يقتُل بيديه ، فهناك مَن يبيع آخرته بدنيا غيره .. ألا ما أضلهم !! وما أغباهم !!

لقد كان البحتريّ معروفًا بجُبْنه ، ولكنها أوهام الشعراء ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ (الشعراء : ٢٢٤ – ٢٢٦) .

وهو قد ادعى الشجاعة والبطولة في قصيدته التي يصف فيها ذئبًا التقاه .. فطعنه البحتريّ مرة تلو أخرى ... ثم اشتواه ، ونال منه خسيسًا ، ثم تركه .

٢٥ – حَرامٌ عَلَيَّ الراحُ بَعدَكَ أَو أَرى ∴ دَمًا بِدَمٍ يَجري عَلى الأَرضِ مائِرُه

٢٦ – وَهَل أَرتَجي أَن يَطلُبَ الدَمَ واتِرٌ ∴ يَدَ الدَهرِ وَالمَوتورُ بِالدَمِ واتِرُه

كأنما أحس البحتريّ في قرارة نفسه أنه كاذب ، لا يصدقه أحد ، وأنه لم يوفّ الخليفة حقّه كما ينبغي .. فليوفّه بطريقة أخرى :

فيحرم على نفسه (الرّاح) .. وقد ذهب جل من تعرّض لهذه القصيدة إلى أن (الرّاح) هي الخمر(١) .. وهي كذلك .. ولكنها أيضًا : الكفّ ، وهي أيضًا : الارتياح ، قال الجميح الأسدي :

وَلقيتُ ما لَقِيَت مَعَدٌّ كُلُّها ∴ وفَقَدتُ راحِي في الشَّبابِ وخَالي

(١) يقول د/ عبد الله الطيب – مثلاً – : " وماذا يغني أن يحرّم البحتريّ حرامًا مجمعًا على تحريمه ، حزنًا على أمير المؤمنين المقتول ؟ وأي فائدة في تحريم الخمر على نفسه (على فرض أنها حلال) حتى يدرك ثائر بدم المتوكل ؟ .
أقول : لست أدري كيف يقول د/ عبد الله الطيب هذه العبارة : " حرامًا مجمعًا على تحريمه " ؟ أولم يقرأ تحريمها في القرآن الكريم ؟ والأدهى أن يقول بعد ذلك : " على فرض أنها حلال " .. إن هذا لشيء عجاب !!



أي فقدت راحتي .. وراح يراح روْحًا : برد وطاب .. والرّوْح : الاستراحة[1] .. هذا هو المعنى الذي سبق إلى ذهني يوم أن قرأت القصيدة لأوّل مرّة .. وإن كانت هناك شواهد تنطق بأنها الخمر – كما أسلفنا في معاني ألفاظ القصيدة .

ويجعل خليفته المقتول ماثلاً مخاطبًا أمامه فيقول : " **بَعدَكَ** " .. إنه لا يقر له قرار ، ولا يغمض له جفن إلاّ إذا تحقق القصاص من القتلة ، ويذهب غيظه ويشفى نفسه جريان دمائهم على الأرض .

ثم يعود متسائلاً : كيف يُقتص من القاتل ، وهو نفسه ولي الدم ؟ إن الموتور هو الواتر ، فهل يثأر من نفسه ؟! لقد ضاع الثأر إذًا .

٢٧ – **أَكانَ وَلِيُّ العَهدِ أَضمَرَ غَدرَةً ∴ فَمِن عَجَبٍ أَن وُلِّيَ العَهدَ غادِرُه**

إنه ليلفت النظر في هذا البيت تكرير (**العَهد**) و(الغدر) .. فولي العهد يوصف عادة بـ (الأمين) ؛ لأنه أحرص الناس على حياة الملك أو الخليفة ، إذ سيخلفه من بعده ، فهو أوّل الذائدين عنه ، وإلاّ ضاعت الخلافة وانتهت لغيره .

لكن (**وَلِيّ العَهدِ**) خان العهد ، ونقض المواثيق .. فهل كان يضمر غدرًا بين جنبيه ؟ إن ذلك لشيء عجاب !!

وقد سمعنا ورأينا ذلك في بلاد العالم : الابن يحجر على أبيه ! أو يعزله ! أو يقتله ، ويتولى هو الخلافة !!

٢٨ – **فَلا مُلِّيَ الباقي تُراثَ الَّذي مَضى ∴ وَلا حَمَلَت ذاكَ الدُعاءَ مَنابِرُه**

٢٩ – **وَلا وَأَلَ المَشكوكُ فيهِ وَلا نَجا ∴ مِنَ السَيفِ ناضي السَيفِ غَدرًا وَشاهِرُه**

يدعو على الغادرين القتلة ، ويشير إلى (المنتصر) فيطلب إلى الله ألاّ

(١) اللسان (ر و ح) ، (ر ي ح) .

يُدعى له على المنابر ، وهذا يعني : أنه أنشأ القصيدة عقب الجريمة ، ومن ثَمّ يرجو ألاّ تطول الأيام حتى يتمكن من الجلوس على العرش فيُدعى له على المنابر .. أي هي أيام قلائل يتمنى الأخذ بالثأر فيها .

وأن يقع كُلّ مَن شارك في الجريمة بيد العدالة الحقيقية ، فيقتص منهم ، ولا يجدون موئلاً للنجاة .. إنهم غدَرة فجرة قتلة ..

٣٠ – **لَنِعمَ الدَمُ المَسفوحُ لَيلَةَ جَعفَرٍ ∴ هَرَقتُم وَجُنحُ اللَيلِ سودٌ دَياجِرُه**

٣١ – **كَأَنَّكُمُ لَم تَعلَموا مَن وَلِيُّهُ ∴ وَناعيهِ تَحتَ المُرهَفاتِ وَثائِرُه**

٣٢ – **وَإِنّي لَأَرجو أَن تُرَدَّ أُمورُكُم ∴ إِلى خَلَفٍ مِن شَخصِهِ لا يُغادِرُه**

٣٣ – **مُقَلِّبِ آراءٍ تَخافُ أَناتُهُ ∴ إِذا الأَخرَقُ العَجلانُ خيفَت بَوادِرُه**

إن القتيل رجل تقي ، دماؤه زكية ، لكن هؤلاء القتلة أراقوا دمه مستخفين بالليل ، وكأنهم لم يعلموا أن من ورائه رجالاً لا يقر لهم قرار حتى يدركوا ثأره .. وهو بهذا يستحثهم ، ويستثير نخوتهم ورجولتهم ..

ثم يرجو ألا تؤول الخلافة إلى العجلان (المنتصر) القاتل ، وإنما يرجو أن يتولاها (المعتز) الذي يشابه أباه في كُلّ شيء .. فهو رجل يتمتع بالحنكة والأناة والروية ، بينما ذلكم (**الأَخرَقُ العَجلانُ**) لا يؤتمن على الخلافة ؛ لأنه ضعيف الرأي ، متسرع في الحكم .. وما أخطر مثل ذلك الحاكم على الرعية !!

وبذلك رأينا الشاعر في آخر القصيدة وقد استبدّت به نوبة حماس ، فكان نتيجتها إشارته إلى القاتل بالأصابع ..

وقد سميت الليلة (**لَيلَةَ جَعفَرٍ**) لأنها شهدت أبشع الأحداث .. يقول الثعالبي : " هي الليلة التي قتل فيها ، وكانت ثلمة الإسلام ، وعنوان سقوط

الهيبة ، وتاريخ تراجع الخلافة "[1] .

التعقيب الفني

متى نظم البحتريّ قصيدته ؟

١ – ذكر الصولي أنه سأل عبد الله بن المعتز في أمر هذه القصيدة قائلاً : " أكان البحتريّ يجسر أن يقول لما قتل المتوكل في يوم المنتصر :

لَنِعمَ الدَمُ المَسفوحُ لَيلَةَ جَعفَرٍ ∴ هَرَقتُم وَجُنحُ اللَيلِ سودٌ دَياجِرُه
أَكانَ وَلِيُّ العَهدِ أَضمَرَ غَدرَةً ∴ فَمِن عَجَبٍ أَن وُلِّيَ العَهدَ غادِرُه
فَلا مُلِّيَ الباقي تُراثَ الَّذي مَضى ∴ وَلا حَمَلَت ذاكَ الدُعاءَ مَنابِرُه

فقال لي : " إنما عمل هذه الأشعار في أيام المعتز ، يتقرب بها إليه "[2] .

٢ – أمّا أبو العباس ثعلب فمفهوم كلامه أنه نظمها يوم حدثت الجريمة ؛ إذ يقول : " وقد صرح فيها تصريح مَن أذهلته المصائب عن تخوف العواقب " .

٣ – يقول حسن كامل الصيرفي – محقق الديوان – : " إن الشاعر نظم القصيدة يوم مصرع المتوكل بالذات ، فإلى جانب التأثر السريع للحادث الذي شهده ، أورد أبياتًا تنبئ عن أمله في أن يلي الخلافة (المعتز) دون (المنتصر) ، أي : يوم ٤ من شوال ٢٤٧هـ "[3] .

٤ – ويرى الدكتور أحمد أحمد بدوي أن البحتريّ " أنشأ القصيدة وهو في بؤرة

(١) ثمار القلوب ص١٩٠ .
(٢) أخبار البحتريّ ص١٠٢ .
(٣) الديوان ١٠٤٥/٢ (الحاشية) ، وصالح اليظي ص١٥٧ .



مشاعره الحزينة ، ولم يُذعها إلاّ في الظروف المواتية "[١] .
أي أنها من المكتّمات .

٥ – أمّا الدكتور عبده بدوي فيرى أن الأبيات الأولى كتبها الشاعر منفعلاً بالحادث ، ثم أكملها بعد أن مات المنتصر ، فهو لم يستقر على العرش إلاّ أشهرًا ، ويجوز أنه بعد أن كتبها وراجعها طواها طول خلافة المنتصر[٢] .

٦ – ويقول صالح حسن اليظي : " يصعب عليّ أن أتصور قصيدة على هذه الدرجة من النضج الفني ، وتعبر عن أحداث غاية من الضخامة والعنف ، كتلك التي اكتنفت مأساة المتوكل .. أقول : يصعب عليّ أن أتصورها بنت ليلتها – كما يذهب الأستاذ الصيرفي – ، ولو أنها كتبت ومشاعر البحتريّ ملتهبة بأتون الحوادث لاهتزّت شيئًا بين يديه ، ولما جاءت كما يصفها الدكتور مُحمّد صبري : متماسكة ، يشد بعضها بعضًا ، لا ثلمة فيها " .

والرأي المقبول عندي في تلك القضية : أن البحتريّ – وهو ذو مشاعر مرهفة ، وذو حب ووفاء عميقين للمتوكل – قد صهرته مباشرته لتلك التجربة المريرة الدامية ، وهصرت منه العقل والوجدان ، فأخذ ينزف القصيدة حتى تمكن من لم شتات نفسه ، وتأمل ما استقر بداخله من بقايا تلك العاصفة المدمرة ، وهجوم البحتريّ العنيف على المنتصر ، ورجاؤه أن يستقر الحكم لمَن يقدر عليه ويقلب فيه الآراء ، وهو (المعتز) على الأغلب .

---

(١) حياة البحتريّ وفنه ص١٧٥ – د/ أحمد أحمد بدوي .
(٢) مجلة الشِّعْر – ع٤ – أكتوبر ١٩٧٦م ص١١٧ .



... ولا أحسبه انتظر ستة أشهر كي يسمح لمشاعره الفائرة بأن تتجسد في قصيدة بعد وفاة المنتصر .. وإنما المقبول أنه عبر عن ذات نفسه بعد فترة معقولة من التأمل ، قبل أن تبرد عاطفته .. والغالب أنه طوى القصيدة ، ولم يعلنها إلاّ بعد موت المنتصر ، وتولي المعتز[1] ..

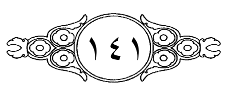
٧ – والدكتور درويش الجندي يذهب إلى أن القصيدة بها شواهد كثيرة تدلّ على أنها لم تنظم عقب مقتل المتوكل ، يقول : " فليس في القصيدة ثورة وتفجع وحرقة مَن يصف حادثًا قريبًا أذهله .. ولكنها تمثل مَن تجرّع المصاب ، فكتمه في نفسه حينًا ، حتى إذا ما سمحت الظروف أخذ في الأفصاح عن مشاعره ... فجاء قوله رزينًا ، يجلّله نغم حزن هادئ ، وألم دفين ، ولكنه ليس بجامح ... " .. ثم استشهد بالأبيات (٣ ، ٦) .

٨ – والرأي عندي أنه نظمها عقب الحادثة ، ولكنه أخفاها وكتمها ، ولم يعلم بها المعتز أو غيره ، إلاّ بعد وفاة المنتصر .. بدليل الأبيات التي يدعو فيها على المنتصر بألاّ يهنأ بالخلافة ، وألاّ يحيا حتى يُدعى له على المنابر .. ثم ما في القصيدة من دعوة إلى الانتفاض على القتلة ، وعلى رأسهم الخليفة الجديد .. وألاّ يولوا أمورهم للقاتل العجلان ...

كما أن استخدامه للفعل المبني للمجهول بكثرة ، بالإضافة إلى معاني الكلمات التي توحي بالسرعة والعجلة ، مثل : (**ريعَ سِربُهُ – ذُعِرَت أَطلاؤُهُ وَجَآذِرُه – صِيحَ فيهِ بِالرَحيلِ – هُتِّكَت عَلى عَجَلٍ** ...) ، كُلّ ذلك ينطق بأن القصيدة نظمت عقب الحادثة .

---

(١) صالح اليظي ص١٥٧ ، ١٥٨ .



الطـــــلل

الطلل في رائية البحتريّ هنا هو قصر المتوكل ، هذا ما ظهر جليًّا ، وصار عنوانًا للقصيدة .. ولكن الطلل الخفي هو ما يُسمّى (المعادل الموضوعي) .. وذلك أن البحتريّ يبكي مجده وعزّه وأُبّهته هو .. وكُلّ ذلك قد زال ، وصار طللا .. فحسرة البحتريّ على ما أصاب القصر من خراب ودمار ، وما أصاب أمر الخلافة من هوان وضعف .. كُلّ ذلك إن هو إلاّ حسرة على نفسه .. فقد هان أمره ، وهذا ما أشار إليه في السينية :

وَتَماسَكتُ حينَ زَعزَعَني الدَهـ ... ـرُ التِماسًا مِنهُ لِتَعسي وَنَكسي
وَاشــتِرائي العِــراقَ خُطَّــةُ غَــبنٍ ... بَعدَ بَيعي الشَآمَ بَيعَةَ وَكسِ

وقوله عن الإيوان الذي اتخذه معادلاً موضوعيًّا :

مُزعَجًــا بِــالفِراقِ عَــن أُنــسِ إِلــفٍ ... عَزَّ أَو مُرهَقًا بِتَطليقِ عِرسِ
عَكَسَت حَظَّهُ اللَيالي وَباتَ الـ ... ـمُشتَري فيهِ وَهوَ كَوكَبُ نَحسِ
فَهوَ يُبدي تَجَلُّدًا وَعَلَيهِ ... كَلكَلٌ مِن كَلاكِلِ الدَهرِ مُرسي

... إلخ .. ما ذكرناه في تحليل السينية ..

العاطفـــة :

ليس من شك في أن الشاعر صادق كُلّ الصدق في هذه القصيدة ؛ لأنه – كما أسلفنا – يبكي مجده الأدبي الزائل ، وحياته السعيدة المرفهة الناعمة ، التي قضاها في ذلك القصر مع الخليفة .. فقلبه يتقطع ألمًا وحسرة ، ويفيض لوعة وأسفًا ..

لقد تملكت عاطفة الحزن العميقة زمام نفس الشاعر .. وسرت تلك العاطفة فولدت الصورة الكلية للقصر المدمر الذي صار قبرًا .. كما كان من نتاجها تلك الألفاظ الكئيبة التي ذخرت بها القصيدة ، وكذلك البناء الموسيقي

والقافية ..

الموسيقا في القصيدة :

كتب البحتريّ هذه القصيدة بمفتاح موسيقي محكم ، فقد عبر بهذه الألفاظ الضخمة عن عاطفة الحزن الثائرة ، حتى لكأن الألفاظ لها قعقعة السلاح ، ودوي المدافع التعسة الحزينة ..

وقد وفق في ربط القوافي بالهاء الساكنة ، فجعل الصوت بعد انطلاقه على الكلمات والمقاطع ينخفض فجأة عند القافية ، وكأنه لم تعد فيه بقية ، ثم يعلو وينطلق في الاندفاع على البيت الثاني ، وما يلبث أن ينخفض فجأة كرة أخرى ... وهكذا ، لا يزال الصوت بين ارتفاع وانخفاض ، كأن الشاعر نائح ... وبذلك مثّل البحتريّ زفرات الحزن تمثيلًا جيدًا ، وندب المتوكل الخليفة المقتول على عرشه ندبًا خالدًا[١] .

وفي القصيدة " نغم هادئ وقور ، كأنه لحن جنائزي يشيع الراحلين ، ويناسب جلال الموت "[٢] .

والقصيدة من بحر الطويل ، وهو البحر الذي آثره الشعراء القدماء على ما عداه ؛ لأنه صالح لبث الشكوى والهموم وإطلاق الزفرات والأنات من خلاله ..

والطويل والبسيط أطولا بحور الشِّعْر العربيّ ، وأعظمها أبهة وجلالة ، وإليهما يعمد أصحاب الرصانة ، وفيهما يفتضح أهل الركاكة والهُجنة ... والطويل أفضلهما وأجلهما ، وهو أرحب صدرًا من البسيط ، وأطلق عنانًا ،

---

(١) الفن ومذاهبه ص٧٧ .
(٢) درويش الجندي ص١٨٧ .



وألطف نغمًا ... ومما يدلك على سعة الطويل أنه تقبّل من الشِّعْر ضروبًا عدة كاد ينفرد بها عن البسيط .

وقد أخذ الطويل من حلاوة الوافر دون انتباره ، ومن رقة الرمل دون لينه المفرط ، ومن ترسل المتقارب المحض دون خفته وضيقه ، وسلم من جلبة الكامل وكزازة الرجز .. وأفاده الطول أبهة وجلالة ، فهو البحر المعتدل حقًّا ، ونغمه من اللطف بحيث يخلص إليك وأنت لا تكاد تشعر به .. وتجد دندنته مع الكلام المصوغ فيها بمنزلة الإطار الجميل من الصورة ، يزينها ولا يشغل الناظر عن حسنها شيئًا .. والطويل في هذه الناحية يخالف سائر بحور الشِّعْر[1] ...

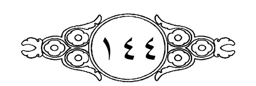
" وموسيقا البحر والألفاظ هادرة صاخبة ، كأنها تحكي صخب الأسلحة ... "[2] .

والقافية بنيت على حرف الراء المتبوعة بهاء السكت ، وليس ذلك خبط عشواء ، وإنما قصد الشاعر – كما أسلفنا – إلى ذلك قصدًا ، فهي تشبه آهة مكتومة يلف القصيدة بمناخ جنائزي كثيف .. فضلاً عن أن الراء فيها من الإمكانات الصوتية ما " يساعد الشاعر تمامًا في تصوير عواطفه الجريحة المهتاجة "[3] .

والراء حرف مجهور لثوي متكرر .. يشبه أصوات اللين ، متوسط الرخاوة والشدة ، وعند النطق به تتكرر حركة اللسان أكثر من مرّة .. ولذا وفق الشاعر في إيثاره هذا الحرف لبث لواعجه وأحزانه[4] .

---

(١) المرشد ٣٦٢/١ .
(٢) صالح النطي ص١٥٣ .
(٣) السابق ص٣٤٨ ، ومجلة الشِّعْر ص١١٨ – د/ عبده بدوي .
(٤) النطي ص٣٤٨ .



والبحتريّ شاعر اللطف والرقة غير مدافع ، وإن صح أن يوصف عنترة بأنه رقيق أصحاب المعلقات .. فالبحتريّ رقيق الشعراء المحدثين جميعهم ، وأطبعهم وأسلسهم من غير خروج عن مذهب المتانة في السبك ، واتباع المنهج الفصيح في تقعيد الكلام ...

ولن تجد شاعرًا يفتن كما يفتن البحتريّ في استغلال الثلاثيات من الكلمات ، واستعمال المصادر المنوّنة ، وألفات المد ، وحروف الإشباع ... كُلّ ذلك في سلاسة وخفة ورشاقة(١) ..

الألفاظ والأساليب :

قوله : " **أَخلَقَ داثِرُه** " (دثر : بلي) .. تناولها النقاد بالتحليل ..

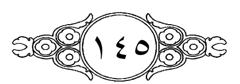
١ – فيقول اليظي : " إذا كان المعتاد أن يُقال عن الشيء : أخلق ثم دثر ، فقد عبر البحتريّ عن مصير القصر الذي هو رمز – في لا شعوره – للخلافة ، بأنه دثر ثم أخلق ، وكأنه في أعماقه ومكنون مشاعره يدرك أن الخلافة العباسية بمثل تلك المؤامرات الدموية البشعة قد دثرت ، وذلك ذروة الفناء "(٢) .

٢ – ويقال : دثر مخلقة ، ولا يُقال : أخلق داثره ؛ لأن الداثر لا بقية له فتخلق ..

وهناك رواية أخرى (**أَخلَقَ عامِرُه**) وربما كان ظاهرها أولى بمراد الشاعر ..

ويبدو لي أن (**داثِرُه**) مقصودة للشاعر ؛ لأنه يرى أن بقايا الخلافة العباسية قد انتهت ، ثم إنه عاين كيف كان الترك يعبثون بمقاليد الحكم

(١) المرشد ٢٦٨/١ .
(٢) البحتريّ بين نقاد عصره ص١٥٢ .



والخلافة ، فكيف تكون (**عامِرة**) ؟ إنها (**داثِرة**) ..

تكشف ألفاظ القصيدة عن مدى معاناة البحتريّ .. فالألفاظ تحمل من الأسى والحزن الكثير ..

انظر تعبيره عما اعترى القصر : (**مَحَلٌّ – أَخلَقَ داثِرُه – صُروفُ الدَهرِ – تُغاوِرُه – تَغَيَّرَ – قُوِّضَ – مَقابِرُه – تَحَمَّلَ عَنهُ ساكِنوهُ فُجاءَةً – الأَسى – صِيحَ – هُتِّكَت – عَلى عَجَلٍ – ريعَ – ذُعِرَت**) .

وماضي القصر يعظم الأسى والحزن : (**زَمانٍ ناعِمٍ – تَرِقُّ – يونَقُ – ناضره – أُنسُهُ – يَبهَجُ زائِرُه – طَلْقَةً – بَشاشَتُها – يُشرِقُ زاهِرُه – بَهاءَ – بَهجَة – العَيشُ غَضٌّ مَكاسِرُه**) .

ثم هيبة الخلافة : (**الحِجابُ الصَعبُ – تَمَنَّعَت بِهَيبَتِها – عَميدُ الناسِ – ناهي الدَهرِ فيهِم وَآمِرُه**) .

وسخطه على المتآمرين : (**تَخَفّى – مُغتالُهُ – غِرَّةٍ – لَم يُحتَشَم – حُلومٌ أَضَلَّتها الأَماني – مُغتَصِبٌ لِلقَتلِ – لَم يُحتَشَم أَسبابُهُ وَأَواصِرُه – الأَعادي – القاتِلُ العَجلانُ – وَلِيُّ العَهدِ أَضمَرَ غَدرَةً**) ثم الدعاء على القاتل .

ومعجم الألوان في القصيدة تحمله ألفاظ باعثة على الحسرة والحزن (البيت ٢٥) : الـ (**مَقابِرُ**) وما فيها من ظلمة ، (**دَمًا بِدَمٍ يَجري عَلى الأَرضِ**) وفيه يشعرك أنه يتمنى سفك دم القاتل ، ويتشفى برؤية دمه يجري على الأرض جريانًا .. وفي البيت (٢٦) : يكرر الدم مرتين أيضًا .. كُلّ ذلك دال على أن وقع المصيبة عظيم ، وأنه في غمرة هذا الحدث يتمنى الثأر من القاتل .. أبعد ذلك كُلّه يُقال : إنها لم تنظم إلاّ بعد موت المنتصر ؟!

ويذكر الدم في البيت (٣٠) لكنه يثني على هذا الدم الزكي .. إنه دم الخليفة (**اللَيل سودٌ دَياجِرُه**) (**المَوتُ حُمْرٌ أَظافِرُه**) .

ويرى الدكتور اليظي أن البحتريّ الكلف أشد الكلف باستخدام الألوان لا



يستخدم في هذه القصيدة إلاّ ما يدلّ على السواد المطلق ، فيقول : " **لَيلَةَ جَعفَرٍ** " و" **جُنحُ اللَيلِ** " و" **سودٌ دَياجِرُه** " ، فإذا استثنى واستخدم لونًا آخر كان ذلك اللون الأحمر بدلالته على الدم(١) .

وجاءت الأساليب بين الخبر والإنشاء .. أمّا الخبر فاستغرق معظم القصيدة ؛ إذ إنه في مقام قَصّ لجريمة بشعة .. والاستفهام قليل .. وهو استفهام إنكاري جاء في قوله :

فَأَينَ الحِجابُ الصَعبُ حَيثُ تَمَنَّعَت ∴ بِهَيبَتِها أَبوابُهُ وَمَقاصِرُه
وَأَينَ عَميدُ الناسِ في كُلِّ نَوبَةٍ ∴ تَنوبُ وَناهي الدَهرِ فيهِم وَآمِرُه
وَهَل أَرتَجي أَن يَطلُبَ الدَمَ واتِرٌ ∴ يَدَ الدَهرِ وَالمَوتورُ بِالدَمِ واتِرُه
أَكانَ وَلِيُّ العَهدِ أَضمَرَ غَدرَةً ∴ فَمِن عَجَبٍ أَن وُلِّيَ العَهدَ غادِرُه

ثم الدعاء : وهو واضح ، وغني عن البيان .

البديـــع :

وقد جاء البديع في القصيدة غير متكلف ، كطابع البحتريّ في سائر شعره .. فهو يستخدم البديع استخدامًا طيّعًا سلسًا ، بعيدًا عن الصنعة والتكلف ، ومن ذلك : **(بادي الجَعفَرِيِّ – حاضِرُه)** ، **(دورُهُ – مَقابِرُه)** .

الطباق في : **(تُراوِحُهُ – تُباكِرُه)** ، **(تَحَمَّلَ – عادَت)** ، **(وَحشَتُهُ – أَنيسٌ)** ، **(ناهي الدَهرِ – آمِرُه)** ، **(أَجَدَّ لَنا الأَسى – يَبهَجُ زائِرُه)** ، **(تَخَفّى – يُجاهِرُه)** .

الجناس في : **(تَرِقُّ – يورَقُ)** .

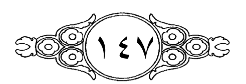
مراعاة النظير في **(وَحش – سِرب – أَطلاؤُهُ وَجَآذِرُه)** .

التصوير :

كعادة البحتريّ في براعته التصويرية ، جاءت هذه القصيدة فيها " تصوير دقيق يكاد يشخص منظر تفرق أهل القصر وذعرهم ، وتمزيق أستار

---

(١) البحتريّ بين نقاد عصره ص١٥٤ .



القصر وبعثرة أثاثه ... "(١) .

والشاعر أحسن في كُلّ لوحاته ومشاهده منذ مطلع القصيدة الذي صور فيه القصر بعد الجريمة قبرًا ، وصوّر الدهر جيشًا اتخذ من القصر هدفًا له .. ثم صورة وفاء ريح الصبا التي جاءت توفي نذورًا .. وصورة القصر وما اعترى سكانه وأطلاءه وجآذره من روع وفزع .. وكذلك انتهاك حرماته والعبث بمحتوياته .

وتصوير مشهد الجريمة وكيف تخفى المغتال .. ويصل ذروة التفوق حين يصف السيوف تتناوشه من كُلّ جانب وكأنها دائنون يطلبون دينهم .. والدين هو نفس المتوكل وروحه .. وفيه يُطلعك على قسوة قلوبهم حيث يَشْهدونه يجود بنفسه في الرمق الأخير فما يكفون عنه .. ولا يرضيهم إلاّ أن تخرج الروح تمامًا من الجسد ..

والصورة مبنية على حقائق وليست تخييلية ، فالحقيقة أبلغ من الخيال في مثل هذا الموقف .

قالوا عن القصيدة

* **قال ثعلب** : " ما قيلت هاشمية أحسن منها ، وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب "(٢) .
* **وقال الدكتور شوقي ضيف** : " واقرأ له رثاءه للمتوكل إذ يقول :

مَحَلٌّ عَلى القاطولِ أَخلَقَ داثِرُه ∴ وَعادَت صُروفُ الدَهرِ جَيشًا تُغاوِرُه

فإنك تحس بالقوة والعنف في هذا الرثاء ؛ إذ اختار البحتري ألفاظه من ذوات الحروف الضخمة ، أو من هذا النوع الذي كانوا يسمونه بالجزل

---

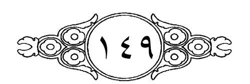
(١) درويش الجندي ص١٨٧ .
(٢) زهر الآداب ١/١٩٥ ، وسامراء في أدب القرن الثّالث الهجري ص١١٨ .



؛ لأنه غاضب ثائر ، وكأنه ينحت الألفاظ نحتًا ليعبر عن هذا الغضب وتلك الثورة التي أعلنها فيما بعد من القصيدة ؛ إذ دعا إلى الانتفاض على من قتلوا المتوكل ، وكان الخليفة الجديد هو الذي دبر هذه المؤامرة ... "(١) .

* **وقال الدكتور البصير** : " إنه يتصرف في القصيدة تصرف الشاعر المثقف ، الذي يعرف كيف يعبر عن مشاعره وانفعالاته ؟ وكيف يصف عظائم الأمور ، وجلائل الأحداث ، وصفًا صادقًا مستفيضًا ؟ وكيف يبتدئ بسرد ما لديه ؟ وكيف يتدرج في ذلك حتى يبلغ قمة بيانه ؟ وكيف ينتهي ... وهكذا ينشئ من مرثيته هذه وحدة بيانية مطردة الأجزاء ، متماسكة الأطراف ، منسجمة كُلّ الانسجام "(٢) .
* **وقال اليظي** : " إن عوامل كثيرة قد تضافرت ، وأدت إلى تسنم البحتريّ ذروة فنية رفيعة في قصيدته تلك .. فهو بالإضافة إلى موهبته الدافقة ، وطبعه الصادق ، كان قد تجاوز منتصف العمر بقليل .. إذ إنه في الثالثة والأربعين من عمره ، موفور التجربة والنضج الفني .. هذا بالإضافة إلى عمق الروابط المعنوية والمادية التي شدته إلى المتوكل ، وإلى عنف التجربة التي تمت بحضرته فانصهر في أتونها ... فكل عوامل التفوق الفني قد اجتمعت للبحتريّ في تلك التجربة ، ومن ثَمّ كان من المحتم أن يبدع وأن يتألق "(٣) .
* **وقال الدكتور الشكعة** : " إن البحتريّ صاغ رثاءه هذا في ثوب من الألفاظ أنيق ، وإطار من الصور رقيق ، بحيث بدت المرثية وكأنها كلام

(١) الفن ومذاهبه ص٧٦ ، ٧٧ .
(٢) في الأدب العباسي ص٢٥٢ ، ٢٥٣ – ط/ ثانية .
(٣) البحتريّ بين نقاد عصره ص٣٥٦ .



مترف ، رغم أن المجال مجال حزن ، والموقف موقف أسى .. ولكن هذه طبيعة البحتريّ في شعره ، وربما عمد الشاعر إلى فخامة التعبير ، وأناقة التصوير ؛ لارتباط صور المرثي في ذهنه وخاطره بالفخامة المتناهية والترف "[1] .

(١) الشِّعْر والشعراء ص٧٣١ .

سينيّة البُحتُري

شاعريّة المكان . المعادل الموضوعي . الرسم بالكلمات

النــــصّ(*)

١ – صُـنتُ نَفسـي عَمّـا يُـدَنِّسُ نفسـي ∴ وَتَرَفَّعـتُ عَـن جَـدا كُـلِّ جِـبسِ[١]

٢ – وَتَماسَـكتُ حـينَ زَعزَعَنـي الدَّهـ ـرُ إلتِماسًـا مِنـهُ لِتَعسـي وَنَكسـي[٢]

٣ – بُلَـغٌ مِـن صُـبابَةِ العَـيشِ عِنـدي ∴ طَفَّفَتهـا الأَيّـامُ تَطفيـفَ بَخـسِ[٣]

٤ – وَبَعيـدٌ مـا بَـينَ وارِدِ رِفْـهٍ ∴ عَلَـلٍ شُـربُهُ وَوارِدِ خِمـسِ[٤]

٥ – وَكَـأَنَّ الزَمـانَ أَصـبَحَ مَحمـو لاً هَـواهُ مَـعَ الأَخَـسِّ الأَخَـسِّ[٥]

(*) ديوان البحتريّ – تح/ حسن كامل الصيرفي – المجلد الثّاني – القصيدة ٤٧٠ ص١١٥٢–١١٦٢ – ط/ دار المعارف ١٩٦٣ ، ومنتقيات أدباء العرب في الأعصر العباسية – بطرس البستاني ص١٣٧–١٤٢ – دار مارون عبود .

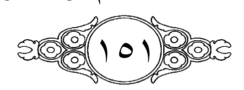
(١) الجدا : العطاء . الجبس : الجبان واللئيم والفاسق والثقيل الروح .

(٢) التعس : أن يخر الإنسان على وجهه ، والنكس : أن يخر على رأسه ، ثم نقلا إلى معنى الهلاك ، وقيل : النكس : سقوط الإنسان كلما نهض ، والنكس – أيضًا – : الإذلال ، ويبدو أنه المراد هنا .

(٣) البلغ : جمع بُلغة وهي ما يتبلغ به في العيش ولا يبقى منه شيء . الصبابة : البقية من المال . طففتها : أنقصتها . البخس : الظلم وهضم الحقوق .

(٤) الرفه : طيب العيش ولينه . ووارد رفه : أي يرد الماء متى شاء . علل : العلل : ورود الماء ثانية بعد الورود الأوّل الذي يُسمّى : النهل . وارد خمس : الخِمس – بكسر الخاء – : ظمء من أظماء الإبل كالربع والسدس ، فهي ضد الرفه والعلل ، وذلك يكون منهم إذا أرادوا سفرًا بعيدًا ، فإنهم يعوّدونها العطش رويدًا رويدًا ، ربعًا فخمسًا فسدسًا ، وبذلك تتمرّن الإبل على تحمّل العطش ، ثم يرمون بها في الفلوات أيامًا وأيامًا .. فالخمس والسدس طريقة من طرائق خديعة الإبل والاحتيال عليها ، ومن هنا المثل (فلان يضرب أخماسًا لأسداس) أي يُري صاحبه أنه يطيعه ، وهو إنما يراوغه ويحتال عليه ، ويغلط الناس في استعمال هذا المثل فيقولون : " أخماسًا في أسداس " وصوابه (لأسداس) ، كما يضربونه مثلاً لمن يفكر في الأمر كي يتبيّن وجه الصواب فيه .. راجع : إيوانية البحتري .

(٥) محمولاً هواه : أي يميل إلى الأخساء فيصافيهم دون الكرام .



٦ – وَاشْتِرائي العِراقَ خُطَّةُ غَبنٍ .·. بَعدَ بَيعي الشَآمَ بَيعَةَ وَكسِ[١]

٧ – لاتَرُزنِي مُزاوِلاً لاختِباري .·. بَعدَ هَذي البَلوى فَتُنكِرَ مَسّي[٢]

٨ – وَقَديمًا عَهِدتَني ذا هَناتٍ .·. آبِياتٍ عَلى الدَنِيّاتِ شُمسِ[٣]

٩ – وَلَقَد رابَني نُبُوّ ابنُ عَمّي .·. بَعدَ لينٍ مِن جانِبَيهِ وَأُنسِ[٤]

١٠ – وَإِذا ماجُفيتُ كُنتُ جَديرًا .·. أَن أُرى غَيرَ مُصبِحٍ حَيثُ أُمسي

١١ – حَضَرَت رَحلِيَ الهُمومُ فَوَجَّهـ .·. ـتُ إِلى أَبيَضِ المَدائِنِ عَنسي[٥]

١٢ – أَتَسَلّى عَنِ الحُظوظِ وَآسى .·. لِمَحَلٍّ مِن آلِ ساسانَ دَرسِ[٦]

١٣ – أَذكَرتِنيهُمُ الخُطوبُ التَوالي .·. وَلَقَد تُذكِرُ الخُطوبُ وَتُنسي

١٤ – وَهُمُ خافِضونَ في ظِلِّ عالٍ .·. مُشرِفٍ يَحسِرُ العُيونَ وَيُخسي[٧]

---

(١) الخطّة : الأرض التي يختطها الإنسان لنفسه لينزل بها . الغبن : الخداع في البيع والشراء . الوكس : النقصان أو الخسارة في المتاجرة .

(٢) لا ترزني : من راز الشيء يروزه أي جربه وقدره واختبره ليعرف ثقله ، وقيل : أي لا تصبني برزء . مزاولاً : محاولاً .. وفي رواية : **(لا تزرني)** قال المحقق : وهو تصحيف ، بينما كتب د/ عبد السلام سرحان بخط يده على نسخة من الديوان (لا تزرني) هي الأصح .

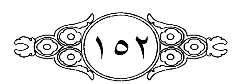
(٣) الهنات : الخصال وتستعمل في الشر والأذى ، لكن الشّاعر استعملها عامة دون تخصيص . شمس : جمع شموس ، وهي العنيدة التي لا تزل أو تخضع .

(٤) رابني : أوقعني في الشك والريب . النبو : الجفوة والنفور والخشونة . وابن عمه : قيل : هو الخليفة المنتصر ، وقيل : هو الراهب عبدون بن مخلد ، وهو من أصل يمني مثله ، وربما أراد بابن العم العرب جميعهم ..

(٥) حضرت : نزلت وطرأت . أبيض المدائن : القصر الأبيض بالمدائن . العَنْس : الناقة القوية .

(٦) آسى : أحزن . آل ساسان : حكام الفرس من الأكاسرة قبل الإسلام . درس : أي مندرس ، وهو ما عفا أثره . والدرس : البالي .

(٧) خافضون : ناعمو العيش مرفهون . في ظل عال : أي قصر شاهق يريد بذلك بلاد فارس بحدودها وما يكتنفها من شواهق الجبال . مشرف : بالغ الارتفاع . يحسر : يرد البصر كليلا . يخسي : يؤذي ويؤلم ، أو يكل ويحسر ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ...يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴾ (الملك : من ٤) .



١٥ – مُغلَـقٍ بابُـهُ عَلـى جَبَـلِ القَبـــ ـــقِ إلـى دارَتَـي خِـلاطَ وَمُكـسِ(١)
١٦ – حِلَـلٌ لَـم تَـكُ كَـأَطلالِ سُـعدى ∴ فـي قِفـارٍ مِـنَ البَسـابِسِ مُلـسِ(٢)
١٧ – وَمَسـاعٍ لَـولا المُحابـاةُ مِنّـي ∴ لَـم تُطِقهـا مَسـعاةُ عَـنسٍ وَعَـبسِ(٣)
١٨ – نَقَـلَ الـدَهرُ عَهـدَهُنَّ عَـنِ الجِـدَّ ةِ حَتّـى رَجَعـنَ أَنضـاءَ لُـبسِ(٤)
١٩ – فَكَـأَنَّ الجِرمـازَ مِـن عَـدَمِ الأُنـــ ـــسِ وَإِخلالِـهِ بَنِيَّـةُ رَمـسِ(٥)
٢٠ – لَـو تَـراهُ عَلِمـتَ أَنَّ اللَيـالي ∴ جَعَلَـت فيـهِ مَأتَمًـا بَعـدَ عُـرسِ
٢١ – وَهـوَ يُنبيـكَ عَـن عَجائِـبِ قَـومٍ ∴ لا يُشـابُ البَيـانُ فـيهِم بِلَـبسِ
٢٢ – وَإِذا مارَأَيـتَ صـورَةَ أَنطـا كِيَّـةَ ارتَعـتَ بَـينَ رومٍ وَفُـرسِ(٦)
٢٣ – وَالمَنايـا مَواثِـلٌ وَأَنوشِـر وانَ يُزجـي الصُفـوفَ تَحـتَ الـدِرَفسِ(٧)

(١) جبل القبق : هو الذي يشرف على الإيوان ، وقيل : هو متصل بباب الإبواب . دارتي : مثنى دارة وهي كُلّ أرض واسعة بين جبال . خلاط ومكس : مدينتان في الشمال في أرض أرمينية .

(٢) حلل : جمع حلة ، وهي الطائفة من بيوت القبيلة . البسابس : جمع البسبس وهو القفر الخالي . ملس : جمع أملس وملساء ، وهي الخالية التي لا نبات فيها .

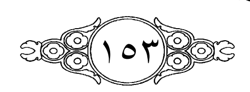
(٣) المساعي : جمع مسعاة ، وهي المكرمة والعمل الجليل . عنس : قبيلة قحطانية من اليمن . عبس : قبيلة عدنانية من نجد .

(٤) الجدة : حالة الشيء الجديد . الأنضاء : جمع نضو وهو المهزول الضعيف من الحيوان ، والبالي من الثياب . اللبس : الاستعمال ، مصدر لبس الثوب ، وقيل : اللبس : الاختلاط والإشكال ، والمعنى على ذلك : غير الدهر حالة هذه الحلل والمساعي ، فأصبحت بعد جدتها هزيلة بالية ، يشكل أمرها على الناظر إليها ، وتلتبس عليه حقيقتها ، فما يكاد يتبيّنها ويعرفها .. من منتقيات أدباء العرب ص١٣٨ .

(٥) الجرماز : قال ياقوت : هو اسم بناء كان عند أبيض المدائن ثم عفا أثره ، وكان عظيمًا . والإخلال : الترك والغياب ، من أخلّ بالمكان إذا غاب عنه وتركه . البنية : الشيء المبنيّ . الرمس : القبر مستويًا مع وجه الأرض ، والأصل فيه التغطية .

(٦) أنطاكية : مدينة في شمال سورية ، على مقربة من مصب نهر العاصي ، وهي الآن من مدن تركيا ، وصورة أنطاكية : صورة لمعركة بين الروم والفرس ، وفيها كسرى أنوشروان يحاصر أنطاكية ويحاصر الروم وقيصرهم .

(٧) مواثل : قائمات شاخصات . أنوشروان : كسرى أنوشروان . يزجى : يسوق . الدرفس : راية الفرس المقدسة ، رمز تحرير بلادهم على يد بطلهم الأسطوري (أفريدون) ، وكانت محلاة بالجواهر .. منتقيات أدباء العرب .



٢٤ – فـي اخضـرارٍ مِـنَ اللِبـاسِ عَلـى أَصـ ـفَرَ يَختـالُ فـي صَـبيغَةِ وَرسِ[١]

٢٥ – وَعِـراكُ الرِجـالِ بَـينَ يَدَيـهِ ∴ فـي خُفـوتٍ مِـنهُم وَإِغمـاضِ جَـرسِ[٢]

٢٦ – مِـن مُشـيحٍ يَهـوى بِعامِـلِ رُمـحٍ ∴ وَمُلـيحٍ مِـنَ السِـنانِ بِتُـرسِ[٣]

٢٧ – تَصِـفُ العَـينُ أَنَّهُـم جِـدُّ أَحيـا ءٍ لَهُـم بَيـنَهُم إِشـارَةُ خُـرسِ[٤]

٢٨ – يَغتَلـي فـيهِم ارْتِيَـابي حَتّـى ∴ تَتَقَـرّاهُمُ يَـدايَ بِلَمـسِ[٥]

٢٩ – قَـد سَـقاني وَلَـم يُصَـرِّد أَبـو الغَـو ثِ عَلـى العَسـكَرَينِ شَـربَةَ خُلـسِ[٦]

٣٠ – مِـن مُـدامٍ تَظُنُّهـا وَهـيَ نَجـمٌ ∴ أَضْـوَأَ اللَيـلَ أَو مُجاجَـةُ شَـمسِ[٧]

٣١ – وَتَراهـا إِذا أَجَـدَّت سُـرورًا ∴ وَارتِياحًـا لِلشـارِبِ المُتَحَسّـي[٨]

٣٢ – أُفرِغَـت فـي الزُجـاجِ مِـن كُـلِّ قَلـبٍ ∴ فَهـيَ مَحبوبَـةٌ إِلـى كُـلِّ نَفـسِ

٣٣ – وَتَوَهَّمـتُ أَنَّ كِسـرى أَبَـرو يـزَ مُعـاطِيَّ وَالبَلَهبَـذَ أُنسـي[٩]

---

(١) يختـال : يتبختـر تكبـرًا . الـورس : نبـات كالسمسـم أصـفر يصـبغ بـه ، وقيـل : صـبغ أحمـر ، والصـفرة والحمـرة فـي ثيـاب كسـرى ، أو قـد يكـون اللبـاس أخضـر ، والأصـفر هو الفرس .

(٢) خفوت : سكون صوت . الجرْس : الصوت الخفي .

(٣) المشيح : المقبل عليك والمانع لما وراء ظهره ، وهو الحذر المجد . عامل الرمح : صدره ، وهو ما يلي السنان دون الثعلب . مليح : خائف حذر ، يُقال : ألاح منه ، أي خاف وحاذر ، وأصله : الخوف من شيء له بريق ، ثم كثر حتى استعمل في كُلّ مخوف . السنان : نصل الرمح . الترس : الدرع الواقي ، وهو صفيحة من الفولاذ مستديرة تحمل للوقاية من السيف ونحوه .

(٤) تصف العين : تتخيل من دقة الصورة .

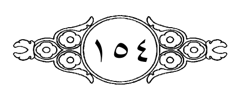
(٥) يغتلي : يعظم ، من الغلو وهو تجاوز الحدّ . تتقراهم : تتبعهم وتتحسَّسهم .

(٦) لم يصرد : لم يقلل . أبو الغوث : ابن الشّاعر . على العسكرين : أي أمام الصورة التي فيها الجيشان . خلس : أي مختلسة سريعة .

(٧) مدام : خمر . المجاجة : الريق ، عصارة كُلّ شيء .

(٨) أجدت : أحدثت . المتحسي : الذي يشرب شيئًا بعد شيء .

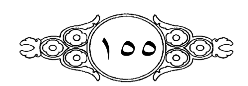
(٩) البلهبذ : مغني كسرى أبرويز . معاطي : أي يعاطيه الشراب ، يعني ينادمه ويشاربه . أنسى : أي يؤنسه بصوته .



٣٤ – حُلُمٌ مُطبِقٌ عَلى الشَّكِّ عَيني .·. أَم أَمانٍ غَيَّرنَ ظَنّي وَحَدسي[(١)]
٣٥ – وَكَأَنَّ الإيوانَ مِن عَجَبِ الصَنـ ـعَةِ جَوبٌ في جَنبِ أَرعَنَ جِلسِ[(٢)]
٣٦ – يُتَظَنّى مِنَ الكَآبَةِ إِذ يَبـ ـدو لِعَينَي مُصَبِّحٍ أَو مُمَسّي[(٣)]
٣٧ – مُزعَجًا بِالفِراقِ عَن أُنسِ إِلفٍ .·. عَزَّ أَو مُرهَقًا بِتَطليقِ عِرسِ[(٤)]
٣٨ – عَكَسَت حَظَّهُ اللَيالي وَباتَ الـ ـمُشتَري فيهِ وَهوَ كَوكَبُ نَحسِ[(٥)]
٣٩ – فَهوَ يُبدي تَجَلُّدًا وَعَلَيهِ .·. كَلكَلٌ مِن كَلاكِلِ الدَهرِ مُرسي[(٦)]
٤٠ – لَم يَعِبهُ أَن بُزَّ مِن بُسُطِ الديـ ـباجِ وَاستُلَّ مِن سُتورِ الدِمَقسِ[(٧)]
٤١ – مُشمَخِرٌّ تَعلو لَهُ شُرُفاتٌ .·. رُفِعَت في رُؤوسِ رَضوى وَقُدسِ[(٨)]
٤٢ – لابِساتٌ مِنَ البَياضِ فَما تُبـ ـصِرُ مِنها إِلّا غَلائِلَ بُرسِ[(٩)]
٤٣ – لَيسَ يُدرى أَصُنعُ إِنسٍ لِجِنٍّ .·. سَكَنوهُ أَم صُنعُ جِنٍّ لِإِنسِ

---

(١) حدسي : توهمي .
(٢) الجوب : من معانيه الترس ، وقد فسر بعض الأدباء هذا البيت بهذا المعنى ، وليس كذلك ؛ لأن الـ (جَوب) مصدر جاب الشيء أي خرقه ، والصخرة أي نقبها ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ (الفجر : ٩) ، فالشاعر هنا يشبه القصر بأنه لضخامته كأنه خرق أو نحت في الجبل . الأرعن : الجبل ذو الرعن ، وهو أنف يتقدم الجبل . الجلس : الجبل العالي .
(٣) يتظنى : يظن .
(٤) العرس : الزوجة .
(٥) المشترى : أحد كواكب المجموعة الشمسية ، وهو عند المنجمين كوكب سعد .
(٦) الكلكل : الصدر ، أو ما بين الترقوتين . مرسى : ثابت .
(٧) بز : سلب . الديباج : الحرير . استل : انتزع وأخرج كما ينتزع السيف من الغمد . الدمقس : الحرير الأبيض .
(٨) مشمخر : طويل عال . شرفات : جمع شرفة وهي ما أشرف من بناء القصر ، قال الأبشيهي : الشراريف تطل على نواحي القصر الأربع ، وطول كُلّ شرافة خمسة عشر ذراعًا . رضوى وقدس : جبلان .
(٩) غلائل : جمع غلالة ، وهي شعار يلبس تحت الثوب . البرس : القطن وما يشبهه .



٤٤ – غَيــرَ أَنّــي أَراهُ يَشــهَدُ أَن لَــم ∴ يَــكُ بانيــهِ فــي المُلــوكِ بِــنِكسِ[١]

٤٥ – فَكَــأَنّي أَرى المَراتِــبَ وَالقَــو مَ إِذا مــا بَلَغــتُ آخِــرَ حِسّــي[٢]

٤٦ – وَكَــأَنَّ الوُفــودَ ضــاحينَ حَســرى ∴ مِــن وُقــوفٍ خَلــفَ الزِحــامِ وَخِــنسِ[٣]

٤٧ – وَكَــأَنَّ القِيــانَ وَســطَ المَقاصيــ ــرِ يُــرَجِّعنَ بَــينَ حُــوٍ وَلُعــسِ[٤]

٤٨ – وَكَــأَنَّ اللِقــاءَ أَوَّلَ مِــن أَمــ ــسِ وَوَشــكَ الفِــراقِ أَوَّلَ أَمــسِ[٥]

٤٩ – وَكَــأَنَّ الَّــذي يُريــدُ إِتِّباعًــا ∴ طــامِعٌ فــي لُحــوقِهِم صُــبحَ خَمــسِ[٦]

٥٠ – عُمِّــرَت لِلسُــرورِ دَهــرًا فَصــارَت ∴ لِلتَعَــزّي رِبــاعُهُم وَالتَأَسّــي[٧]

٥١ – فَلَهــا أَن أُعينَهــا بِــدُموعٍ ∴ موقَفــاتٍ عَلــى الصَــبابَةِ حُــبسِ[٨]

٥٢ – ذاكَ عِنــدي وَلَيسَــت الــدارُ داري ∴ بِــاقتِرابٍ مِنهــا وَلا الجِــنسُ جِنســي

٥٣ – غَيــرَ نُعمــى لِأَهلِهــا عِنــدَ أَهلــي ∴ غَرَســوا مِــن زَكائِهــا خَيــرَ غَــرسِ[٩]

---

(١) النكس : الضعيف الدنيء .
(٢) المراتب : أصحاب المنزلة والمكانة الرفيعة من خلصاء كسرى ، وكبار رجال الدولة .
(٣) ضاحين : بارزين للشمس ، وقد كتب د/ عبد السلام سرحان تصحيحًا على إحدى النسخ ، نصّه : الصواب ضاحَيْن ، أي أتت في الضحى . حسرى : جمع حسير وهو المتلهف المعيي ، وقد يكون المعنى : كاشفي رءوسهم . وخنس : متأخرين .
(٤) القيان : الإماء المغنيات ، واحدتهن : قينة ، قيل : وتشمل غير المغنية . المقاصير : جمع المقصورة ، وهي الدار الواسعة المحصنة ، والحجرة من حجر الدار ، والمقصورات من النساء : اللائي لا يفارقن بيوتهن ، فهن مخدومات . الحو : جمع حواء وهي التي تميل شفتاها إلى السواد ، وربما عيناها . لعس : جمع لعساء ، وهي الجارية التي بشفتيها سواد يستحسن .
(٥) وفي ضبط (أَوَّل) رأيان : ففي الديوان بالضم ، وفي المنتقيات وبتصحيح د/ سرحان بخط يده بالنصب ، قال : هو الصواب في الشطرين .
(٦) الذي يريد اتباعًا : أي يريد اللحاق بهم وإدراكهم . صبح خمس : أي خمس ليال .
(٧) رباعهم : دورهم ، محلاتهم ، منازلهم . للتأسي : للحزن .
(٨) الصبابة : الشوق وحرارته .
(٩) الزكاء : النمو .



٥٤ – أَيَّـــدوا مُلكَنـــا وَشَـــدّوا قُـــواهُ ∴ بِكُمـــاةٍ تَحـــتَ السَـــنَّورِ حُمـــسِ(١)

٥٥ – وَأَعـــانوا عَلـــى كَتائِـــبِ أَريـــا طَ بِطَعـــنٍ عَلـــى النُحـــورِ وَدَعـــسِ(٢)

٥٦ – وَأَرانـــي مِـــن بَعـــدُ أَكلَـــفُ بِالأَشـــ ـــرافِ طُـــرًّا مِـــن كُـــلِّ سِـــنخٍ وَأُسِّ(٣)

التحليـــــل

المطلـــع :

مطلع القصيدة – أيّة قصيدة – مفتاح للدخول إلى عالم الشّاعر ، والولوج إلى فضائه الخاص .. ف " الشِّعْر قُفل أوّله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يجوّد ابتداء شعره ؛ فإنه أوّل ما يقرع السمع ، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة "(٤) .

ومطلع السينية يكشف – إلى حدّ كبير – للمتلقي عن الحالة النفسية السيئة التي كان يعيشها البحتريّ وقت إنشاء قصيدته ، ويُغْنِي المطلع المتلقي عن بذل جهد في سبيل التعرف على الظروف والملابسات التي وُلدت فيها القصيدة .

فمن خلال المطلع يكتشف المتلقي سوء العصر ، وفساد الحياة ، والانحلال الخلقي ، حتى بلغ من سوئه أن يتآمر الابن على أبيه(٥) ...

لقد " حشد الشّاعر كُلّ خواطره ولخّصها في البيت الأوّل من المطلع ،

---

(١) الكماة : جمع الكمي ، وهو الشجاع ، أو لابس السلاح ؛ لأنه يكمي نفسه أي يسترها بالدرع والبيضة . السنور : كُلّ سلاح من حديد ، أو هو الدروع ، أو نوع منها . حمس : شجعان .

(٢) أرياط : القائد الحبشي الذي غزا اليمن . الدعس : الدوس والطعن .

(٣) السنخ : الأصل والمنبت . والأس : أصل البناء وأساسه ، وهي بالتثليث .

(٤) العمدة ٢١٨/١ – تح/ مُحمّد محيي الدِّين عبد الحميد – ط/ دار الجيل – بيروت .

(٥) راجع حديثنا عن ذلك في : فلسفة القوة في شعر أبي تمام (القصيدة السابقة) .



وخلاصة الموقف أنه وجد نفسه أمام أمرين ليس في الحياة أسوأ من اجتماعهما ، وهما : الهوان ، والحاجة ، ومظهر هذا السوء أن الهوان يدفعه إلى مزاولة ما يزري بمروءته وخلقه ؛ لأنه لا يملك العزة التي تحفظ عليه المروءة والخلق ، وأن الحاجة تدفعه إلى استجداء اللئام ؛ لأنه لم يجد وسيلة أخرى ، وكانت هذه أصداء الواقع ، فالواقع المشاهد قد يعرفه الناس ، ولكنهم لا يعرفون صداه في النفس ، فهو يحدثنا عن الصدى ... كُلّ هذه الخواطر والمشاعر استطاع البحتريّ أن يحشدها في البيت الأوّل ... "[1] .

١ – **صُنتُ نَفسي عَمّا يُدَنِّسُ نَفسي ∴ وَتَرَفَّعتُ عَن جَدا كُلِّ جِبسِ**

تأمل قوله : " **صُنتُ نَفسي** " تشعر أن هناك قوى تمسك بهذه النفس ، تحاول التردي بها ، والنزول إلى مهاوى الدّنس ، ومساوئ الرذيلة .

وأن هناك – في المقابل – جهدًا موازيًا يُبذل لانتزاع هذه النفس من أيدي هذه العصابة ... وكأن هناك فريقين يتنازعان تلك النفس ، وكلاهما يبذل أقصى ما في وسعه لتحقيق غايته .. هم يريدون لها النزول إلى القاع – قاع الرذيلة والدّنس – ، وهو يستعصي عليهم ويريد أن تظل النفس في قمة عالية شامخة .

وقد حاول العابثون المفسدون بكُلّ طريق ، فنصبوا له شراكًا خطيرًا ، وهو (الدينار والدرهم) الذي عبر عنه بالـ **(جَدا)** ، لكنه نجا وأفلت ، ولم يجرفه التيار ، وما أدراك ما بريق الدينار والدرهم !!

وبذلك ظل مترفعًا ، لم يذل نفسه .. وقد عبر عن ذلك كُلّه بـ **(صُنتُ نَفسي)** و **(تَرَفَّعتُ عَن)** وأكد هذا الاستعلاء عن طريق ضمير المتكلم الذي تكرر أربع مرّات ، وعن طريق تكرار **(نَفسي)** ، هذا التكرار الذي

(١) مطلع القصيدة العربيّة ودلالته النفسية ص٢٥٥ .



يكشف عن الاعتزاز الشديد والأنفة والتأبي ..

٢ – **وَتَماسَكتُ حينَ زَعزَعَني الدَهـ ـرُ التِماسًا مِنهُ لِتَعسي وَنَكسي**

وهنا يكشف لك عن مدى الجهد المبذول من الطرفين : الطرف الآخر هو الدهر الذي أصبح فارغًا من كُلّ شيء إلاّ البحتريّ ، فصار همَّه الأوّل وهَدَفَه الأوحد .. ماذا يريد منه ؟ يريد أن يُتعسه ويُنكسه ..

والبحتريّ – رغم أن الدهر هو خصمه ، والأرض كأنها تتزلزل تحت قدميه – يتماسك .. ولكن الدهر كانت له وسائله ؛ لأنه مُصرّ على تحقيق هدفه :

٣ – **بُلَغٌ مِن صُبابَةِ العَيشِ عِندي ∴ طَفَّفَتها الأَيّامُ تَطفيفَ بَخسِ**

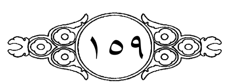
يحدثك عن سوء حالته الاقتصادية ، لقد افتقر ، وما أدراك ما الفقر ؟! إنه قرين الكفر ، استعاذ منهما معًا نبينا الكريم ﷺ : « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ** » ، وقال أحد الصحابة : " لو دخل الفقر بلدًا لقال له الكفر : خذني معك " ، وقالوا : صوت المعدة أقوى من صوت الضمير " ... إلخ[1] .

هذا الفقر يذوق مرارته مَن عرف حياة الغنى والعيش الرفه ، ثم استحالت به الحياة ، وتقلب به الزمان :

٤ – **وَبَعيدٌ ما بَينَ وارِدِ رِفْهٍ ∴ عَلَلٍ شُربُهُ وَوارِدِ خِمسِ**

لقد عرف البحتريّ كلتا الحياتين : الأولى في الماضي السعيد زمن المتوكل ، وهاهو يعيش الثّانية البائسة .. والفرق بينهما هائل .. الأوّل : يملك كُلّ مقومات النعيم وأسباب السعادة ، والثاني : يشبع يومًا ويجوع يومًا .. وقد استعان الشّاعر بصورة بدوية لبيان حاليه ، فقارن بين : إبل ترد الماء

(١) راجع ما كتبناه عن ذلك في كتابنا : تمرد طرفة .



وقتما تشاء وحينما تريد ، وأخرى لا ترد إلاّ كُلّ خمسة أيام .. الأولى مرفّهة منعمة ، والثانية في صدى دائم ، وحرمان متجدد ، فهي في حالة يرثى لها ، تمامًا مثل البحتريّ .

٥ – **وَكَأَنَّ الزَمانَ أَصبَحَ مَحمو ... لاً هَواهُ مَعَ الأَخَسِّ الأَخَسِّ**

إنه يرى أن الدهر يحابي الأنذال الأخساء ، بينما يخاصم الأباة الشرفاء ، فيقتر لهم العيش .. وقد تردد هذا المعنى كثيرًا على ألسنة الشعراء ، فهذا أستاذه أبو تمام يقول(١) :

يَنالُ الفَتى مِن عَيشِهِ وَهوَ جاهِلٌ ∴ وَيُكْدى الفَتى في دَهرِهِ وَهوَ عالِمُ
وَلَو كانَتِ الأرزاقُ تَجري عَلى الحِجا ∴ هَلَكنَ إذَن مِن جَهلِهِنَّ البَهائِمُ

ومن المشهور قول الشّاعر :

تَموتُ الأُسدُ في الغاباتِ جوعًا ∴ وَلَحمُ الضَأنِ تَأكُلُهُ الكِلابُ

ولاحظ تكرير البحتريّ وإلحاحه على إسناد ما نزل به إلى الزمان ، تارة بلفظ (**الدَهر**) وثانية بـ (**الأيّام**) وثالثة بـ (**الزَمان**) .

وعبر بـ (**الأيّام**) عند الحديث عن التطفيف ، وفيه دقة ، فكأن هذا التطفيف يزيد يومًا بعد يوم ، وبمرور الأيام وصلت حاله إلى الفقر المدقع .

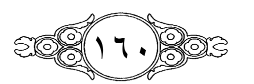
وفي رواية : (**... أصبح مخمولاً**) ، وفي ثالثة – رجحها عبدالقادر المغربي – : (**مخبولاً**) قال : وهو الصواب ، كأنه أصيب بفساد في عقله ، وأصبح كالمجنون ، لا يدري وجه الصواب في معالجة الشئون .. ومع طرافة المعنى إلاّ أن (**محمولاً**) أكثر قبولاً .

٦ – **وَاشتِرائي العِراقَ خُطَّةُ غَبنٍ ∴ بَعدَ بَيعي الشَآمَ بَيعَةَ وَكسِ**

يعود الشّاعر بذاكرته إلى الماضي ، يوم خرج من داره ، وترك موطنه (الشام) واشترى العراق .. فيندم على الصفقتين ، فلا هو ربح في البيع ، ولا

---

(١) الديوان ١٧٨/٣ .



في الشراء .. وإنها لمرارة يشعر بها البحتريّ .

٧ – **لاتَرُزنـــي مُـــزاوِلاً لاختِبـــاري ∴ بَعــدَ هَــذي البَلــوى فَتُنكِــرَ مَسّــي**

٨ – **وَقَـــديمًا عَهِـــدتَني ذا هَنـــاتٍ ∴ آبِيــاتٍ عَلــى الــدَنِيّاتِ شُــمسِ**

إن صرخة الغربة ، وألم الوحدة واضحان هنا ، فلقد أحس البحتريّ بالغربة ، وهو يعرف أن الغريب يكون مطمعًا للأنذال اللئام ، وما أكثرهم في زمانه !! لاسيما أنه لا ظهير له ، فلقد تخلّى عنه الجميع ، وأصبح كالأسد الجريح في غابة لا تعرف للجرحى مكانًا فيها .. إن أحدًا لن يرحمه أو يأسى لحاله من باب « **ارْحَمُوا عَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ** » .. ومن ثَمّ رفع صوت التحذير والتهديد لكُلّ مَن يحاول انتقاصه أو الإزراء منه ، من أولئك الذين كانوا يتربصون به الدوائر ، قائلاً : إياك أيها الشامت اختباري لتتعرف مدى قدرتي وجلدي في هذه المحنة ، فلست ممن يضعفون أو ينهارون أمام المحن مهما كانت قوتها ، وإنك إذا حاولت فإنك سترى مني ما تكره .. فدعني وشأني ، فأنا الجلد القوي الذي لا يتخاذل أو يتهاون ، ولقد جبلت على الإباء والشموس والتحدّي .

ابن العـــم :

٩ – **وَلَقَـــد رابَنـــي ابـــنُ عَمّـــي ∴ بَعــدَ لــينٍ مِــن جانِبَيــهِ وَأُنــسِ**

١٠ – **وَإِذا ماجُفيـــتُ كُنـــتُ جَـــديرًا ∴ أَن أُرى غَيــرَ مُصــبِحٍ حَيــثُ أُمســي**

لقد تنكر كُلّ الناس للبحتريّ ، الأقارب والأباعد ، بعد معاملة طيبة ، ولكن **من ابنُ العم هذا ؟**

١ – ربما كان ابن العم هو **الخليفة** ، الذي تنكر للبحتريّ ، بعد معاملة طيبة ، ولين جانب .. وربما كان البحتريّ موازنًا بين مكانته أيام الخليفة المتوكل – الذي كان ينادمه ويجالسه ، حتى إنه يوم قتل كان في منادمة معه – ، وبين مكانه عند الخلفاء من بعد ...

٢ – أن ابن العم هم **العرب كُلّهم** ، أصحاب الحق الأصلاء ، الذين تخلوا عن كُلّ شيء للفرس والترك ، واكتفوا بدور المُشاهد ، الذي يرقب الصراع بين هؤلاء وأولئك من بعيد ، وأن يصفقوا لهؤلاء تارة ، وينحازوا لأولئك تارة أخرى [وهكذا العرب في كُلّ وقت وحين] .

٣ – قيل : إن ابن العم هو **(عبدون بن مخلد)** الذي كان وزيرًا ، وقد أسلم أخوه (صاعد بن مخلد) وظل (عبدون) على دينه .. وقد مدحه البحتريّ أكثر من مرّة .. ويبدو أنه قد حدث بينهما جفوة ، فانقطع عطاء عبدون للبحتريّ .. ووقعت به الأزمة المالية التي صرّح بها في الأبيات السابقة[1] .

وربما أشار إلى هذه كُلّها ، فضاق ذرعًا بالناس طرًّا ، الحاكم والمحكوم، والأقارب والأباعد ...

والبحتريّ لا يرضى أن يعيش في مكان يُجفى فيه ، ويُضيّق عليه ، وهذا سمت الأباة ، الأعزة ، قال المتنبي[2] :

وَلا أمسي لِأهلِ البُخلِ ضَيفًا ∴ وَلَيسَ قِرىً سِوى مُخِّ النِعامِ
وَآنَفُ مِن أَخي لِأَبي وَأُمّي ∴ إذا ما لَم أَجِدهُ مِنَ الكِرامِ

وقبلهما قال الأخطل :

إنـي أديمُ لذي الصفاء مودّتي ∴ وإذا تغَيّر كنتُ ذا ألوان
وأصُدُّ عن صُرْم الصديق تكرّمًا ∴ حينًا وما دهري له بهوان

وقال كعب :

إذا ما خَليلٌ لَم يَصِلكَ فَلا تُقِم ∴ بِتَلعَتِهِ وَاعمَد لِآخَرَ واصِلِ

ولذا بدأ يعزم أمره ، ويحزم حقائبه ، استعدادًا للرحيل .

---

(١) راجع : الشِّعْر العباسي ص٣٥٦-٣٥٨ – د/ أبو الأنوار .
(٢) راجع : تحليلنا لميمية المتنبي في وصف الحمى .



الرحيل إلى أبيض المدائن :

١١ – حَضَـرَت رَحلِـيَ الهُمـومُ فَوَجَّهـ ـتُ إلـى أَبـيَضِ المَـدائِنِ عَنسـي

١٢ – أَتَسَـلّى عَـنِ الحُظـوظِ وَآسـى ∴ لِمَحَـلٍّ مِـن آلِ ساسـانَ دَرسِ

١٣ – أَذكَـرتِنيهُمُ الخُطـوبُ التَـوالي ∴ وَلَقَـد تُـذكِرُ الخُطـوبُ وَتُنسـي

على عادة القدماء حين كانوا يصرمون همومهم على نوقهم في الصحراء ، فعل البحتريّ ، ولكنه وجه ناقته إلى (أَبيَضِ المَدائِنِ) .. لماذا ؟

لماذا آثر البحتريّ المدائن وبلاد فارس على ما عداها ؟ وإذا كان الهدف مجرد التسلي برؤية آثار أمة من الأمم فلِمَ لم يذهب إلى بابل ، أو إلى آشور ، أو مصر ؟

* يرى بعض الدارسين[١] أن " الصلة بين العرب والفرس في العصر الإسلامي كانت من القوة والأصالة ، بحيث جعلتهم أمة واحدة ، هي الأمة الإسلاميّة ، وقد أقبل الفرس على تعلم اللّغة العربيّة ، ودخلوا في الإسلام ، وشاركوا العرب في الحكم والسلطان ، وخرج منهم العلماء والأدباء والشعراء ، وامتزجوا بالشعب العربيّ امتزاجًا كاملاً ، قلّ أن نجد له مثيلاً بين شعبين آخرين " .
* " كذلك عرف العرب تاريخ الفرس ، بما فيه من أمجاد وبطولة وسياسة وكياسة من الكتب البهلوية التي ترجمت إلى العربيّة " .
* " كما كان لزواج العرب من فارسيات ، وإقبالهم عليهن ما أضفى على الجيل الناشئ الاعتزاز بالفرس اعتزازهم بالعرب .. كُلّ ذلك قوّى الصلات بين العرب والفرس ، وأحدث الاتحاد الفكري ، والاندماج الروحي ... " .

---

(١) إيوان المدائن بين البحتريّ والخاقاني ص٧ ، ٨ " بإيجاز " .

* أضف إلى ذلك أن الفرس هم خصوم الترك ، يتنازعان أمور الدولة ، ومقاليد الحكم ، وكان الترك هم (بدو الأعاجم) ، بينما الفرس أصحاب الحضارة والمدنية .. والترك الذين اغتالوا الخليفة المتوكل ، واغتالوا معه المجد الأدبي والمكانة المرموقة للبحتريّ .. فكأن البحتريّ حين يذهب إلى آثار الفرس دون ما عداها " يحتجّ احتجاجًا مستورًا ضد الأتراك ، الذين غلبوا على أمور الدولة ، وأمسكوا بزمامها ، وأصبح لهم الحول والطول ، وتعصبوا ضد العرب أصحاب الحق الأصلاء ، ومن أجل ذلك عُدّت القصيدة تنفيسًا عمّا تموج به نفس البحتريّ ، وإعلانًا عن رأي يميل إلى الفرس ، وينحرف عن الأتراك الذين لن يُنسى لهم دورهم الذي أوْدى بالمتوكل ... "[1] .
* قيل : إن أحد أثرياء الفرس وأصحاب النفوذ في البلاط العباسي هو الذي حفزه إلى مدح الفرس ، بدليل قوله يمدح (ابن ثوابة) أحد رجال البلاط الفارسيين قائلاً :

قَد مَدَحنا إيوانَ كِسرى وَجِئنا ∴ نَستَثِيبُ النُعمى مِن ابنِ ثُوابَه

وقوله يمدح عبدون بن مخلد[2] :

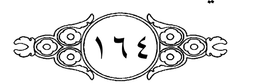
زَورَةٌ قَيّضَت لِإيوانِ كِسرى ∴ لَم يُرِدها كِسرى وَلا إيوانُه

ونحن نستبعد ذلك ، فكيف يترفع عن **(جَدا كُلِّ جِبسِ)** ثم يذل نفسه للفرس ؟! وإذا كان في صغره طامعًا في مال فلقد زهد فيه وهو ابن السبعين .

* البحتريّ يصرح في آخر القصيدة بالأسباب التي حفزته للذهاب إلى بلاد فارس – كما سيأتي – ..

---

(١) ظهر الإسلام – أحمد أمين ، والخيال الشِّعْريّ في شعر الوصف عند البحتريّ ص١١٦ .
(٢) إيوان كسرى بين البحتريّ والخاقاني ص٢٧ .



* كان البحتريّ يبحث عن معادل موضوعي يتشابه معه ، كان عزيزًا شامخًا ، ونجمًا متألقًا ساطعًا ، فأفل نجمه ، وسحب البساط من تحت قدمه .. كان يُشار إليه بالبنان ، فأصبح يجر عليه ذيل النسيان .. أصبح البحتريّ ومعادله الموضوعي في خبر كان .. فأي معادل هذا الذي يتناسب والبحتريّ . إنه الإيوان ...

ذهب إليه البحتريّ ليعزّي نفسه ويسليها عمّا حدث له ونزل به ، وليظهر الأسى والحزن لما آل إليه أمره – هو ومعادله معًا – .

ويبدو أنه ظل يفكر في هذا التقلب والتحوّل ، ويستعرض ما نزل من مصائب بالأمم وبه .. فوجد أن مصيبته من جنس مصيبة إيوان كسرى ..

فما حال الفرس في الماضي ؟

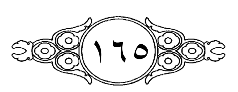
١٤ – وَهُمُ خافِضونَ في ظِلِّ عالٍ ∴ مُشرِفٍ يَحسِرُ العُيونَ وَيُخسي
١٥ – مُغلَقٍ بابُهُ عَلى جَبَلِ القَبـ ـقِ إِلى دارَتَي خِلاطَ وَمُكسِ
١٦ – حِلَلٌ لَم تَكُ كَأَطلالِ سُعدى ∴ في قِفارٍ مِنَ البَسابِسِ مُلسِ
١٧ – وَمَساعٍ لَولا المُحاباةُ مِنّي ∴ لَم تُطِقها مَسعاةُ عَنسٍ وَعَبسِ

لقد كانوا يعيشون حياة ناعمة رغدة ، كُلّ شيء متاح لهم ، وميسور أمامهم ، إنه العيش الخفيض ، الذي يدنو لهم فيه كُلّ بعيد ، ويسهل لهم كُلّ صعب[1] .

بينما القصر عال ، شامخ ، يناطح الجبال .. ويبدو أنه كان مكتنفًا بالجبال الممتدة التي صارت له حصنًا منيعًا يصعب اختراقه .. وهو بديع في

---

(١) ذهب د/ أبو الأنوار إلى أن معنى (**خافِضونَ**) : أي أصبحوا خافضي رءوسهم في ظل ملك عال رفيع العماد .. الشِّعْر العباسي ص٣٥٩ .. ونحن نخالفه في ذلك ، إذ فيه ذلة وانكسار ، ولكن الذي ذهبنا إليه يتناسب وعظمة القوم ، فالمقصود : العيش الخفيض ... .



ذلك ، حتى إن عوام الناس عدّوه من صنع الجن لا الإنس .

ويبدو تأثر البحتريّ بالقرآن الكريم في *قوله تعالى* : ﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴾ (الملك : ٤) .

ولست أدري لماذا أميل إلى أن أقرأ **(مُغلِقٍ)** – بكسر اللام – إذ يبدو لي أن كونه اسم فاعل ، يتأتى منه الإغلاق والفتح ، أفضل من كونه اسم مفعول يقع عليه الفعل ، فكونه اسم فاعل يتناسب مع مكانته كقصر تصدر منه الأوامر والنواهي في إحدى دولتين عظميين آنذاك .

شُبْهَة شعوبية :

ونشتم رائحة الشعوبية في البيت السادس عشر ، ولو لم يكن البحتريّ قائله لرمي بالشعوبية ، تلك التي كانت تقوم على الموازنة بين ماضي العرب وماضي الفرس ، بين تخلف البدو وتقدم الفرس ، وقد بلغ بشار وأبو نواس في ذلك شأوًا بعيدًا .

ولكن البحتريّ يستدرك في البيت التالي ، ويقرر حقيقة عظمة القوم حيث تشهد مبانيهم بذلك :

إنَّ البِنــــاءَ إذا تَعــــاظَمَ قَــــدرُهُ ∴ أَضــحى يَـدُلُّ عَلــى مقــام البــاني

فـ " من تأمل في إيوان كسرى آنس فيه مساعي فارسية مجيدة ، ثم قال : ولولا التساهل والتسامح لقلت إن قبائل قومي العرب كعنس وعبس لا تطيق أمثال تلك المساعي والأعمال .. ففي البيت إيجاز يكاد يخلّ بالمعنى ، تقديره أو تقويمه أن يُقال هكذا : وللفرس مساع ، لولا حبي لقومي لقلت إنه لم تطقها مسعاة قبائلهم ، لكنني لا أقول ذلك محاباة لقومي " .

" على أن البحتريّ إذا لم يقل ذلك صراحة فقد قاله ضمنًا أو تعريضًا ، بحيث يوقع في نفس السامع أن الفرس يأتون من أعمال المجد بما لا تطيقه العرب ، ففي البيت رائحة خبيثة من الشعوبية ، إلاّ أن يكون المعنى هكذا:

" للفرس مساع لولا محاباتي لهم – أي للفرس – لقلت : إن قومي العرب لا يطيقونها ، لكن محاباتي للفرس جعلتني أقول : إنهم يطيقونها .. لكن المعنى غير صحيح ، والأوّل هو الصواب .. ولعل البحتريّ تأثم من تهمة الشعوبية فاضطرب ولم يعرف كيف يقول "(١) .

بيد إننا إذا اعتبرنا أن ابن عمه يقصد به (العرب كُلّهم) – كما أسلفنا – فإننا نستطيع أن نقول بكُلّ يسر : إنه ضائق ذرعًا بالعرب كُلّ العرب ، قديمهم وحديثهم ، راعيهم ورعيتهم ، ومن ثَمّ كان سخطه في ذلك البيت عليهم ، وربما كان له عذره .

القصر قبر بفعل الدهر :

١٨ – **نَقَلَ الدَهرُ عَهدَهُنَّ عَنِ الجِدَّ ةِ حَتّى رَجَعنَ أَنضاءَ لُبسِ**

١٩ – **فَكَأَنَّ الجِرمازَ مِن عَدَمِ الأُنـ ـسِ وَإِخلالِهِ بَنِيَّةُ رَمسِ**

٢٠ – **لَو تَراهُ عَلِمتَ أَنَّ اللَيالي ∴ جَعَلَت فيهِ مَأتَمًا بَعدَ عُرسِ**

٢١ – **وَهوَ يُنبيكَ عَن عَجائِبِ قَومٍ ∴ لا يُشابُ البَيانُ فيهِم بِلَبسِ**

كُلّ هذه العظمة ، والأبهة ، والرفاهية ... التي كانت في الأبيات الماضية استحالت إلى أضدادها بفعل الدهر ، الذي قلب الجديد خلقًا رثًّا باليًا ، وصار القصر قبرًا إذ خلا من الإنس ، وخلعت عليه الليالي من ثيابها المظلمة ، فتحول بعد الفرح والسرور إلى مأتم وحزن ..

كُلّ ذلك بفعل الدهر الذي عبّر عنه هناك في حديثه عن نفسه وخصومة الدهر له بـ (**الدَهر – الزَمان – الأَيّام**) .. وهنا بـ (**الدَهر – اللَيالي**) ..

ولقد وقع عليهما معًا من الدهر ما قلب حاليهما ، وأدال دولتيهما ، ولا غرو ، فهو معادله الموضوعي .

---

(١) إيوانية البحتريّ – عبد القادر المغربي – الجزء الأوّل .



ورغم ذلك فعظمة البناء لا تزال موجودة ، شاهدة بعظمة القوم وحضارتهم ، وتقدمهم في الفن المعماري .

والبحتريّ في حديثه عن (**الجِرماز**) هنا " لا يكتفي بنقل الظاهرة ، بل يحاول أن يستقرئ المعنى الذي يختبئ وراءها ، فالجرماز لم يعد جرمازًا ، بل معنى أو رمزًا ينبغي للشاعر أن ينفذ إلى قلبه ، لقد رآه وهو متهدم ، فاستدرك معناه ، وغشيه بالشعور الإنساني فتراءى له أن ثمة مأتمًا غير منظور ، ينوح ويعول خلال تلك الأعمدة .. إن المأتم بالإضافة إلى العرس شيئان تجريديان ، لا يبصران بالعين المجردة ، وإنما يتراءيان في الخيال أو يفترضان في الذهن ، وهذا الأمر هو مظهر من مظاهر الوجدانية التي ابتعد بها البحتريّ عن النسخ في الوصف النقلي "(١) .

تجلّي ظاهرة الرسم بالكلمات :

٢٢ – وَإذا مارَأَيتَ صورَةَ أَنطا	كِيَّةَ إرتَعتَ بَينَ رومٍ وَفُرسِ
٢٣ – وَالمَنايا مَواثِلٌ وَأَنوشَر	وانَ يُزجِي الصُفوفَ تَحتَ الدِرَفسِ
٢٤ – في اخضِرارٍ مِنَ اللِباسِ عَلى أَصـ	ـفَرَ يَختالُ في صَبيغَةِ وَرسِ
٢٥ – وَعِراكُ الرِجالِ بَينَ يَدَيهِ ∴	في خُفوتٍ مِنهُم وَإِغماضِ جَرسِ
٢٦ – مِن مُشيحٍ يَهوى بِعامِلِ رُمحٍ ∴	وَمُليحٍ مِنَ السِنانِ بِتُرسِ
٢٧ – تَصِفُ العَينُ أَنَّهُم جِدُّ أَحيا	ءٍ لَهُم بَينَهُم إِشارَةُ خُرسِ
٢٨ – يَغتَلي فيهِم ارتِيابي حَتّى ∴	تَتَقَرّاهُمُ يَدايَ بِلَمسِ

هذه صورة (**أَنطاكِيَّةَ**) ، معركة حربية بين الفرس والروم ، رسمها فنان ماهر ، فافتن في رسمها ، وأبدع في صنعها ، بحيث يقع الفزع والرعب فيمن يراها ، حيث يتوهم أن قدميه ساقتاه إلى ميدان حرب حقيقية ، لا ناقة

(١) فن الوصف ص١٧٤ – إيليا الحاوي .



له فيها ولا جمل .. إنه واقف بين جيشي دولتين عظميين ، الفرس والروم .

(وَالمَنايا) – كذلك – واقفة ، شاخصة ، مترقبة .. وكسرى أنوشروان يعطي الأوامر لجنده ، ويحدد لكُلّ قائد مهمته ، ويوجّه ، ويسوق الجند تحت العلم الكبير .. وهو يلبس – وجنده – الزي العسكري ذا اللون الأخضر .. وربما كان متداخلاً معه لون أصفر .. أو أن الصفرة هي لون الفرس .. وصبيغة الورس قد يكون " المراد بها (الميثرة) ، وفي الحديث الشريف : " نَهَى رسول الله ﷺ عَنْ مِيثَرَةِ الأُرْجُوَانِ " ، قال ابن الأثير : " هي مراكب العجم ، تعمل من حرير أو ديباج ، وتُحشى بقطن أو صوف ، وتكون كالفراش الصغير ، يجعلها الراكب تحته فوق سرج الفرس ، أو فوق رحل البعير .. نهى عنها النّبيّ ﷺ لأنها من مراكب الأعاجم ، ولأن لونها الأحمر فيه شهرة تبعث على العُجب والخيلاء "(١) .

المعركة حية ، دائرة رحاها الآن .. ولكن ليس هناك صوت مسموع ، وذلك لأن الجند في حضرة كسرى ، ولذا استعاضوا عن الكلام بلغة الإشارة ، إنهم أحياء يتحركون ، منهم **المُدافع** الذي يتقي ضربات أعدائه ، فيُحكم (الترس) أي الدرع الواقي على جسده من السيوف والسهام والرماح .. ومنهم **المُهاجم** الذي يصوب رمحه تجاه هدف جديد ..

هم إذًا أحياء ، بل أحياء جِدًّا ، هكذا أنبأت العينان .. أمّا الأُذنان فقد قنعتا بأن انعدام الصوت إنما هو احترام لكسرى .

ويزداد شك الشّاعر أمام صورة المعركة .. أهي معركة حيّة ، أم أنها صورة تجلّت فيها براعة الرسام ؟ فلتتعاون الحاسة الثّالثة ،

(١) إيوانية البحتريّ – عبد القادر المغربي .



وهي اللمس باليدين ، وحينئذ يكون الخبر اليقين .. ولكن ليس مجرد اللمس كافيًا ، وإنما متابعته ..

وهكذا أبرز البحتريّ براعة الرسام .. ولم يكن هو أقل براعة من الرسام ، بل فاقه ، فرسم بالكلمات تلك المعركة ، ووصفها وصفًا عظيمًا رائعًا ، خلّد فيه المعركة وأبطالها من خلال الكلمات .. وقد " استخرج أثمن ما في منجمه من عروق الذهب ، وأقصى ما في لغته من طاقة على التصوير والأداء ليبعث لنا أرواح كسرى والفرس والروم ، فتحرك تلك الرسوم على صفحات الجدران ، وتضجّ بالمعركة مرة أخرى ، وهو معجب وقادر على أن يستخدم اللّغة في التجسيم ، ويرى في ذلك قوة وفخامة ، حينما يتحول المعنى إلى صورة يمكن أن نراها ، والألفاظ في الأسماع يتعين أن تكون كالصور أمام العيون .. ولكنها الصور الآسرة المعجبة "(١) .

عن طريق الرسم بالكلمات أخرج البحتريّ صورة منحوتة في الصخر ، أو مرسومة على الجدار ، أخرجها مشهدًا حيًّا فيه الحياة والحركة ، والإشاحة والإلاحة ، حتى كاد أن يخدعنا كما خُدع هو ..

تلك هي " روح الشّاعر الخلاقة ، في حاجة ماسة إلى أن تمنح الحياة للأشياء الجامدة "(٢) .

يقول الشّاعر عليّ دمر(٣) : " إذا كان الفنانون الرسامون بالريشة والألوان يقدمون صورهم في معارضهم في لوحات ، فلماذا لا يقدم الفنانون الشعراء صورهم لوحات في كلمات (موسيقية) شعرية

---

(١) البحتريّ بين نقاد عصره ص١١ .
(٢) انظر : مقال (الاستعارة) في مجلة المجلة – عدد ١٧٢ – أبريل ١٩٧١م – دون مدلتون مري – ترجمة د/ عبد الوهاب المسيري ، والتصوير الشِّعْريّ ص١٥٥ – د/ عدنان حسين قاسم .
(٣) ديوان عليّ دمر ص٤٥٣ ، ٤٥٤ – النادي الأدبي الثقافي – جدة – ط/ أولى ١٩٨٧م .



في مجموعات ؟! " .

" والشِّعْر – كما قالوا – سيد الفنون ؛ لأنه يحويها جميعًا ويزيد ، ففيه الصورة ، والموسيقا ، والخيال ، والفكرة ، والغناء ... " .

" ومدى عوالم الرسم بالكلمات أوسع وأعلى وأشمل من مدى الرسم بالألوان والريشات ، وتصوير الشِّعْر لمجالي جمال الحياة يشمل كُلّ ما فيها من حلاوة وطلاوة في طبيعة الأرض والسماء والإنسان ... " .

" إن جوهر المعركة الصوتي يكاد يتحدى تقنيات الرسام ، فإذا كانت الصورة البصرية قد ساعدته على أن يجعل الاخضرار والاصفرار تعبيرًا ناطقًا عن عنفوان الحياة ، فإن اللوحة لا تستطيع أن تنقل الصوت ، ولكنها تبث الغياب المكتوم لذلك الصوت الذي كان يرج أرض المعركة ، ويأتي الشّاعر ليمد يده إلى الرسام ، وهو يكاد يعبر بأدواته .. والرسام أيضًا كما يعجز عن رصد الأصوات ، يعجز عن رسم الحركة .. لكن الشّاعر هنا يلتقط مشهدين موحيين بالحركة المتخيلة ، فالرجال بين مهاجم مندفع مشيح يهوي بسن رمحه على عدوه ، وآخر حذر مدافع يليح بترسه لكي يتقي السهام والسنان ... "[1] .

المقطع الخمري :

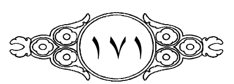
(الاعتراض اللاهي – التقاط الأنفاس – السرور المصنوع – المداواة بالداء) .

٢٩ – **قَدْ سَقاني وَلَمْ يُصَرِّد أَبو الغَو ... ثِ عَلى العَسكَرَينِ شَربَةَ خُلسِ**

٣٠ – **مِن مُدامٍ تَظُنُّها وَهيَ نَجمٌ ... أَضْوَأَ اللَيلَ أَو مُجاجَةُ شَمسِ**

---

(١) متعة تذوق الشِّعْر ص٩٠ – د/ أحمد درويش – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة .

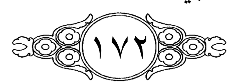


٣١ – وَتَراهـــا إذا أَجَـــدَّت سُـــرورًا ∴ وَارتِياحًـــا لِلشـــارِبِ المُتَحَسّـــي
٣٢ – أُفرِغَـت فـي الزُجـاجِ مِـن كُـلِّ قَلـبٍ ∴ فَهـيَ مَحبوبَــةٌ إِلـى كُـلِّ نَفـسِ
٣٣ – وَتَوَهَّمـــتُ أَنَّ كِســـرى أَبَـــرو يـــزَ مُعـــاطِيَّ وَالبَلَهبَـــذَ أُنســـي
٣٤ – حُلُـمٌ مُطبِـقٌ عَلـى الشَـكِّ عَينـي ∴ أَم أَمـانٍ غَيَّـرنَ ظَنّـي وَحَدسـي

قد يُظن أن هذه الأبيات دخيلة على القصيدة ، ولا علاقة بينها وبين الأبيات السابقة واللاحقة ، ولكن الأمر ليس كذلك :

* فربما كانت الأبيات بمثابة اعتراض لاه ، أراد الشّاعر أن يبدد شيئًا من هذا الجو الذي لبده بغيوم الأسى والحزن ، وليقف وقفة مع السرور المصنوع ، يتابع بعدها الاستعراض في جنبات الإيوان(١) .
* إن الشّاعر قد رحل إلى الإيوان مثقلاً بالهموم والأحزان ، وأراد أن يسلّي نفسه ويخفف عنها ، ولكنه لم يحقق الهدف ، بل أضيف إلى أحزانه رعب وروع وفزع ، حينما وقعت عيناه على اللوحة ، فأدرك أن قدميه ساقتاه إلى ميدان معركة وساحة قتال .. فزاد همّه ، وتضاعفت متاعبه ، فلم يكن أمامه سوى خمر رويّة تخرجه من هذه المتاعب ، وتريحه من تلك الهموم ، ويحل محلها سرور وارتياح .
* أو كأن الشّاعر " لما شاهد هذه الصورة والتماثيل البديعة في كلها ومختلف أوضاعها ، هاج هذا المشهد شهوة الشرب والتعاطي في نفسه ، ولذلك التفت إلى ابنه (أبي الغوث) وقال : هاتها ، فسقاه منها ولم يصرّد "(٢) .
* " وربما كان تأثير اللوحة بحيويتها المتدفقة جعله في موضع تأثر كما لو كان حاضرًا بين العسكرين في ميدان الحرب ، فغشاه الخوف والرهبة ،

---
(١) الخيال الشِّعْريّ ص١٢٣ .
(٢) إيوانية البحتريّ – عبد القادر المغربي .



وحينئذ سقاه أبو الغوث بالتي كانت هي الداء "[1] بمعنى أنه سكر من شدة الإعجاب باللوحة ، ولم يكن ليخرج من سُكر الإعجاب إلاّ بسكر آخر طاغ ، فكانت الخمر .

* وربما كان البحتريّ قد تعب من جراء اللهث في ميدان المعركة بين العسكرين ، وانتهت المعركة بتيقنه أنها لوحة وليست حربًا حقيقية ، فأخذ بعد ذلك قسطًا من الراحة يلتقط فيه أنفاسه .

ثم إنه في خداع الحواس له بذل جهدًا مضنيًا ، إذ أكّدت العينان حيوية المعركة ، وأقنعته بأن انعدام الصوت من الجند ليس دليلاً على عدم الحيوية ، بل لأن الجند في حضرة كسرى فهم يحترمونه ، ولذا استعاضوا عن الكلام بإشارة الخرس .. فذهب البحتريّ يحكّم اليدين ، متتبعًا بكلتا يديه أجزاء الصورة حتى يصل إلى الحقيقة ، ولا يدع أي فرصة حتى لا ينخدع بحاسة اللمس .. إنه جهد كبير توحي به كلمة (**تَتَقَرّاهُمُ**) .. وانتهى هذا البحث المضني إلى أن الحرب ليست دائرة حيّة ، وإنما هي صورة برع الرسام في إخراجها بهذه الدرجة الملبسة .. أرأيت كيف تعب الشّاعر ؟ فلماذا لا يستريح ؟!

* أو أنه فعل كما يفعل السياح ، حين يأخذون جولة ثم يستريحون ليواصلوا جولاتهم بعد ذلك .

والشاعر في هذه الأبيات يخبر أن ابنه سقاه حتى روى ، ولم يبخل .. سقاه خمرًا صافية ، كأنها لشدة صفائها نجم أضوأ الليل ، أو كأنها عصارة ضوء الشمس .. ولها أثرها الهائل في شاربها ، حيث تحدث سرورًا وارتياحًا ، لكأنها خلاصة القلوب ، ويبدو أن ذلك هو سرّ حب القلوب لها ،

---

(١) الشِّعْر العباسي – د/ أبو الأنوار ص٢٨٥ ، ٢٨٦ .



فبين هذه القلوب والخمر صلات وأواصر ، أوليست هي عصارة تلك القلوب ؟

ويسرح به الخيال إلى الماضي البعيد ، فيتوهم أنه ينادم كسرى أبرويز ويتعاطيان الكئوس ، ومُغَنّي كسرى المشهور (**البَلَهبَذ**) يطربهما ، فهما يشربان الخمر على أنغام الموسيقا وطرب الغناء .

ويتداخل الخيال والحلم .. أو ربما كان حلم نوم ، حيث نام بعد الشرب فرأى في منامه ذلك المشهد .. وربما كان حلمًا من أحلام اليقظة ، حيث تذكر منادمته الخليفة المتوكل ، فلم يستبعد منادمة كسرى ، وظن أنه حري بأن يجالس الملوك في كُلّ مكان "(١) .

عود إلى المعادل الموضوعي :

٣٥ – وَكَأَنَّ الإِيوانَ مِن عَجَبِ الصَنـ ـعَةِ جَوبٌ في جَنبِ أَرعَنَ جِلسِ

٣٦ – يُتَظَنّى مِنَ الكَآبَةِ إِذ يَبـ ـدو لِعَينَي مُصَبِّحٍ أَو مُمَسّي

٣٧ – مُزعَجًا بِالفِراقِ عَن أُنسِ إِلفٍ ∴ عَزَّ أَو مُرهَقًا بِتَطليقِ عِرسِ

٣٨ – عَكَسَت حَظَّهُ اللَيالي وَباتَ الـ ـمُشتَري فيهِ وَهوَ كَوكَبُ نَحسِ

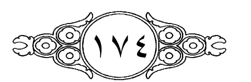
٣٩ – فَهوَ يُبدي تَجَلُّدًا وَعَلَيهِ ∴ كَلكَلٌ مِن كَلاكِلِ الدَهرِ مُرسي

أخذ البحتريّ قسطًا من الراحة ، وعاد يتأمل الإيوان وعجيب صنعه ، إن هذا الإيوان كأنه منحوت في الجبل .. ويتجلى المعادل الموضوعي هنا ، حين يصف الإيوان بالكآبة ، وما الكآبة إلاّ في داخل البحتريّ .

والبحتريّ حين جعل الإيوان كالجوب في الجبل " كان ينظر من داخل القصر ، وكأنه واقف في بهو داخل القصر ، ونظره مركوز على ضخامة القصر ، فكأن تجويف البهو الذي يقف فيه بالقياس إلى القصر ، يشبه نحتًا

---

(١) الخيال الشِّعْريّ ص١٢٤ .



أو تجويفًا في جنب جبل شاهق .. فنظرته إلى الإيوان كانت من الداخل وليس من الخارج .. كما يحدثنا هو عن حاله في داخل نفسه .. ولذا تجد المعاني والانفعالات التي وصف بها نفسه من الهم والحزن في بداية القصيدة – هي أوصاف الإيوان هنا – فهو كئيب ، ومزعج بالفراق ، ومرهق .. وإذا كان الدهر أراد أن يتعسه وينكسه فإن الإيوان قد **(عَكَسَت حَظَّهُ اللَّيالي)** .. وهو **(يُبدي تَجَلُّدًا)** ويظل **(مُشمَخِرًا)** ... "[1] .

٤٠ – **لَم يَعِبهُ أَن بُزَّ مِن بُسُطِ الديـ ـباجِ وَاستُلَّ مِن سُتورِ الدِّمَقْسِ**

٤١ – **مُشمَخِرٌّ تَعلو لَهُ شُرُفاتٌ ∴ رُفِعَت في رُؤوسِ رَضوى وَقُدسِ**

٤٢ – **لابِساتٌ مِنَ البَياضِ فَما تُبـ ـصِرُ مِنها إِلّا غَلائِلَ بُرسِ**

٤٣ – **لَيسَ يُدرى أَصُنعُ إِنسٍ لِجِنٍّ ∴ سَكَنوهُ أَم صُنعُ جِنٍّ لِإِنسِ**

٤٤ – **غَيرَ أَنّي أَراهُ يَشهَدُ أَن لَم ∴ يَكُ بانيهِ في المُلوكِ بِنِكسِ**

لا يزال المعادل الموضوعي متجلّيًا ، والبحتريّ يريد أن يقول : إن المظهر ليس كُلّ شيء ، بل المهم الجوهر .. وإذا كان الإيوان قد نزعت عنه الزينات ، والستائر ، والبسط إلاّ أنه لم ينل من عظمته وشموخه ، تمامًا مثل البحتريّ الذي ذهب مجده ، وأفل نجمه ، ولكن لا يزال هو البحتريّ الشّاعر العظيم ، صاحب الصفات التي افتخر بها سابقًا ، لقد وقع على كُلّ منهما سحق وتدمير وقهر ، لكن ذلك كُلّه لم يؤثر في الجوهر ، فظل الشموخ والكبرياء ، والقامة العالية أبدًا ..

إن البناء عجيب ، يقول ابن خلدون[2] : " هو من غريب ما جاءت به عقول أبناء الزمان ، حتى إنه حيّر الأذهان ، في كُلّ عصر وآن ، وعدّته العامة من تلك البنيان ، التي هي من صنع الجان ، لا من الإنسان " .

---

(١) راجع : مطلع القصيدة العربيّة ص٢٥٧ " بتصرف وإيجاز " .

(٢) المقدمة ص٣٠١ – ط/ بيروت ١٨٨٦م ، ومجلة المشرق (سلوان الأسرى في إيوان كسرى) .

ويبدو أن البحتريّ يريد : أن هذا الإيوان قد صار خاليًا من الإنس فسكنته الجن ، أم أن الجن هم صانعوه للإنس ؟ المهم أنه يدل على عظمة الباني ، وقوته .

الوصف الخيالي :

٤٥ – **فَكَأَنّي أَرى المَراتِبَ وَالقَو ... مَ إِذا ما بَلَغتُ آخِرَ حِسّي**

٤٦ – **وَكَأَنَّ الوُفودَ ضاحينَ حَسرى ... مِن وُقوفٍ خَلفَ الزِحامِ وَخِنسِ**

٤٧ – **وَكَأَنَّ القِيانَ وَسطَ المَقاصيـ ... ـرِ يُرَجِّعنَ بَينَ حُوٍّ وَلُعسِ**

٤٨ – **وَكَأَنَّ اللِقاءَ أَوَّلَ مِن أَمـ ... ـسِ وَوَشكَ الفِراقِ أَوَّلَ أَمسِ**

٤٩ – **وَكَأَنَّ الَّذي يُريدُ اتِّباعًا ... طامِعٌ في لُحوقِهِم صُبحَ خَمسِ**

يقول (أنستاس الكرملي)[١] : " وكانت طبقات خاصة الملك ثلاثًا : الأولى الأساورة وأبناء الملوك ، وكان مجلس هذه الطبقة عن يمين الملك على نحو من عشرة أذرع ، وهم بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم " .

" وكانت الطبقة الثّانية على مقدار عشرة أذرع من الأولى ، وهم وجوه المرازبة وملوك الكور ، والمقيمون بباب الملك " .

" والطبقة الثّالثة كانت رتبتها على قدر عشرة أذرع من حد مرتبة الطبقة الثّانية ، وأهل هذه الطبقة المضحكون ، وأهل البطالة والهزل.. غير أنه لم يكن في هذه الطبقة خسيس الأصل ، ولا وضيع القدر ، ولا ناقص الجوارح ... " .

فهل يقصد البحتريّ ذلك ؟ ربما .. أي أن كلاًّ من المسئولين يزاول مهام مسئوليته ، بدءًا من كسرى ، ونوابه ، ووزرائه ... .

(١) مجلة المشرق .



وهناك يقف في طوابير طويلة وفود تنتظر دورها للدخول على كسرى ، وهم من الكثرة بحيث اشتدت حرارة الشمس عليهم ، وهم حاسرو الرؤوس ، لكنهم لايعبأون بذلك في سبيل لقاء كسرى .

وبينا هؤلاء في وهج الشمس وشدة الزحام ، هناك مشهد لكسرى فيه طرب ونعيم وترف ، والقيان شديدات الأسر ، ساحرات فاتنات ، جالسات في المقاصير يغنين .. إنها رؤية دقيقة تكشف أدق التفاصيل وأسرار جمال هؤلاء الفتيات ..

كُلّ هذا كأنه كان بالأمس القريب ، إنه يشم رائحة القوم ، وأصواتهم لا تزال ترن في أُذنيه .. وهم قوم بلغوا من الحضارة والمدنية ما لا يمكن أن يصله طامع .. ذلك كمن يريد دخول سباق بدأه القوم منذ خمس ليال ، فأنَّى له أن يلحق بهم !! إنه محال ..

البعد الإنساني وجزاء الإحسان :

٥٠ – عُمِّرَت لِلسُرورِ دَهرًا فَصارَت ∴ لِلتَعَزّي رِباعُهُم وَالتَأَسّي

٥١ – فَلَها أَن أُعينَها بِدُموعٍ ∴ موقَفاتٍ عَلى الصَبابَةِ حُبسِ

٥٢ – ذاكَ عِندي وَلَيسَت الدارُ داري ∴ بِاقتِرابٍ مِنها وَلا الجِنسُ جِنسي

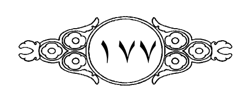
٥٣ – غَيرَ نُعمى لِأَهلِها عِندَ أَهلي ∴ غَرَسوا مِن زَكائِها خَيرَ غَرسِ

٥٤ – أَيَّدوا مُلكَنا وَشَدّوا قُواهُ ∴ بِكُماةٍ تَحتَ السَنَّورِ حُمسِ

٥٥ – وَأَعانوا عَلى كَتائِبِ أَريا ∴ طَ بِطَعنٍ عَلى النُحورِ وَدَعسِ

٥٦ – وَأَراني مِن بَعدُ أَكلَفُ بِالأَشـ ∴ ـرافِ طُرًّا مِن كُلِّ سِنخٍ وَأُسِّ

ويتجلّى البعد الإنساني في البيت رقم (٥٠) ، إذ يرى البحتريّ أن هذه الديار ظلت ردحًا من الزمن عامرة بالسعادة والسرور ، ثم انقلب بها الدهر فصارت محلاً للتأسي والتعزي .. والدافع هنا ليس عصبية لقبيلة ، أو لجنس ، وإنما هي حضارة إنسانية عامة .



وفضلاً عن ذلك فإن هؤلاء القوم لهم عند قومي أياد يستحقون أن أوفيهم بها بكاء بدموع حَرَّى غزيرة .. فهم قوم غرسوا غرسًا زكيًّا ، ولابد أن يكون الحصاد من جنس الغرس .

لقد أيدوا ملكنا ، وأمدونا بالسلاح والعتاد والجنود ، وأعانونا على هزيمة **(أَرياط)** ذلك القائد الحبشي الذي كان يهدف إلى غزو بلادهم .

وربما كان قوله : " **أَيَّدوا مُلكَنا وَشَدّوا قُواهُ** " يقصد به العون الفارسي ودور الموالي – وجلّهم فُرس – في قيام الدولة العباسية ، ورفع رايتها بخراسان .. ثم يد أخرى قديمة وهي مساعدتهم في صدّ **(أَرياط)** .

وهؤلاء أشراف عظماء يفرضون حبهم وتقديرهم على الناس جميعًا ، بصرف النظر عن الجنس واللون والحسب والنسب ... وفيه تعريض بالترك .

والبحتريّ جُبل على حب الأشراف مهما كان جنسهم ..

من هنا عدّه أحد الدارسين[1] " رائدًا إنسانيًّا لتخطي الحواجز القبلية كانت لا تزال إلى أيامه تكبل الشعراء بأغلالها .. حيث انطلق إلى آفاق رحبة ، وسما بنظرته فوق الجنس ، واختط طريقًا لم يعرفه سابقوه .

وهكذا أخذنا معه البحتريّ فطوّف بنا هناك في العراق حيث المجتمع العباسي ، وما فيه من متناقضات .. بل عاد إلى ما هو أبعد من ذلك حين رحل عن مَنْبِج ، واشترى العراق .. ورأيناه وهو يشد رحاله غاضبًا من ذلك المجتمع ، قاصدًا المدائن وإيوان كسرى .

وهناك أعاد شريط الماضي الفارسي ، وطرائق حكم الفرس ، وتقدمهم الحضاري الهائل ، ولاسيما في الفن المعماري .. ووقفنا نشاهد معركة أنطاكية ، ونحن نلهث معه وسط الجيشين المتحاربين .. فما أروع هذه

(١) القيم الفنية المستحدثة في الشِّعْر العباسي ص٢٠٧ وما بعدها – د/ توفيق الفيل .. وانظر : العصر العباسي : نماذج شعرية – جورج غريب – دار الثقافة .



القصيدة ، إنها حَقًّا درة شعر البحتريّ .

السينية : دراسة فنية

(١) الطـــــلل

ربما يتخيل القارئ لهذه القصيدة – إذا لم يمعن النظر – أن البحتريّ خالف القدماء حيث لم يبدأ القصيدة بوقفة طللية .

ولكن الحقيقة أن القصيدة كلها تدور حول الطلل ، وهو هنا (إيوان كسرى) المعادل الموضوعي للبحتريّ ، ومن قبله كان أستاذه أبو تمام قد جعل عمورية محور قصيدته البائية ، وكلاهما جعل الطلل غاية ، وسخر كُلّ الفنون لخدمة هذه الغاية .

والبحتريّ – في سينيته – يبكي الطلل ، ويبكي معه ماضيه وأمجاده السالفة التي تلاشت ، وبدأ ذلك التلاشي منذ مقتل المتوكل ..

ولكن الشّاعر لا يزال مُصرًّا على الاستمساك والتصبر والتجلد مثل معادله الموضوعي – كما أسلفت – .

والشاعر صرّح بأنه ذهب إلى الإيوان ليحقق هذا الهدف ، حين قال :

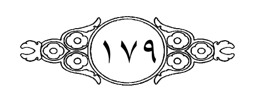
حَضَرَت رَحلِيَ الهُمومُ فوَجَّهـ ... ـتُ إلى أبيَضِ المَدائِنِ عَنسي

أتَسَلّى عَنِ الحُظوظِ وَآسى ∴ لِمَحَلٍّ مِن آلِ ساسانَ دَرسِ

أذكَرتِنيهِمُ الخُطوبُ التَوالي ∴ وَلَقَد تُذكِرُ الخُطوبُ وَتُنسي

ووازن بين أطلال الفرس وأطلال العرب فيما بدا أنه شبهة شعوبية – كما ذكرنا – ، ولكنه كان مغيظًا محنقًا من العرب كلهم ..

على أيّة حال فإن البحتريّ – ومن قبله أبو تمام – قد طور الطلل فأصبح غاية بعد أن كان وسيلة ، وقد وفق في ذلك كُلّ التوفيق .



(٢) الصور والأخيلة

ذخرت القصيدة بروائع من الصور البيانية ، من مثل قوله :

صُنتُ نَفسي عَمّا يُدَنِّسُ نَفسي ∴ وَتَرَفعتُ عَن جَدا كُلِّ جِبسِ

فقد صور النفس في هيئة ثوب ناصع البياض ، وقد بذل جهدًا عظيمًا في سبيل الحفاظ على بياضه وطهارته من أن يمسه دنس .. أو قل صورها في صورة درّة مكنونة ، غالية نفيسة ، ولكي تظل محفوظة مصونة ينبغي أن تكون بمبعد عن أيدي اللامسين .

ثم خيّل إلينا أنه واقف على أرض تميد وتضطرب ، بغية زلزلته وهزّه هزًّا عنيفًا ، والذي فعل به ذلك كله : الدهر ، الذي اتخذه خصمًا ، وألح على إتعاسه وإنكاسه :

وَتَماسَكتُ حينَ زَعزَعَني الدَهـ ـرُ التِماسًا مِنهُ لِتَعسي وَنَكسي

وهاهي الأيام مشخّصة في صورة كائل أو وازن ، يقوم بتطفيف الوزن والكيل للبحتريّ ، ويلحّ على ذلك :

بُلَغٌ مِن صُبابَةِ العَيشِ عِندي ∴ طَفَّفَتها الأَيّامُ تَطفيفَ بَخسِ

ويستعين بصورة بدوية وهو يوازن بين حالين من العيش ، إحداهما رفه وخفض ، والأخرى ضيق وضنك .. فيوازن بين إبل مرفهة ترد الماء وقتما تشاء ، وأخرى محبوسة عنه لا ترده إلاّ كُلّ خمس :

وَبَعيدٌ ما بَينَ وارِدِ رِفهٍ ∴ عَلَلٍ شُربُهُ وَوارِدِ خِمسِ

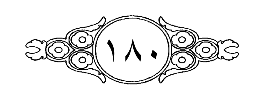
ويجعل العراق والشام سلعتين تباعان وتشتريان :

وَاشتِرائي العِراقَ خُطَّةُ غَبنٍ ∴ بَعدَ بَيعي الشَآمَ بَيعَةَ وَكسِ

وصفاته ونفسه الأبية مثل الخيل التي تأبى الترويض ، فهي تنفر وتشمس :

وَقَديمًا عَهِدتَني ذا هَناتٍ ∴ آبِياتٍ عَلى الدَنِيّاتِ شُمسِ

وصور المنايا ماثلة ، متربصة بالجند المتحاربين في جيشي



الفرس والروم :

وَالمَنايـــــا مَواثِـــــلٌ وَأنوشِـــــر وانَ يُزجِـى الصُـفوفَ تَحـتَ الـدِرَفسِ

ويبرع براعة فائقة حين يحيل الإيوان شخصًا تبدو عليه الكآبة ، منزعجًا لفراق أليفه ، ومرهقًا لتطليق عرسه ، وهو يبدي التجلد ..

إن الإيوان – فيما يبدو لي وللبحتريّ – شخص له حواس وقلب ومشاعر ، فوَجْهُه قد اصفرَّ وذَبُل ، وعيناه قد غارتا ، وبدت عليه آثار الانزعاج ، ولكنه رغم ذلك كُلّه مستمسك ، متصبر ..

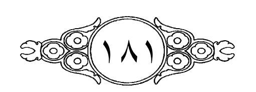
(٣) الألفاظ والأساليب

أ – سبق أن ذكرنا أن البحتريّ من الشعراء القلائل الذين يجيدون الرسم بالكلمات ، وجعل الشِّعْر قريبًا من النحت والنقش والتصوير .. وقد ظهر ذلك جليًّا في لوحة أنطاكية ، التي استطاع البحتريّ – من خلال الألفاظ والكلمات – أن يحرك المشاهد المرسومة ، فيحيلها أشخاصًا حيّة تتحرك ، والقائد يوجّه ، ويشير ، ويرفع العلم الكبير ، وهناك مَن يدافع ، ومَن يهاجم .. بل إن المنايا تقف مترقبة لتتلقف الأرواح ..

ومن خلال الألفاظ أيضًا برع البحتريّ في تصوير المعركة بينه وبين الدهر ، فخيل لنا أن الدهر قد جند جنده وحشدهم لمجابهة البحتريّ والتصدي له .. ومن جانبه يبذل الشّاعر جهدًا ضخمًا لمواجهة هذا التحدي ، لنتأمل الألفاظ التي استخدمها في ذلك :

الدهر وأعوانه : (يُدَنِّس – جِبس – زَعزَعَني – التِماسًا مِنه – لِتَعسي – وَنَكسي – طَفَّفَتها الأَيّام – وارِد خِمس – الأَخَسّ – وَكس – نبو – الهُموم) .

البحتريّ ودفاعه ضد الدهر وأعوانه : (صُنت نَفسي – تَرَفَّعت – تَماسَكت – تُنكِر مَسّي – هَناتٍ آبِياتٍ عَلى الدَنِيّاتِ شُمسِ ...) .



ثم نجد مثيلاً لذلك في الحديث عن الإيوان ..

وألفاظ البحتريّ في مجموعها سهلة ، ليست في حاجة إلى بحث في المعاجم اللغوية ، وهو بذلك يخالف أستاذه أبا تمام ، وليس معنى ذلك خلو القصيدة تمامًا من الألفاظ الصعبة .

ب – وقد وظف البحتريّ الكلمة لخدمة الفكرة ببراعة ، لنتأمل قوله :

لَم يَعِبهُ أن بُزّ مِن بُسُطِ الديـ ـباجِ وَاستُلّ مِن سُتورِ الدمَقسِ

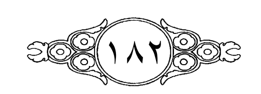
فتأمل مليًّا الألفاظ (**بُزَّ – استُلَّ – بُسُطِ الديباجِ – سُتورِ الدمَقسِ**) تشعر أن الدهر – الذي قام بذلك كُلّه – أراد أن يعرّي الإيوان من كُلّ زينة ، ويجرده من كُلّ حُسْن ، وكأن البحتريّ يريد أن يشير من طرف خفي إلى أن الجوهر هو الأهم ، وما المظهر إلاّ عارض يذهب ويجيء ..

لكن الشّاعر حين قال : " **بُزَّ** " و" **استُلَّ** " أوحى لنا بالعنف المسيطر على الفاعل المحذوف ، وعمد عمدًا إلى التضعيف فيهما ليؤكد هذا العنف .. هذا بالإضافة إلى ما في إيحاء اللفظ (**استُلَّ**) الذي يستخدم في (سل السيف) و(استلال الروح) ..

ج – سيطر الأسلوب الخبري على القصيدة تمامًا ؛ لأن الشّاعر في معرض قصّ عمّا كان وما هو كائن الآن ، يوازن بين الماضي والحاضر لنفسه ولمعادله الموضوعي ، فالأسلوب الخبري يفرض نفسه هنا ..

وفي رأيي أن هذا الأسلوب الخبري الغالب يعكس ظروف الشّاعر وحالته النفسية في مثل هذه المرحلة العمرية ، التي لم يعد يملك إزاءها شيئًا سوى اجترار ذكريات الماضي وأمجاده .. فهو يتواءم مع العجز وعدم القدرة على الأمر والنهي ..

د – في القصيدة ألوان بديعية ، لكن القارئ لا يكاد يشعر أن في شعر



البحتريّ – عمومًا – صنعة بديعية ، ولا غرو ، فهو (أبو الطبع) كما أطلق عليه كثير من القدماء .

فنجد الطباق والمقابلة في :

- **...................... وارِدِ رِفَـــــــهٍ ∴ عَلَـــلٍ شُـــرْبُهُ وَوارِدِ خِمـــسِ**
- **وَاشـــترائي العِـــراقَ .... ∴ بَعــدَ بَيعـــي الشَـآمَ ....**
- **................ نُبُــوّ ابــنُ عَمّــي ∴ بَعـدَ لـينٍ مِــن جانِبَيــهِ وَأُنــسِ**
- **وَإِذا ماجُفيـــتُ كُنـــتُ جَـــديرًا ∴ .... مُصــبِحٍ حَيــثُ أُمســي**
- **حَضَـــرَت .... فَوَجَّهـــ ـــــتُ ....**
- **.. ∴ وَلَقَــد تُــذكِرُ الخُطــوبُ وَتُنسـي**
- **........ خافِضــونَ فــي ظِـلّ عــالٍ ∴ ....**

... إلخ ..

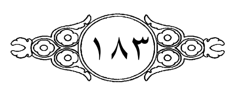
والجناس :

ذلك الذي يقول عنه الدكتور عبد الله الطيب(١) : " لقد أدرك البحتريّ من حقيقة الجناس الحرفي السجعي ما غاب عن أبي تمام ، فافتن فيه افتنانًا ، ينظر بعين إلى منهج الجاهليين ، وبأخرى إلى حاجة الزخرفة التي يتطلبها عصره وبيئته .. والسينية من أبلغ الأمثلة في ذلك " .

لقد كرر البحتريّ كثيرًا من الألفاظ والحروف في القصيدة ، من ذلك قوله : " **طَفَّفَتها – تَطفيفَ** " ، " **الأَخَسّ – الأَخَسّ** " ، " **أَذكَرتِنيهُمُ – تُذكِرُ** " ، " **مَساعٍ – مَسعاةُ** " ..

وكرر حروفًا بعينها لا تخفى على القارئ .. " والفرق بين هذا النوع من التكرر وتكرار الجاهليين هو : أن البحتريّ جمع بينه وبين أصناف من

(١) المرشد ص٦١٤ .



توشية الجرس ، كالمزاوجة اللفظية ، والتقسيم ، والطباق "[١] .

(٤) الموســـــيقا

من أهم ما يتميز به شعر البحتريّ بعامة موسيقاه ، فقد اشتهر بها ، وكان كالموسيقي الموهوب المحترف في آن ..

يقول الدكتور شوقي ضيف[٢] : " فالبحتري كان يعرف كيف يلائم بين ألفاظه ، وكيف يرشح لقوافيه ، وكيف يهيئ لها مكانها ، ويَصُفُّ الآذن للقائها ، إذ كان شاعرًا ممتازًا في فن الصوت ، وإن استمر يستمده من القيثارة العتيقة ... " .

ويقول[٣] : " ونحن لا نتصفح ديوان البحتري حتى نحس إحساسًا عميقًا بأن موسيقا الشعر العربي أصيبت بترف صوتي شديد ؛ إذ استطاعت أن تنهض بقيم فنية لم يكن يحلم بها الشعراء القدماء ... " .

ثم استشهد بالسينية .. وكلام الدكتور شوقي ضيف جدير كُلّه بالقراءة .. والحق أن شعره كله يتميز بموسيقا تناسب الموضوع ، بدءًا من القافية ، والبحر ، والموسيقا الداخلية المتنوعة ، من جناس حرفي سجعي ، ومقابلة ، وطباق ... واستخدام حروف المد واللين في الموضع المناسب ، وهاء السكت ، وحروف الصفير ... إلخ[٤] .

والكلام في هذا الموضوع يطول ، ولكننا سنقف على أهم ملامح التميز الموسيقي في السينية :

(١) المرشد ص٦١٤ .
(٢) الفن ومذاهبه في الشِّعْر العربيّ ص٨٣ .
(٣) السابق ص٨٦ .
(٤) راجع : تحليلنا لقصيدته الدالية في وصف الذئب في كتابنا : الذئب في الأدب القديم .



(أ) **البحـــر :**

البحر هو الخفيف ، وهو بحر يتناسب وموضوع القصيدة ، فإيقاعه غنائي هادئ ، يناسب حزن شيخ كبير وقور ..

(ب) القافية :

فهي السين ، التي تتناسب مع (السكون – الصمت – السكوت – – الهمس) ... إلخ هذه المعاني .. وهذا الرّويّ مناسب للأسى والحزن والهم ... إلخ ، من تلك النعوت التي نعت بها الإيوان والبحتريّ معًا ..

" وبدا الشّاعر في هذه القافية الحزينة وكأنه يتعمد ألاّ يلين حاشيتها بحرف علة قبل الرّويّ حتى تكون مسعفة في قصيدته الطويلة ... "[1] .

" والإنسان لا يتابع البحتريّ في هذه القصيدة حتى يشعر في وضوح أنه يسمع الصوت من جهة ، ويبصره من جهة أخرى ، فهو مجسّم في شكل رائع .. فالشاعر وفق غاية التوفيق في الملاءمة بين الحرف الأخير من القافية وهو السين ، وبين الكلمات الأخرى في أبيات القصيدة ، فكثير منها تكثر فيه السين ... "[2] .

" ثم عمد إلى حركة الكسر في كثير من الكلمات .. وأكثر من القوافي الداخلية ... "[3] .

ونحن لا نستطيع في هذه العجالة أن نستقصي الميزات الموسيقية في هذه القصيدة ، ونكتفي بما أوجزناه .

---

(١) الشِّعْر والشعراء في العصر العباسي ص٧٢٥ .

(٢) الفن ومذاهبه ص٨٨ .. راجع الحديث الممتع والتحليل الموسيقي الرائع للدكتور شوقي ضيف في السينية .

(٣) الفن ومذاهبه ص٨٩ " بإيجاز " .



قالوا عن السينية

١ – **قال ابن المعتز** : " لو لم يكن للبحتريّ من الشِّعْر إلاّ قصيدته السينية في وصف إيوان كسرى – فليس للعرب سينية مثلها – وقصيدته في بركة المتوكل ، لكان أشعر الناس في زمانه "(١) .

٢ – **وقال الدكتور عبد السلام فهمي** : " هي عروس شعر البحتريّ بعامة ، ونموذج إجادته في الوصف خاصة "(٢) .

٣ – **وقال الدكتور مُحمّد صبري** : " وهي أجل قصيدة في الشِّعْر العربيّ ، وتعد بحق من آيات الشِّعْر الخالد "(٣) .

٤ – **ويقول** : " وهي كُلّها نفس واحد ، جَيِّدَة السبك ، كأنها مصبوبة في قالب ، أو منحوتة من مقطع ، لا تجد فيها كلمة مقلقلة ، أو بيتًا منخفضًا عن بيت ، وكلها كسلاسل الذهب في حسنها ، أو كسلاسل الجبال وهي مسندة إلى الأفق الدامي في جلالها وروعتها "(٤) .

٥ – **وقال الدكتور زغلول سلام** : " وهي من أبدع الشِّعْر العربيّ وأجمله بناء وشاعرية وأحاسيس ومشاعر وتدفق عاطفة ، في سلامة من اللّغة ، ومقدرة تفوق حدّ التصور في رسم ما وقعت عليه عيناه بالكلمة النابضة الحيّة "(٥) .

٦ – **وقال** : " طراز جديد من الشِّعْر لم تألفه القصيدة العربيّة من قبل ، ترابطت عناصرها ، ودارت حول محور النفس المأزومة ، تقترب منه

---

(١) أخبار البحتريّ ص٧٢ ، ٧٣ .
(٢) إيوان المدائن بين البحتريّ والخاقاني ص٢٨ .
(٣) أبو عبادة البحتريّ ص١٠٤ .
(٤) أبو عبادة البحتريّ ص١٥٦ .
(٥) ص٤٨٨ .



وتبتعد ، تتفرق ثم تعود لتتجمع حول هذا المحور "[١] .

٧ – **وقال أنيس المقدسي** : " وهذه القصيدة من عيون الشِّعْر العربيّ "[٢] .

٨ – **وقال صالح اليظي** : " لعل سينية البحتريّ تلك الرائعة التي وقف الفن والإنسان والتذوق – وسيقفون برحابها طويلاً – .. لعل تلك الرائعة جماع لفن الرجل وعبقريته وخبرة عمره جميعًا "[٣] .

٩ – **وقال الدكتور عبد العزيز الموافي** : " وعلى الرغم من غزارة الوصف عند البحتريّ وتنوعه وجودته ، تظل سينيته في إيوان كسرى قصيدة متفردة في شعره الوصفي ، حيث جاءت جماعًا لعبقريته في هذا الفن ... "[٤] .

١٠ – **وقال الدكتور عبد الله الطيب** : " وسينية البحتريّ ، من الخفيف مشهورة ، وهي من روائع الشِّعْر في كُلّ زمان ومكان ، وقد جمعت فنونًا من براعة التصوير والتأمل والموسيقا والذوق المهذب ، وبعض الناس يوازنون بينها وبين سينية شوقي ، وذلك عندي من العناء والتكلف "[٥] .

١١ – **وقال عبد القادر المغربي** : " والقصيدة من خير أشعار البحتريّ على غموض في كثير من أبياتها لم نعهده في شعر البحتريّ الذي وصف بسلاسل الذهب "[٦] .

---

(١) السابق ٤٨٩ .
(٢) أمراء الشِّعْر ص٢٥٢ .
(٣) البحتريّ بين نقاد عصره ص٣٦٢ .
(٤) ص٢٤١ .
(٥) المرشد لفهم أشعار العرب وصناعتها ص٥٥ .
(٦) إيوانية البحتريّ – مجلة المجمع العلمي بدمشق – مج٣١ ١/٧٧ .



مِيميَّةُ المُتَنَبِيّ

اغتراب مرير – فارس أسير – حلم ضائع

تمرد المتنبي وغربته ووحدته

عمل التطور الاجتماعي وتزايد السكان وتكاثفهم في (المدينة) على إضعاف الصلات الحميمة بين الشّاعر والآخر ، وبينه وبين الطبيعة ..

وزاد التصدع والضياع ، وصار المجتمع كتلة كثيفة معتمة تحول بين الشّاعر والضوء ، فازداد شعوره بأنه منبوذ ، محاصر ، مخنوق .. لكن ردود فعله كانت قوية ، تتراوح بين الوحدة والسخرية ، والتعالي والرفض .. وفي هذا كله كان يشعر أنه يعيش في (زمان القرود) كما يعبر (أبو نواس)[1] ..

في شعر (المتنبي) يأخذ تمرد الشّاعر على المجتمع بُعدًا أكثر تألقًا وشخصانية .. المتنبي يفرز نفسه ، ويعرضها عالمًا فسيحًا من اليقين والثقة والتعالي في وجه الآخرين وضدهم .. وهو في ثنايا شعره كُلّه يحتضن ذاته ويناجيها ، إن شعره كتاب في عظمة الشخص الإنسانية ..

المتنبي روح جامحة ، تياهة ، تتلاقى فيها أطراف الدنيا ، إنه وحيد :

أَلَحَّ عَلَيَّ السُقمُ حَتّى أَلِفتُهُ ∴ وَمَلَّ طَبيبي جانِبي وَالعَوائِدُ
أَهُمُّ بِشَيءٍ وَاللَيالي كَأَنَّها ∴ تُطارِدُني عَن كَونِهِ وَأُطارِدُ
وَحيدٌ مِنَ الخُلّانِ في كُلِّ بَلدَةٍ ∴ إِذا عَظُمَ المَطلوبُ قَلَّ المُساعِدُ[2]

بل هو الوحيد ، فوحدته قدر محتوم ؛ لأن الإنسان خليل نفسه ..

---

(١) مقدمة للشعر ص٣٨ ، وديوان الشِّعْر ج٢ ص : ط ، ي .
(٢) الديوان ٣٩١/١–٣٩٣ ، وبين البيت الأوّل والثاني بيتان لم نذكرهما .



المتنبي وحدة غاضبة لا يرضيها شيء ، لكن وحدته ليست هربًا من العالم ، ليست وحدة اللجوء إلى الراحة والهدوء ، بل وحدة مجابهة العالم ، وحدة الألم الكبير ، فمَن لا يملك غير آفاق لا يصل إليها تمتلئ أعماقه بالمهاوي الأليمة .

ولقد اختار المتنبي الغربة ، مؤمنًا ألاّ عظمة إلاّ في نفسه :

تَغَرَّبَ لا مُستَعظِمًا غَيرَ نَفسِهِ ∴ وَلا قابِلاً إِلّا لِخالِقِهِ حُكما
وَلا سالِكًا إِلّا فُؤادَ عَجاجَةٍ ∴ وَلا واجِدًا إِلّا لِمَكرُمَةٍ طَعما
يَقولونَ لي ما أَنتَ في كُلِّ بَلدَةٍ ∴ وَما تَبتَغي ما أَبتَغي جَلَّ أَن يُسمى[1]

* * *

فَما حاوَلتُ في أَرضٍ مُقامًا ∴ وَلا أَزمَعتُ عَن أَرضٍ زَوالا
عَلى قَلَقٍ كَأَنَّ الريحَ تَحتي ∴ أُوَجِّهُها جَنوبًا أَو شَمالا[2]

إنسان المتنبي موجة لا شاطئ لها ، دائمًا على حركة .. إنه أوّل شاعر عربي يكسر طوق الاكتفاء والقناعة ، ويحول المحدودية إلى أفق لا يحِد .. شعره للحركة ، للحرارة ، للطموح ، للتجاوز ، إنه جمرة الثورة في شعرنا ، جمرة تتوهج بلا انطفاء ، إنه طوفان بشري من هدير الأعماق[3] ..

وهناك أسباب عديدة كانت وراء تكوين شخصية المتنبي ، تلك الشخصية المتميزة جِدًّا في معجم شعراء العربيّة ، منها :



(١) الديوان ٤/٢٣٣ .
(٢) السابق ٣/٣٤١ .
(٣) مقدمة للشعر العربيّ ص٥٥-٥٧ " بتصرف وإيجاز " ، وديوان الشِّعْر العربيّ ٢/١٩-٢٢ .

(١) نســـبه :

وما من دارس لشعر المتنبي إلاّ خاض في ذلك ، وأدلى بدلوه فيه .. فمن ذاهب إلى أن المتنبي شريف[١] ، ابن أمير علوي ثائر ، انتهت ثورته بمقتله.. وآخر قائل بأنه لقيط دعي[٢] .. واضطر المتنبي إزاء ذلك إلى إخفاء نسبه، وعدم التعرض له بالذكر ، إمّا خوفًا ، وإمّا خجلاً .

" وربما كان مرد تجاهل الشّاعر لأبيه وجده وعائلته إلى أنه كان يعتبر الفضائل الإنسانية كلها تجمعت في شخصه من فروسية ، وبطولة ، وشجاعة ، وفكر ، وشعر ، ... "[٣] إلخ .

غاية الأمر أن المتنبي لم يفخر بنسبه ، ولعل ذلك كان دافعًا له منذ نعومة أظفاره لإثبات ذاته ، وبناء مجده بيده ، وإحراز تفوق يغنيه عن التغني بآبائه وأجداده .

كان المتنبي " يتخطى مشكلة الكلام عن نسبه بكبريائه وتعاليه ، وكان يرى الفخر بالآباء للعاجزين بأنفسهم ، المتخلفين بمواهبهم وذواتهم "[٤] .

وقد تردد ذلك كثيرًا في شعره ، يقول مثلاً[٥] :

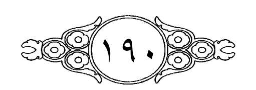
وَلَسْتُ بِقانِعٍ مِن كُلِّ فَضلٍ ∴ بِأَن أُعزى إِلى جَدٍّ هُمامِ

ويقول[٦] :

أَنا ابنُ مَن بَعضُهُ يَفوقُ أَبا الـ ∴ ـباحِثِ وَالنَّجلُ بَعضُ مَن نَجَلَه
وَإِنَّما يَذكُرُ الجُدودَ لَهُم ∴ مَن نَفَروهُ وَأَنفَدوا حِيَلَه

---

(١) العلامة محمود شاكر في كتابه (المتنبي) ص١٦٧ وما بعدها – مطبعة المدني ١٩٨٧م .
(٢) هو د/ طه حسين في كتابه (مع المتنبي) ص١٢–١٩ ، وهو ناقل في ذلك عن القدماء .. وانظر : المتنبي شاعر مكارم الأخلاق ص٩٦ – أحمد الشامي .
(٣) المتنبي شاعر السيف والقلم – د/ فوزي عطوي ص١٣ .
(٤) الشِّعْر العباسي – د/ مُحمّد أبو الأنوار ص٤٤٤ ، ٤٤٥ – دار المعارف .
(٥) الديوان – البرقوقي ٢٧٥/٤ .
(٦) السابق ٣٨٣/٣ .



فَخـــرًا لِعَضـــبٍ أَروحُ مُشـــتَمِلَه ∴ وَسَـــــمهَرِيٍّ أَروحُ مُعتَقَلَـــــه
وَلِيَفخَـــرِ الفَخـــرُ إذ غَـــدَوتُ بِـــهِ ∴ مُرتَـــدِيًا خَيـــرَهُ وَمُنتَعِلَـــه
أَنَـــا الَّـــذي بَـــيَّنَ الإِلَـــهُ بِـــهِ الـــ أَقـــدارَ وَالمَـــرءُ حَيثُمـــا جَعَلَـــه
جَـــوهَرَةٌ يَفـــرَحُ الكِـــرامُ بِهـــا ∴ وَغُصَّـــةٌ لا تُســـيغُها السَّـــفِلَه

ويقول في رثاء جدته لأمه[1] :

وَلَـو لَـم تَكـوني بِنـتَ أَكـرَمِ والِـدٍ ∴ لَكـانَ أَبـاكِ الضَـخمَ كَونُـكِ لـي أُمّـا

(٢) جدته لأمه :

فقد كان لتلك المرأة أثر بارز في شخصية المتنبي ، وذلك أنها وليت شؤونه بعد وفاة أمه ، فكانت أمه وجدته في آن واحد ، بل إنه كان يناديها بأمه ..

ويبدو من تتبع أخبارها أنها كانت ذات شخصية قوية ، وأنها حببت إليه الكثير من الفضائل ، كانت توقد في قلبه نيران الثورة وتؤرثها بالحقد على قوم بأعيانهم ، وتُدرّبه على كرائم الخلق كالصدق والأمانة والوفاء وحب المجد ، والتطلع إلى العلياء ، والجرأة المستنفرة التي لا تتهيب .. فلما ماتت رثاها بقصيدة تدلّ على أنها كانت تملأ عليه أقطار نفسه[2] .

(٣) عصره ومجتمعه :

فقد وجد المتنبي في عصر " عظمت الشخصية الفردية فيه حتى انتهت من القوة إلى حد لم تبلغه قط في التاريخ الإسلامي ، وضعفت قوة الجماعة حتى كادت لا تكون شيئًا يذكر ، ونشأ عن ذلك أن قويت الأثرة ، وتحكمت في الأفراد ، وتسلطت على سيرتهم وتفكيرهم ، وامّحى الإيثار أو كاد يمحى

---

(١) السابق ٢٣٣/٤ .
(٢) المتنبي – شاكر ص١٩١ .



، وضعف تأثير العواطف الطبيعية التي تعتمد عليها الحياة الاجتماعية المستقرة ، ولم يكن غريبًا أن يمكر الصديق بصديقه ، ويغدر الخليل بخليله ، ويكيد الابن لأبيه ، ويبغي الأخ على أخيه ، وتنتهك الحرمات التي أمر الله أن ترعى " .

" في هذه البيئة التي كان الدم يصبغها من حين إلى حين ، ثم لا يكاد يجف حتى يسفك دم آخر ولد المتنبي .. بيئة كان يصبغها صبغ آخر ليس أقل نكرًا من سفك الدم ، هو النهب والسلب ، واستباحة الأعراض وانتهاك الحرمات ، والاستخفاف بقوانين الخلق والدين ... "(١) .

كانت الحالة السياسية في عصر المتنبي صاخبة مضطربة ، مليئة بالفوضى في نواحيها السياسية والدينية والمذهبية ، وما ينشأ عن هذا من فتن وقلاقل وثورات وتخريب ، وتحزبات لأمراء أو مذاهب ، وقيام دولة وسقوط أخرى ، وقد عم لهذا الإجرام واستخفاف الناس بالخلق والدين ، مما ساعد وهيأ على إيجاد فرق مخرفة مفسدة(٢) .

ضعفت الإمبراطورية العباسية ضعفًا مهينًا ، أدى بها إلى الانقسام والتفتت ، ونشأت دويلات مستقلة هنا وهناك .

وبسط الإخشيديون سلطانهم في جنوبي الشام ، ففاضت نفس المتنبي بالسخط على الأوضاع السياسية الفاسدة التي يراها بعينه ؛ إذ رأى كيف يتحكم الأعاجم في العرب ، وكيف أصبح العرب يرعاهم هؤلاء العبيد كأنهم قطعان من غنم لا حول لها ولا قوة(٣) .. يقول :

---

(١) مع المتنبي ص٣١ ، ٣٢ – ط/ ١١ .
(٢) أبو الطيب – بلاشير ص٨–١٠ .. وانظر : المتنبي ب/ شاكر ص١٩٢ .
(٣) في الشِّعْر العباسي – نحو منهج جديد – د/ يوسف خليف ص١٢٤ .. والأبيات في الديوان ٤/١٧٩ ، ١٨٠ .



وَإنَّمـــا النـــاسُ بِـــالمُلوكِ وَمـــا ∴ تُفلِـــحُ عُـــربٌ مُلوكُهـــا عَجَـــمُ
لا أَدَبٌ عِنـــــدَهُم وَلا حَسَـــــبٌ ∴ وَلا عُهـــودٌ لَهُـــم وَلا ذِمَـــــمُ
بِكُـــلِّ أَرضٍ وَطِئتُهـــا أُمَـــمٌ ∴ تُرعـــى لِعَبـــدٍ كَأَنَّهـــا غَـــنَمُ
يَستَخشِـــنُ الخَـــزَّ حـــينَ يَلمَسُـــهُ ∴ وَكـــانَ يُبـــرى بِظُفـــرِهِ القَلَـــمُ

كما كان عصرًا " شديد التناقض ، يكاد يخلو من الانسجام مع نفسه لما يعج به من أضداد .. كان عصرًا لا يلتقي بسهولة مع رجل بهذه الأنفة وهذا التوحد ، رجل مستقل الموقف والنظرة ، يصدر عن فعل نابع من مبدأ أو رؤية تدفعه من الداخل مشفوعة عبر هبة لفظية وإبداعية خارقة "[(١)] .

من ثَمّ امتلأت نفسه سخطًا ، وأحس بالوحدة والغربة في هذا المجتمع ، الذي يراه سلبيًّا ، كأنه يقاد بالرسن .. وداعبَتْه نفسه ، وتحركت مطامحه أن يكون ملكًا أو على الأقل أميرًا ، فهو أهل لذلك ، وقد صرح به في شعره ، وجرّ عليه متاعب خطيرة .

أبرز صفاته :

اتصف المتنبي بصفات عديدة كان من أبرزها :

* القوة ، والاستعلاء ، وفرط الإعجاب بالنفس ، والغرور ، يقول[(٢)] :

إن أَكُـــن مُعجَبًـــا فَعُجـــبُ عَجيـــبٍ ∴ لَـــم يَجِـــد فَـــوقَ نَفسِـــهِ مِـــن مَزيـــدِ

ويقول[(٣)] :

أَمِـــط عَنـــكَ تَشـــبيهي بِمـــا وَكَأَنَّـــهُ ∴ فَمـــا أَحَـــدٌ فَـــوقي وَلا أَحَـــدٌ مِثلـــي

ويقول[(٤)] :

(١) المتنبي وشعره : التناقص والحل – ينابيع الرؤيا – جبرا إبراهيم جبرا .
(٢) الديوان ٤٧/٢ .
(٣) الديوان ٢٨١/٢ .
(٤) السابق ١٥٩/١ .



وَفُـؤادي مِـنَ المُلـوكِ وَإِن كـا ∴ نَ لِسـاني يُـرى مِـنَ الشُـعَراءِ

ويرى نفسه أشعر الشعراء جميعًا منذ الجاهلية ، وأن الشعراء عالة عليه ، فهو السابق وهم مصلون ، يقول[1] :

أَجزنـي إِذا أُنشِـدتَ شِـعرًا فَإِنَّمـا ∴ بِشِـعري أَتـاكَ المـادِحونَ مُـرَدَّدا

وَدَع كُـلَّ صَـوتٍ غَيـرَ صَـوتي فَـإِنَّني ∴ أَنـا الصـائِحُ المَحكِـيُّ وَالآخَـرُ الصَـدى

ويقول[2] :

أَنـا السـابِقُ الهـادي إِلـى مـا أَقولُـهُ ∴ إِذِ القَـولُ قَبـلَ القـائِلينَ مَقـولُ

ويقول[3] :

إِنَّ هَـذا الشِـعرَ فـي الشِـعرِ مَلَـك ∴ سـارَ فَهـوَ الشَـمسُ وَالـدُنيا فَلَـك

ويقول[4] :

أَنـا الَّـذي نَظَـرَ الأَعمـى إِلـى أَدَبـي ∴ وَأَسـمَعَت كَلِمـاتي مَـن بِـهِ صَـمَمُ

أَنـامُ مِـلءَ جُفـوني عَـن شَـوارِدِها ∴ وَيَسـهَرُ الخَلـقُ جَرّاهـا وَيَختَصِـمُ

ويقول[5] :

لا تَجسُـرُ الفُصَـحاءُ تُنشِـدُ هَهُنـا ∴ بَيتًـا وَلَكِنّـي الهِزَبـرُ الباسِـلُ

مـا نـالَ أَهـلُ الجاهِلِيَّـةِ كُلُّهُـم ∴ شِـعري وَلا سَـمِعَت بِسِـحرِيَ بابِـلُ

لقد كان ينظر إلى الناس من عل ، بعين السخط والازدراء ، متهمًا إياهم بالغباوة والحقارة والجهل والسفاهة ..

وقد جر ذلك عليه متاعب جمة ، فكثر الحساد والحاقدون ومكروا له، وكان لذلك كُلّه عواقبه .

* الطموح وبعد الهمّة ، وعظم المطلب ، وانصرافه عن سفساف الأمور إلى

---

(١) السابق ٢/١٤ ، ١٥ .
(٢) الديوان ٣/٢٣٠ .
(٣) السابق ٣/١١٣ .
(٤) السابق ٤/٨٣ ، ٨٤ .
(٥) السابق ٣/٣٧٦ .

معاليها[1] .. وكان وراء هذا الطموح عبقرية ، ونبوغ ، وذكاء ، وبعد نظر ، فضلاً عن مكانته في عالم الشعر ، وشعره ذاخر بهذا الطموح – وسيرد بعضه في ثنايا هذه الدراسة – .

* صلابته وقوة شكيمته ، وإيمانه بمذهب القوة ، وكراهته للضعف والتخاذل والاستسلام ، وسيطر على أفكاره حب القتل والبطش وذلك منذ أن كان صبيًّا في (الكتاب) ، وكان غزير شعر الرأس ، منسدله ، فقيل له : ما أحسن هذه الوفرة ! فأجاب[2] :

لا تَحسُنُ الوَفرَةُ حَتّى تُرى ∴ مَنشورَةَ الضَّفرَينِ يَومَ القِتالِ
عَلى فَتىً مُعتَقِلٍ صَعدَةً ∴ يَعُلُّها مِن كُلِّ وافي السِبالِ[3]

وهو يؤمن بفلسفة القوة ، وتكوينه النفسي والمزاجي مشرب بهذه الرغبة .. يقول[4] :

لا يَسلَمُ الشَّرَفُ الرَفيعُ مِنَ الأَذى ∴ حَتّى يُراقَ عَلى جَوانِبِهِ الدَمُ

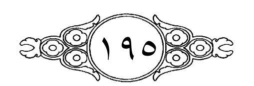
ويقول[5] :

وَمَن طَلَبَ الفَتحَ الجَليلَ فَإِنَّما ∴ مَفاتيحُهُ البيضُ الخِفافُ الصَوارِمُ

وديوانه ذاخر بتلك اللّغة ، لغة الدماء والقتل والبطش .

وهناك تشابه كبير بينه وبين طرفة بن العبد من حيث : النشأة ، واليتم ، والفقر ، والذكاء ، والنبوغ ، وما وقع على كليهما من ظلم ... إلخ .. ومثل هذه الشخصية لا ترضى الضيم ، ولا تقنع بالقليل ، لا تذل ولا تتطامن أو تخضع ، بل تجد وتدأب

(١) راجع : المتنبي – شاكر ص١٨٢ .
(٢) الديوان ٢٧٩/٣ .. وانظر : المتنبي – شاكر ص١٨٤ .
(٣) راجع : المتنبي في مصر والعراقيْن ص٤٢ وما قبلها ، وموازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء – د/ زهدي صبري الخواجا ص٦٣ .
(٤) الديوان ٢٥٢/٤ .
(٥) السابق ١٠٤/٤ .



وتسعى لتحصيل ما تستطيع من مجد[١] .

من هنا لم يكن كسائر الناس يتعلقون بأوطانهم ، ويحنون إليها ، إنما كان وطنه هو المكان الذي يرى فيه تحقيق أمله ، فآثر السفر والترحال ، والتنقل هنا وهناك ، فقال[٢] :

بِمَ التَعَلُّلُ لا أَهلٌ وَلا وَطَنُ ∴ وَلا نَديمٌ وَلا كَأسٌ وَلا سَكَنُ
أُريدُ مِن زَمَني ذا أَن يُبَلِّغَني ∴ ما لَيسَ يَبلُغُهُ مِن نَفسِهِ الزَمَنُ
لا تَلقَ دَهرَكَ إِلّا غَيرَ مُكتَرِثٍ ∴ مادامَ يَصحَبُ فيهِ روحَكَ البَدَنُ

وصار لشدة سعيه ودأبه وجده في سبيل تحقيق الحلم وكأنه يصارع الزمان ، يقول[٣] :

أَهُمُّ بِشَيءٍ وَاللَيالي كَأَنَّها ∴ تُطارِدُني عَن كَونِهِ وَأُطارِدُ

إلاّ أنه في رحلته تلك بحثًا عن المجد ، وسعيًا للإصلاح لم يجد معينًا له وظهيرًا ، ومن هنا كان إحساسه بالغربة والوحدة ، وبالتالي سخط على بني البشر جميعًا .. قال وهو في عنفوان شبابه[٤] :

إن أَكُن مُعجَبًا فَعُجبُ عَجيبٍ ∴ لَم يَجِد فَوقَ نَفسِهِ مِن مَزيدِ
أَنا تِربُ النَدى وَرَبُّ القَوافي ∴ وَسِمامُ العِدا وَغَيظُ الحَسودِ
أَنا في أُمَّةٍ تَدارَكَها اللَـ ـهُ غَريبٌ كَصالِحٍ في ثَمودِ

يا لها من نفس متوثبة ، وروح ثائرة ، تدور عليها دائرة اليأس ، ويضيع الحلم أدراج الرياح ، وتكاد النفس تذهب حسرات لما في الأمة من سلبية ، وعدم مبالاة ، وتخل عن الحق ، وسكوت على الظلم !!

يقول الأستاذ العقاد[٥] : " والحقيقة أن المتنبي جهل نفسه ، ولم يكن

(١) راجع كتابنا : تمرد طرفة : أسبابه وأصداؤه في شعره .
(٢) الديوان ٤/٣٦٣ ، ٣٦٤ .
(٣) السابق ١/٣٩٢ .
(٤) السابق ٢/٤٧ ، ٤٨ .
(٥) مطالعات في الكتب والحياة ص١٢٥ وما بعدها .



صادق النظرة في أمله ، فأضله الأمل الكاذب عن كنه قدرته وطبيعة عظمته ، وأحس من نفسه السمو والنبالة ، فظن أن السمو لا يكون إلاّ بين المواكب والمقانب ، وأن النبالة لا تصح إلاّ لذي تاج وصولجان ، وعرش وإيوان ، وسيف يضرب الأعناق ، ورمح يرتوي بالدماء ، وقد كان الحال كذلك في عصره ، وكان هذا المجد الذي لا مقياس غيره ... " .. " وظل يسعى طول حياته إلى شيء وأراد الله به شيئًا آخر ، فأحسن الله إليه من حيث أراد هو أن يسئ إلى نفسه ... " .

بين يدي القصيدة

ظلت حياة المتنبي تتراوح بين اليأس والأمل ، وبين القنوط والطموح ، حتى جاء اليوم الذي أشرقت فيه آماله ، وغاب يأسه وقنوطه ، حين اتصل بسيف الدولة ٣٣٧هـ .

قضى المتنبي في بلاط سيف الدولة وإلى جواره تسعة أعوام ، أُكرم فيها أيما إكرم .. ووجد المتنبي في سيف الدولة وبيئته ضالته المنشودة ، إذ كانت بيئة فروسية ، وشجاعة ، وإقدام ، وغزو ، وحرب ، وكر وفر ، ونصر ، وهجوم ، ودفاع .. وهي أمور تتفق في مجملها مع طبيعة المتنبي المحبة للقتال ، النازعة إلى رؤية الدماء تهرق ، والأرواح تزهق .. وجد المتنبي في سيف الدولة الغازي المنتصر القوي ، وهناك أوحى إليه إلهامه الشِّعْريّ بنوع جديد من الشِّعْر ، فيه القوة كُلّ القوة ، وفيه كُلّ ما يتطلبه من تعبير عن ذاته وهو في كنف هذا الأمير العربيّ الذي استصحبه معه في غزواته وأدناه منه ليسجل ويصف ما يراه رؤيا العين[١] .

---

(١) راجع : الخيال الشِّعْريّ عند أبي الطيب المتنبي ص١٣ وما بعدها ، وأبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ص٦٩ .



ولما كان كُلّ ذي نعمة محسودًا فقد كثر حساد المتنبي ، وزاد من حسدهم له ، وغيظهم منه ، وحقدهم عليه صلفُه وغروره واحتقاره لغيره من الشعراء وغيرهم .

" وكان من عيوب المتنبي – إن صح أنها عيوب – أنه كان من واقع فرديته الشديدة لا ينظر بعين الرضا إلاّ إلى الشخصية المحورية فقط ، أمّا الورزاء والكتاب ... إلخ فلم يكن يلقي بالاً لهم ، بل قد كان يلذ له أن يستثيرهم ، من هنا كانت تسهل الوقيعة به "(١) .. فهؤلاء (الملأ) ، وما أدراك ما الملأ ؟!

فقد نجح هؤلاء في الكيد له وصنع جفوة بينه وبين سيف الدولة ..

وما كان من المتنبي إلاّ أن غادر حلب وأميرها ، قاصدًا مصر وكافورها .. ذهب إلى مصر يدفعه غروره بأنه سيحصل على كُلّ ما يريد ، وأن لكافور الشرف بوجود المتنبي في مملكته وإلى جواره .

ورحب كافور بالمتنبي ، وأكرم وفادته ، ونال الكثير من مدائحه .. إلاّ أن المتنبي لم يكن يريد مالاً ولا شيء غير ولاية من ولايات مصر يوليه عليها كافور .. يقول في إحدى مدائحه(٢) :

إلى الَّذي تَهَبُ الدَّولاتِ راحَتُهُ ∴ وَلا يَمُنُّ عَلى آثارِ مَوهوبِ

ويقول مستنجزًا وعده له بالولاية(٣) :

فَإِن نِلتُ ما أَمَّلتُ مِنكَ فَرُبَّما ∴ شَرِبتُ بِماءٍ يَعجِزُ الطَيرَ وِردُهُ

وَوَعدُكَ فِعلٌ قَبلَ وَعدٍ لِأَنَّهُ ∴ نَظيرُ فَعالِ الصادِقِ القَولِ وَعدُهُ

---

(١) دراسات في النص الشِّعْريّ ص١٨٣ – د/ عبده بدوي .

(٢) الديوان ٢٩٦/١ .

(٣) السابق ١٢٨/٢ .



بل يقول في صراحة[1] :

إذا لَـم تَـنُط بـي ضَـيعَةَ أَو وِلايَـةَ ∴ فَجـودُكَ يَكسـوني وَشُـغلُكَ يَسـلُبُ

وكان لكافور في المتنبي رأي جعله يخشى لو ولاه ولاية[2] .

وجد المتنبي في كافور مماطلاً ، فشعر بخيبة أمله ، وضلال سعيه ، وندم على مغادرته وقدومه إلى مصر .

واستبد القلق به ، وألحت عليه الحيرة ، وكانت " صفحة طويلة من الصراع بين المتنبي بسبب طموحه وبعد همته ، وبين كافور بسبب حرصه ودهاء سياسته وحصافته ... "[3] .

وأحس كافور بما يفكر فيه المتنبي وهو الهروب من مصر ، فخشي من سلاطة لسانه ، ومن ثَمّ ضرب عليه سورًا من العيون والجواسيس ترصد حركاته ، وترقب تصرفاته ، وتحول بينه وبين الخروج الذي أصبح فؤاده فارغًا من كُلّ شيء إلاّ منه ..

وبذلك حدد كافور إقامة الشّاعر ، فكان سجنًا رهيبًا ، وزاد الطين بلة مهاجمة (الحمى) له هناك ..

وهنا انهدّت الآمال المبنية ، وانهارت المطامح ، وأخفق الشّاعر في رحلته ..

" وهناك في الغالب تلازم بين الإبداع الفني والإخفاق فيما تواضع عليه الناس من أمور الحياة ، ومن هنا لا يجد الشّاعر مناصًا من الاعتصام بذاته ، ثم يتحول إمّا إلى طفولة مغلوبة ، أو رجولة متمردة .. ولقد كان

(١) السابق ٣٠٧/١ .

(٢) نُسب إلى كافور أنه قال للمتنبي : " أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سمَت نفسك إلى النّبوّة ، فإن أصبت ولاية وصار لك أتباع فمَن يطيقك ؟ " .. راجع : الصبح المنبى ص١١٢ ، ومقدمة الديوان – شرح البرقوقي ص٥١ .

(٣) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ص٢٩١ .

المتنبي من النوع الأخير ... "[1] .

كانت رائعة المتنبي (الميمية) صدًى وأثرًا ونتيجة لهذه الأحداث ، وقد أنشدها في ذي الحجة ٣٤٨هـ .

القصــــيدة[*]

١ – مَلومُكُمــا يَجِــلُّ عَــنِ المَــلامِ ∴ وَوَقــعُ فَعالِــهِ فَــوقَ الكَــلامِ[٢]

٢ – ذَرانــــي وَالفَــلاةَ بِــلا دَليــلٍ ∴ وَوَجهــي وَالهَجيــرَ بِــلا لِثــامِ[٣]

٣ – فَــإِنّي أَســتَريحُ بِــذي وَهَــذا ∴ وَأَتعَــبُ بِالإِناخَــةِ وَالمُقــامِ[٤]

٤ – عُيــونُ رَواحِلــي إِن حِــرْتُ عَينــي ∴ وَكُــلُّ بُغــامِ رازِحَــةٍ بُغــامي[٥]

٥ – فَقَــد أَرِدُ المِيــاهَ بِغَيــرِ هــادٍ ∴ سِــوى عَــدّي لَهــا بَــرقَ الغَمــامِ

٦ – يُــذِمُّ لِمُهجَتــي رَبّــي وَسَــيفي ∴ إِذا احتــاجَ الوَحيــدُ إِلــى الــذِمامِ[٦]

٧ – وَلا أُمســي لِأَهــلِ البُخــلِ ضَــيفًا ∴ وَلَــيسَ قِــرًى سِــوى مُــخِّ النِعــامِ[٧]

٨ – فَلَمّــا صــارَ وُدُّ النــاسِ خِبًّــا ∴ جَزَيــتُ عَلــى ابتِســامٍ بِابتِســامِ[٨]

٩ – وَصِــرتُ أَشُــكُّ فــيمَن أَصــطَفيهِ ∴ لِعِلمــي أَنَّــهُ بَعــضُ الأَنــامِ

---

(١) دراسات في النص الشِّعْريّ ص١٨٤ – د/ عبده بدوي .

(*) الديوان ٤/٢٧٢–٢٨٠

(٢) يجل : يعظم . الكلام – بفتح الكاف – ، وقال ابن القطاع : أراد الكلام وهي الجراحات .

(٣) ذراني : اتركاني . الهجير : حَرّ الظهيرة . اللثام : الغطاء .

(٤) بذي : أي بالفلاة . وهذا : أي بالهجير . الإناخة : النزول . المقام : الإقامة .

(٥) الرواحل : جمع راحلة وهي الناقة . حرت : تحيّرت . البغام : صوت للناقة لا تفصح به ، وقيل : هو صوتها عند التعب . الرازح من الإبل : الهالك هزالاً ، ورزحت الناقة ترزح رزوحًا ورزاحًا : سقطت من الإعياء هزالاً .

(٦) مهجتي : روحي . الذمام : العهد والخفارة .

(٧) وليس قرى : أي وليس لي قرى .

(٨) الخب : المكر . الود : الحب والصداقة .



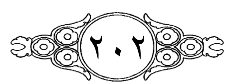
١٠ – يُحِبُّ العاقِلونَ عَلى التَصافي ∴ وَحُبُّ الجاهِلينَ عَلى الوَسامِ[١]
١١ – وَآنَفُ مِن أَخي لِأَبي وَأُمّي ∴ إذا ما لَم أَجِدهُ مِنَ الكِرامِ[٢]
١٢ – أَرى الأَجدادَ تَغلِبُها كَثيرًا ∴ عَلى الأَولادِ أَخلاقُ اللِئامِ[٣]
١٣ – وَلَستُ بِقانِعٍ مِن كُلِّ فَضلٍ ∴ بِأَن أُعزى إِلى جَدٍّ هُمامِ[٤]
١٤ – عَجِبتُ لِمَن لَهُ قَدٌّ وَحَدٌّ ∴ وَيَنبو نَبوَةَ القَضِمِ الكَهامِ[٥]
١٥ – وَمَن يَجِدُ الطَريقَ إِلى المَعالي ∴ فَلا يَذَرُ المَطِيَّ بِلا سَنامِ[٦]
١٦ – وَلَم أَرَ في عُيوبِ الناسِ شَيئًا ∴ كَنَقصِ القادِرينَ عَلى التَمامِ
١٧ – أَقَمتُ بِأَرضِ مِصرَ فَلا وَرائي ∴ تَخُبُّ بِيَ المَطِيُّ وَلا أَمامي[٧]
١٨ – وَمَلَّنِيَ الفِراشُ وَكانَ جَنبي ∴ يَمَلُّ لِقاءَهُ في كُلِّ عامِ
١٩ – قَليلٌ عائِدي سَقِمٌ فُؤادي ∴ كَثيرٌ حاسِدي صَعبٌ مَرامي
٢٠ – عَليلُ الجِسمِ مُمتَنِعُ القِيامِ ∴ شَديدُ السُكرِ مِن غَيرِ المُدامِ[٨]
٢١ – وَزائِرَتي كَأَنَّ بِها حَياءً ∴ فَلَيسَ تَزورُ إِلّا في الظَلامِ[٩]
٢٢ – بَذَلتُ لَها المَطارِفَ وَالحَشايا ∴ فَعافَتها وَباتَت في عِظامي[١٠]

---

(١) التصافي : الصفاء . الوسام : الوسامة والحسن .
(٢) آنف : استنكف .
(٣) الأجداد : الآباء ، وقد تعني : الحظوظ .
(٤) أعزى : أنسب . همام : سيد شجاع .
(٥) قد : قامة . حدّ : حد السيف . ينبو : يكل عن الضرب به . القضم : السيف المفلل . الكهام : الذي لا يقطع .
(٦) المطي : الإبل . السنام : ما ارتفع من ظهر البعير .
(٧) تخب : الخبب : ضرب من السير . المطي : الإبل .
(٨) المدام : الخمر .
(٩) زائرتي : يقصد الحمى .
(١٠) المطارف : جمع مطرف ، وهو الذي في جنبه علمان ، وقيل : هو رداء من حرير مربع ذو أعلام تلبسه الحسناوات . الحشايا : جمع حشية ، وهي ما حشي من =

٢٣ – يَضيقُ الجِلدُ عَن نفسي وَعَنها .'. فَتوسِعُهُ بِأَنواعِ السِّقامِ
٢٤ – إذا ما فارَقَتني غَسَّلَتني .'. كَأَنّا عاكِفانِ عَلى حَرامِ
٢٥ – كَأَنَّ الصُّبحَ يَطرُدُها فَتَجري .'. مَدامِعُها بِأَربَعَةٍ سِجامِ(١)
٢٦ – أُراقِبُ وَقتَها مِن غَيرِ شَوقٍ .'. مُراقَبَةَ المَشوقِ المُستَهامِ(٢)
٢٧ – وَيَصدُقُ وَعدُها وَالصِدقُ شَرٌّ .'. إذا أَلقاكَ في الكُرَبِ العِظامِ
٢٨ – أَبِنتَ الدَّهرِ عِندي كُلُّ بِنتٍ .'. فَكَيفَ وَصَلتِ أَنتِ مِنَ الزِحامِ(٣)
٢٩ – جَرَحتِ مُجَرَّحًا لَم يَبقَ فيهِ .'. مَكانٌ لِلسُيوفِ وَلا السِّهامِ
٣٠ – أَلا يا لَيتَ شَعرَ يَدي أَتُمسي .'. تَصَرَّفُ في عِنانٍ أَو زِمامِ(٤)
٣١ – وَهَل أَرمي هَوايَ بِراقِصاتٍ .'. مُحَلّاةِ المَقاوِدِ بِاللُّغامِ(٥)
٣٢ – فَرُبَّتَما شَفَيتُ غَليلَ صَدري .'. بِسَيرٍ أَو قَناةٍ أَو حُسامِ(٦)
٣٣ – وَضاقَت خُطَّةٌ فَخَلَصتُ مِنها .'. خَلاصَ الخَمرِ مِن نَسجِ الفِدامِ(٧)
٣٤ – وَفارَقتُ الحَبيبَ بِلا وَداعٍ .'. وَوَدَّعتُ البِلادَ بِلا سَلامِ
٣٥ – يَقولُ لي الطَّبيبُ أَكَلتَ شَيئًا .'. وَداؤُكَ في شَرابِكَ وَالطَّعامِ

= الفرش مما يجلس عليه . عافتها : كرهتها وأبتها .
(١) سجام : سجم الدمع أي سال وانسكب ، وأربعة سجام : أي مجاري الدمع ، وهي : الموقان في مقدم العين ، واللحاظان في مؤخرها .
(٢) المستهام : العاشق الذي هام بمعشوقه .
(٣) بنت الدهر : الحمى ، وبنات الدهر : شدائده ومصائبه .
(٤) يا ليت شعر يدي : يا ليت يدي تعلم . العنان : سير اللجام . الزمام : مقود الإبل .
(٥) هواي : يقصد أهدافه التي يتمنى تحقيقها . براقصات : أي إبل ترقص ، والرقص هو ضرب من السير . محلاة : مزينة بحلي . المقاود : جمع مِقْوَد وهو زمام الناقة أو البعير . اللغام : لعاب الإبل وهو الذي يخرج من أفواهها على هيئة زبد أبيض .
(٦) الغليل : العطش ، وقد يراد به كُلّ ما حز في الصدر من حقد وغيره . قناة : رمح . حسام : سيف قاطع .
(٧) خطة : الخطة هي الأمر أو التدبير المحكم . خلصت منها : خرجت منها خالصًا سليمًا . الفدام : ما يجعل على فم الإبريق ونحوه ليصفى فيه .



٣٦ – وَمــا فــي طِبِّــهِ أَنّــي جَــوادٌ .·. أَضَــرَّ بِجِســمِهِ طــولُ الجِمــامِ[١]

٣٧ – تَعَــوَّدَ أَن يُغَبِّــرَ فــي السَّــرايا .·. وَيَــدخُلَ مِــن قَتــامٍ فــي قَتــامِ[٢]

٣٨ – فَأُمسِــكَ لا يُطــالُ لَــهُ فَيَرعــى .·. وَلا هُــوَ فــي العَليــقِ وَلا اللِجــامِ[٣]

٣٩ – فَــإِن أَمــرَض فَمــا مَــرِضَ اصــطِباري .·. وَإِن أُحمَــم فَمــا حُــمَّ اعتِزامــي[٤]

٤٠ – وَإِن أَســلَم فَمـــا أَبقــى وَلَكِــن .·. سَـلِمتُ مِـنَ الحِمـامِ إِلـى الحِمـامِ[٥]

٤١ – تَمَتَّــع مِــن سُــهادٍ أَو رُقــادٍ .·. وَلا تَأمُــل كَــرىً تَحــتَ الرِّجــامِ[٦]

٤٢ – فَــإِنَّ لِثالِــثِ الحــالَينِ مَعنــىً .·. سِــوى مَعنــى انتِباهِــكَ وَالمَنــامِ[٧]

الاغتراب المرير[*]

(١) التوحد مع الفلاة والهجير :

١ – مَلومُكُمــا يَجِــلُّ عَــنِ المَــلامِ .·. وَوَقــعُ فَعالِــهِ فَــوقَ الكَــلامِ

٢ – ذَرانــي وَالفَــلاةُ بِــلا دَليــلٍ .·. وَوَجهــي وَالهَجيــرَ بِــلا لِثــامِ

٣ – فَــإِنّي أَســتَريحُ بِــذي وَهَــذا .·. وَأَتعَــبُ بِالإِناخَــةِ وَالمُقــامِ

---

(١) الجمام : الراحة .

(٢) يغبر : يثير الغبار . السرايا : جمع سرية وهي القطعة من الجيش . القتام : الغبار الكثيف ، وأراد بقوله : " دخول القتام " : حضور الحرب .

(٣) فأمسك : أي الجواد . لا يطال له : أي لا يُرخى لـه الحبل المربوط به فيرعى حتى يشبع . العليق : ما يوضع في المخلاة لتتبلغ به الدابة في سفرها . اللجام : مقود الفرس ، والمعنى : أنه نزع منه اللجام فلا حاجة لركوبه ، أي جُرّد من كُلّ شيء .

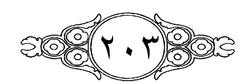
(٤) أحمم : من الحمى .

(٥) الحمام : الموت .

(٦) السهاد : السهر والأرق . الكرى : النوم . الرجام : القبور ، واحدها : رجم ، وأصلها حجارة ضخام تجعل على القبر .

(٧) ثالث الحالين : الموت .

(*) هذا الاغتراب ليس مقصورًا على هذه الأبيات – في بداية القصيدة – بل يسري داخل القصيدة حتى نهايتها – كما سنبيّن – .



يبدأ الشاعر قصيدته متأثرًا بالتراث الشِّعْريّ ، فهو يخاطب اثنين على عادة القدماء (**مَلومُكُما**) .. ويخالفهم في أنه لم يستدر عطفهم حتى يدعا لومه ، وإنما يعلن – في أنفة واعتداد بالنفس – أنه أكبر قدرًا وأعظم من أن يلام ، وبالتالي فهما أقل شأنًا ، وأحقر قدرًا من أن يلوماه .

وإذا كان النقاد المحدثون قد انتبهوا إلى أهمية المطلع في الدلالة على نفسية الشاعر وقت إنشاء قصيدته ، ودلالته على جانب كبير من شخصية الشاعر ، أو على مفتاح تلك الشخصية(١) فإن هذه الميمية أبانت عن الأمرين معًا في مطلعها : إنه يدلّ على شخصية المتنبي الذي طالما افتخر بنفسه ، ليس كفخر الشعراء ، بل كان مغرورًا إلى أبعد مدى ، وكان – كما أسلفنا – ينظر إلى مَن سواه من فوق .. يحتقر الآخرين ، ولا يعبأ بهم .. وتأمل الألفاظ المستخدمة (**يَجِلُّ – فَوقَ ...**) .

ومنذ أوّل كلمة في المطلع يشعرك باغترابه في مجتمعه ، وذلك حين " استخدم الاسم الظاهر (**مَلومُكُما**) بدلاً من الضمير (أنا) ليعبر عن نفسه ، وكأنه يتحدث عن شخص غائب عنه "(٢) .

وأفعاله فوق مستوى الكلام فكيف تقيّم بكلام ؟! وإذا كان (الكلام) – بكسر اللام – فهو جمع كلم ، أي أن أفعالي أكبر قدرًا من أن يمسها سوء من جراء كلام الناس أو لومهم أو انتقادهم .

ويظهر – بوضوح شديد – منطق الإباء والرفض والتعالي على الغير في المطلع .. وفيه رفض المجتمع كله بما فيه وبمن فيه ؛ لأنه على باطل وخطأ ، كما أن فيه الترفع والكبرياء والاعتداد بالنفس ، حتى في أوقات الشدة ..

---

(١) راجع : مطلع القصيدة العربيّة : دلالته النفسية – د/ عبد الحليم حفني – ط/ هيئة الكتاب .
(٢) في ميزان النقد الأدبي ص٩٨ .



وتأمل وحي الكلمات **(يَجِلُّ)** و**(وَقعُ)** تجد الأولى معبرة عن المكان الذي يضع نفسه فيه ، عن الجلال والقداسة .. والثانية حاكية لشدة الأثر للفعال الكريم الذي لا يصدر إلاّ عنه .

كما لا ننسى لفظ **(فَعال)** – بفتح الفاء – وهو موضوع للفعل الكريم ، وأن هذا الوزن فيه معنى العلو والانطلاق ، ولهذا جاء منه : سَماء ، سَحاب ... وأشباههما[١] .

وفي بيته الثاني إيحاء بالقيود والأغلال التي أحاطت به ، وهو يحاول الخلاص منها ، وهي عيون أو جواسيس (كافور) التي بثها حول مكان إقامة المتنبي ترقبه وترصد حركاته – كما سيأتي – ، وذلك من خلال لفظة واحدة هي قوله : " **ذَراني** " التي تشعرك بأنه في زنزانة كافور ، ويتمنى الخلاص والانطلاق .

ويلجأ الشاعر إلى **(الفَلاة)** – على عادة القدماء ، حين كانوا يحملون همومهم على نوقهم ليصرموها في تلك **(الفَلاة)** – .

وهو إذ يرحل إلى **(الفَلاة)** يقرر أنه " قادر على اختراقها ، مغمض العينين ، فلديه خبرة طويلة بذلك ، لقد سلكها ودوّخها – كما كان يقول القدماء في وصف أدلائهم في الصحراء – جريئًا على اقتحامها دون دليل يهديه ، سعيدًا بما يلاقيه فيها من أهوال وصعاب .. ها هو بدوي ، ابن فلاة ، تناديه فيلبي نداءها ، بل هو يسعى إليها من غير نداء ، وهكذا ذهب يصور فتنته الطاغية بتلك الفلاة "[٢] .

حتى الفلاة هو خبير بها ، ولا يحتاج إلى هاد أو دليل ، فهو يؤثر الوحدة في البيداء على العيش مع الناس في القصور ، وإن جرّ

(١) اتجاهات وآراء في النقد الحديث ص١٠٨ .
(٢) في الشِّعْر العباسي – د/ يوسف خليف ص١٥٠ " بتصرف قليل " .



عليه ذلك ما جرّ .. ومنطق الرفض يسري مع البيت – كذلك – في قوله : " **بِلا دَليلٍ** " .

وهو يفضل مع الفلاة لفح الهجير ، وأرى أنه يرمز بذلك إلى صفة من صفاته وهي الصدق والصراحة والجرأة في الحق ، وأنه لا يظهر خلاف ما يبطن وإن كلفه ذلك ما كلفه (**بِلا لِثامِ**) .

وفيه إشارة إلى خصال سيئة سادت المجتمع آنذاك من : نفاق ، ومداهنة ، وسكوت على ظلم ... إلخ .

وكأني بالشاعر وقد تعجل الإشارة إلى حال شعب مصر الذي سكت على الظلم ورضي بأن يُحكم من عبد أسود ، وكان – في نظر المتنبي – شعبًا سلبيًّا يرضى بالذل والهوان .

ويعلق الدكتور مصطفى ناصف على الأبيات قائلاً[(١)] : " وأولى بنا في مثل هذه الأبيات إذا أخذت مأخذًا خاليًا من الشعور بالنقص إلى حدّ ما أن يُقال : إن الشاعر يبحث عن الحياة الساذجة النقية ، أو يريد أن يعود إلى الطبيعة ، أو يحلم بما يشبه مغامرات الطفولة التي لا تبعد كثيرًا عن مغامرات الشِّعْر والإلهام .. ومع ذلك فإننا لا نستطيع مهما نتعلق بفكرة الصحراء والعودة إليها وما يحمله ذلك من شعور إيجابي يجب أن يؤخذ في الحسبان لا نستطيع أن نتجاهل كيف يعرض الشاعر نفسه لطيش العذاب ، وكيف يحب الفلاة والهجير حبًّا يدعو إلى النظر " .

" والهجير نمط متعارف عليه ، يعبر الشاعر من خلاله عن العجز عن التكيف مع المجتمع .. فإذا كان هذا العجز قصد إلى ما يسميه الرحلة ، وأشاد بالعزلة والانفراد ، وأحب السفر وكره الإقامة ، فلا يخلو ذلك من

---

(١) اللّغة بين البلاغة والأسلوبية ص٣٥٨ .



صدى العجز والقلق والرغبة في العكوف على الذات غير المتصلة في قرارتها بالناس " .

والسفر وتجشم المتاعب والمشاق أمر يعشقه المتنبي عشقًا ، فهو القائل في مرثيته جدته[1] :

لَئِن لَذَّ يَومُ الشامِتينَ بِيَومِها .:. فَقَد وَلَدَت مِنّي لِأَنفِهِمُ رَغما
تَغَرَّبَ لا مُستَعظِمًا غَيرَ نَفسِهِ .:. وَلا قابِلاً إِلّا لِخالِقِهِ حُكما
وَلا سالِكًا إِلّا فُؤادَ عَجاجَةٍ .:. وَلا واجِدًا إِلّا لِمَكرُمَةٍ طَعما
يَقولونَ لي ما أَنتَ في كُلِّ بَلدَةٍ .:. وَما تَبتَغي ما أَبتَغي جَلَّ أَن يُسمى

ولطالما سافر ، وارتحل ، وتنقل بغية تحقيق الأمل وإصابة الهدف .. وإذا كان من طباع الناس حنينهم إلى أوطانهم ، وركونهم إليها مع ما يجدون من مضايقات وآلام فإن " المتنبي لا يفزع ولا يألم أن يفارق وطنه إذا نبا فيه المقام ، ولا يهمه أن يجد في أسفاره الشاقة ما يركبه ، ففي طاقته السير على الأقدام ، وملاقاة أهوال الطبيعة التي لا تطاق ، والقدرة على تخطيها ... "[2] .. يقول[3] :

غَنِيٌّ عَنِ الأَوطانِ لا يَستَفِزُّني .:. إِلى بَلَدٍ سافَرتُ عَنهُ إِيابُ
وَعَن ذَمَلانِ العيسِ إِن سامَحَت بِهِ .:. وَإِلّا فَفي أَكوارِهِنَّ عُقابُ
وَأَصدى فَلا أُبدي إِلى الماءِ حاجَةً .:. وَلِلشَمسِ فَوقَ اليَعمَلاتِ لُعابُ

عجيب أمر هذا الرجل ، إن الناس يتعلقون بأوطانهم ، ويحنون إليها .. وكان من ضمن العقوبات في الشريعة الإسلامية (التغريب) – وفيه عذاب للنفس – سَنَةً للزاني غير المحصن .

أمّا المتنبي فإن وطنه الذي يستحق حبه هو المكان الذي تتحقق فيه

(١) الديوان ٤/٢٣٣ .
(٢) الشِّعْر العباسي – د/ أبو الأنوار ص٤٥٧ .
(٣) الديوان ١/٣١٦ ، ٣١٧ .

آماله وأحلامه ، فالآمال عنده أهم وأغلى من الوطن ، ومن ثَمّ ضرب في الأرض الواسعة يبحث عن ذلك الوطن الذي يحقق فيه هدفه .

لكن حب الوطن والإقامة فيه ليس أمرًا مفروضًا على كُلّ أحد ، فهل يُطلب ممن ظُلم أو ضُيّق عليه ، وسيم ألوان الخسف ، ووضعت العوائق في سبيل تحقيق آماله وطموحاته ، هل مثل هذا يحب وطنه ويقيم فيه ؟! لله در الشاعر :

لا أَذودُ الطَّيــرَ عَـن شَـجَرٍ ... قَـد بَلَـوتُ المُـرَّ مِـن ثَمَـرِه

وفي الذكر الحكيم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ (النساء : ٩٧) .

وللشعراء في ذلك الكثير ، قال الشنفرى في لاميته الرائعة(١) :

وَفـي الأَرضِ مَنـأى لِلكَـريمِ عَـنِ الأَذى ... وَفيهـا لِمَـن خـافَ القِلـى مُتَعَـزَّلُ

وقال المتلمس(٢) :

إِنَّ الهَـوانَ حِمـارُ القَـومِ يَعرِفُـهُ ... والحُـرُّ يُنكِـرُهُ والرَّسـلَةَ الأُجُـدُ

وَلَـن يُقيـمَ عَلـى خَسـفٍ يُسـامُ بِـهِ ... إِلاّ الأَذَلّانِ عَيـرُ الأَهـلِ وَالوَتِـدُ

هَـذا عَلـى الخَسـفِ مَربـوطٌ بِرُمَّتِـهِ ... وَذا يُشَـجُّ فمـا يَرثـي لَـهُ أَحَـدُ

وَفـي الـبِلادِ إِذا مـا خِفـتَ نـائِرَةً ... مَشـهورَةً عَـن وُلاةِ السَـوءِ مُبتَعَـدُ

ويقول عبد قيس بن خفاف البرجمي(٣) :

وَاتـرُك مَحَـلَّ السَـوءِ لا تَحلُـل بِـهِ ... وَإِذا نَبـا بِـكَ مَنـزِلٌ فَتَحَـوَّلِ

دارُ الهَـوانِ لِمَـن رَآهـا دارَهُ ... أَفَراحِـلٌ عَنهـا كَمَـن لَـم يَرحَـلِ

والمجال لا يسمح بأكثر مما ذكرناه ..

---

(١) لاميّة العرب – شرح عطاء الله المصري ص٤٠ – تح/ د/ عبد الله الغزالي – ط/ الكويت .
(٢) ديوانه ص٢٠٨ .
(٣) المفضليات رقم ١١٦ ص٣٨٥ .



(٢) توحده مع الناقة ولجوءه إلى ربه وسيفه :

٤ – **عُيُونُ رَواحِلي إن حِرْتُ عَيني ∴ وَكُلُّ بُغامِ رازِحَةٍ بُغامي**

٥ – **فَقَد أَرِدُ المِياهَ بِغَيرِ هادٍ ∴ سِوى عَدّي لَها بَرقَ الغَمامِ**

٦ – **يُذِمُّ لِمُهجَتي رَبّي وَسَيفي ∴ إذا احتاجَ الوَحيدُ إلى الذِّمامِ**

وينفض الشاعر يده من الإنس ، مؤثرًا الوحدة والتفرد ، مكتفيًا بالراحلة ، متوحدًا بها كما فعل عنترة وطرفة وامرؤ القيس ... وغيرهم .. فأصبحت راحته – كُلّ راحته – في البعد عن دنيا البشر ، أولئك الذين " لا يعاش في أكنافهم " .

على حدّ قول (لبيد) :

ذَهَبَ الَّذينَ يُعاشُ في أَكنافِهِم ∴ وَبَقيتُ في خَلفٍ كَجِلدِ الأَجرَبِ

لقد استبدل عالم الحيوان بعالم الإنسان كما استبدل السابقون (الشنفرى ، وتأبط شرا ، وسائر الصعاليك والمتمردون) .

لقد لجأ المتنبي إلى الحيوان ، فصار هاديًا له إن ضل ، وصوتًا له حين ينكتم صوته هو .. تمامًا كما فعل القدماء حين كانت الهموم تحيط بهم فلا يجدون سوى نوقهم يصرمون معها همومهم في الصحراء .. وقد شذ الصعاليك فاتخذوا من الوحش بديلاً عن تلك النوق .. وجدوا ضالتهم بديلاً عن الإنس في الذئب والضبع والغول ... وغيرها .

" وعيون الرواحل ، والماء ، والسيف هي أصدقاء صوت وحيد موحش ، وقد يكون ارتباط السيف بفكرة الوحدة والوحشة غريبًا " .

" لكن هذه الأبيات تجعل هذا التأويل سائغًا إلى حدّ ما ، فالسيف هنا صديق قوي خيالي يُطمأن إليه حين يعز الأصدقاء ، وليس تجسيمًا للزهو والانتصار ، ولا إشارة إلى التمكن والصلات الناجحة .. السيف أقرب إلى الوقاية الشخصية من المجتمع " .

" وإذا كانت فكرة السيف من أكثر الأفكار تنوعًا في الشِّعْر فهو هنا في مثل هذه الأبيات يعبر عن موقف العجز علن التكيف ، ويحصن الإنسان في داخل نفسه ضد المجتمع الذي لا يستطيع أن ينتمي إليه ، ولا يستطيع أن يتجاهل ضرورة هذا الانتماء "(١) .

وحقًّا ما قال الدكتور يوسف خليف : " إن المتنبي قد أعاد للقصيدة العربيّة روحها البدوي في غير انفصال عن روح العصر الجديد بما يحمله من ثقافات عقلية ، فحقق بهذا مزاوجة عبقرية بين بساطة البداوة وصفائها وفطريتها ، وبين ثقافات عصره العقلية بقضاياها المعقدة "(٢) .

أرأيت كيف كان الشاعر مغتربًا ؟ إن إيثاره عالم الفلاة على ما فيه من مخاطرة ورعب وفزع ، واختيار صحبته من الناقة وعيونها وصوتها ، وسيفه ، ولجوءه إلى ربه إنما هو تعبير عن الرفض التام لبني البشر ، أولئك الذين فيهم من الخلال السيئة والصفات القبيحة من النفاق والرياء والمداهنة والبخل ما يدفعه لهجرهم .

وفي قوله : " **إذا احتاجَ الوَحيدُ** " تشعر بمدى الغربة المؤلمة التي يعانيها ، فهو وحيد دائمًا ، وهو يرى نفسه أُمّة ، لا أحد غيره يدرك إدراكه ، ويطمح طموحه ، ويفهم فهمه ، ويتصف بالصفات الطيبة والخلال الحميدة مثله .. إذًا فليكن وحده ، وليرحل بعيدًا ..

٧ – **وَلا أُمسي لِأَهلِ البُخلِ ضَيفًا ∴ وَلَيسَ قِرىً سِوى مُخِّ النِعامِ**

وهو قريب من قول البحتريّ :

وَإذا ماجُفيتُ كُنتُ جَديرًا ∴ أَن أَرى غَيرَ مُصبِحٍ حَيثُ أُمسي

وهو يفضل الموت جوعًا على أن ينزل ببخيل ، وفيه تعريض بكافور

(١) اللّغة بين البلاغة والأسلوبية ص٣٥٩ .
(٢) تاريخ الشِّعْر في العصر العباسي ص٨ – ط/ القاهرة – مطبعة دار الثقافة ١٩٨١م .



الذي بخل بتوليته ولاية من ولايات مصر .

وقد صرح بذلك في شعر له فقال في قصيدته (عيد)(١) :

إنّـــي نَزَلْـــتُ بِكَـــذّابينَ ضَـــيفُهُمُ ∴ عَــنِ القِــرى وَعَــنِ التَّرحــالِ مَحــدودُ
جــودُ الرِّجــالِ مِــنَ الأَيــدي وَجــودُهُمُ ∴ مِــنَ اللِّســانِ فَــلا كــانوا وَلا الجــودُ

ولم يكن كافور وحده المتصف بتلك الصفات ، وإنما الناس جميعًا ، صار النفاق لهم خُلقًا ، والرياء لهم طبعًا ، وليس هناك مخلص في وده وإنما أصبحوا خداعين ماكرين دجالين ...

و(**مُـخِّ النِعـامِ**) كبيض الديك ، تعبير ساخر عن العدم أو الاستحالة ، ثم عن الأمل الضائع الذي لا واقع له ، أمل الظمآن في سراب ، وكذلك كان أمله في كافور وفي رجال مصر من حوله عامة(٢) .

٨ – **فَلَمّــا صــارَ وُدُّ النــاسِ خِبًّــا ∴ جَزَيــتُ عَلــى ابتِســامٍ بِابتِســامِ**

وجل الذين تعرضوا لهذا البيت فهموا منه أن المتنبي يقابل الخداع بخداع ، يقول الدكتور مصطفى الشكعة – مثلاً – : " ضاق (المتنبي) ذرعًا بالناس جميعًا ، فكلهم في نظره فاسد الأخلاق ، مخادع ، الأمر الذي جعل منه هو الآخر إنسانًا مخادعًا مثلهم ، شاكًّا فيهم ، محتقرًا كُلّ لئيم ، حتى ولو كان هذا اللئيم أخًا شقيقًا من أمه وأبيه .. وهو هنا يفجر قضية خلقية ، أو بالأحرى قضية ربطها بالأخلاق ، مع أنها لم تخرج عن حدود كونها أمرًا شخصيًّا يتصل به دون غيره ... "(٣) .

(١) الديوان ١٤٢/٢ ، ١٤٣ .
(٢) اتجاهات وآراء ص١٠٩ ، ١١٠ .
(٣) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقيين ص٣٢٥ .. وانظر أيضًا : البرقوقي في شرحه للديوان ٢٧٤/٤ ، وموازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء ص٧١ ، إذ يقول عند البيت : " وعلى كره منه كان يتصنع الرياء أحيانًا " ، وفي ميزان النقد الأدبي ص٩٦ يقول د/ طه أبو كريشة : " إن هذا التحول والتغير والرياء ، أصابه بشيء غير قليل من دائهم ، فأصبح ينافقهم كما ينافقونه ، ويبتسم لهم في الوقت الذي

ولكنني أفهم غير ذلك ، فالمتنبي الذي رمز إلى صراحته ووضوحه وصدقه وكراهيته للثام – أي النفاق والمداهنة كما أسلفت في قوله – :

ذَراني وَالفَلاةَ بِلا دَليلٍ ∴ وَوَجهي وَالهَجيرَ بِلا لِثامِ

لا يمكن أن يقول عن نفسه إنه مخادع ، حتى ولو خدع .. والذي أفهمه أن الشاعر لا يبتسم إلاّ لمن ابتسم له ، يرد التحية بمثلها ، وليس في ذلك نفاق ولا خداع ، فإذا كان المبتسم خادعًا فلن يخسر المتنبي شيئًا إذا قابل ابتسامته بمثلها ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ (النساء : من ٨٦) .

وقد ذكروا أن كافورًا كان دائم الابتسام في وجه المتنبي ، فلما سمع هذه القصيدة لم يبتسم بعدها قط له[1] .. ولكن البيت يشير إلى سوء حال الناس ، وفساد طبعهم في ذلك العصر ، وقديمًا قال الفتى الجاهليّ طرفة بن العبد[2] :

مضى سلفًا أهل الحجا منه والتقى ∴ ولا خير في دهر تولت غرانقه
فلم يبق إلاّ شامت بمصيبة ∴ وذو حسد ما تستقيم طرائقه
عدو صديق عابس متبسم ∴ يعاملني بالمكر حين أوافقه
يجاملني جهرًا إذا ما لقيته ∴ وفي الصدر ما تهدي هديرًا شقاشقه

إلى أن يقول :

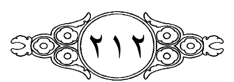
وأما رجال نافقوا في إخائهم ∴ ولست إذا أحببت حُرًّا أنافقه
قلوب الذئاب الضاريات قلوبهم ∴ وألسنهم أحلى الذي أنت ذائقه
فلست إليهم ما حييت براغب ∴ ولا خير في حب امرئ لا تطابقه

وقد أشرنا – فيما مضى – إلى أن هناك تشابهًا كبيرًا بين ظروف كُلّ من طرفة والمتنبي ، جعلت كلاًّ منهما غريبًا في مجتمعه .

يكون لهم فيه كراهية وبغضاء ... " .. والأبيات التالية تؤكّد فهمنا .

(١) وفيات الأعيان – ابن خلكان ١٠١/٤ .

(٢) الديوان – تح/ د/ عليّ الجندي ص٢٢٠-٢٢٣ .



٩ – وَصِرتُ أَشُكُّ فيمَن أَصطَفيهِ ∴ لِعِلمي أَنَّهُ بَعضُ الأَنامِ

لقد صار المتنبي يشك في كُلّ الناس ، وأصبح سوء الظن هو المسيطر عليه ، حتى في أقرب الأقربين ، بل حتى الذين يختارهم ويصطفيهم لا يأمن جانبهم ، وإنما يأخذ حذره منهم ، فيكفي أنهم **(بَعضُ الأَنامِ)** .

ومن قبله قال البحتريّ في سينيته :

وَلَقَد رابَني نُبُوّ ابنِ عَمّي ∴ بَعدَ لينٍ مِن جانِبَيهِ وَأُنسِ

مثل هذا الذي يرتاب في الناس جميعهم ألا يكون غريبًا في مجتمعه ؟ بلى ، إن الغربة واضحة جد الوضوح هنا وفي الأبيات التالية .

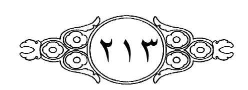
١٠ – يُحِبُّ العاقِلونَ عَلى التَصافي ∴ وَحُبُّ الجاهِلينَ عَلى الوَسامِ

١١ – وَآنَفُ مِن أَخي لِأَبي وَأُمّي ∴ إِذا ما لَم أَجِدهُ مِنَ الكِرامِ

ولفساد الزمان ، واختلال القيم والموازين أصبح الناس ينخدعون بالمظهر ، ولا يهتمون بالجوهر ، أولئك هم الجهال الحمقى المغفلون ، فليس كُلّ جميل المنظر يستحق المحبة ويستأهل التقدير كخضراء الدمن ، رائق اللون ، وبيء المذاق .. ومن ثَمّ كان تحذير الرسول ﷺ أمته : « **إياكم وخَضْرَاءَ الدِّمَنِ** » ، قِيلَ : وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : « **المرأَة الْحَسْنَاءُ فِي مَنْبِتِ السَّوْءِ** » .

أمّا العقلاء فلا يحبون إلاّ حين يشعرون بصفاء الود ، ولا ينخدعون بالمظاهر الكاذبة .. وبالطبع يرى المتنبي نفسه أعقل العقلاء ، بل ربما رأى نفسه العاقل الوحيد .. ولذا فهو يأنف من أخيه الشقيق إذا كان من هؤلاء الذين لا يستحقون مودته وحبه .. وهذا هو ميزانه ، يزن به لكُلّ الناس ، القريب والبعيد .

ولم يكن المتنبي قد اكتشف ذلك مؤخرًا – في مصر – ، بل اكتشفه



هناك إبان سطوع نجمه ، عند سيف الدولة ، لقد ذاق المُرّ من معاملة الناس كما يقول(١) :

إذا ما الناسُ جَرَّبَهُم لَبيبٌ ∴ فإنّي قد أكَلتُهُمُ وَذاقا
فلَم أرَ وُدَّهُم إلّا خِداعًا ∴ وَلَم أرَ دينَهُم إلّا نِفاقا

لقد أصابه من كيد الحاسدين ، ووشاية الحاقدين ما رماه في شراك كافور بمصر ، ومن ثَمّ نفض أيديه من الناس كُلّهم .

١٢ – أرى الأَجدادَ تَغلِبُها كَثيرًا ∴ عَلى الأَولادِ أَخلاقُ اللِّئامِ

يؤكّد الشاعر سوء الأخلاق في المجتمع بأسره ، حين يقرر أن فساد البيئة والتلوث الخُلُقي يغلب الوراثة التي ينبغي أن تكون أساسًا ، ويستدل على ذلك بأن أخلاق اللئام هي السائدة مع أن أجدادهم كانوا من ذوي الخُلُق الكريم .

لقد سخط المتنبي على المجتمع والناس جميعًا ، ملوكًا ومملوكين ، سادة وعبيدًا ، كبارًا وصغارًا ، عربًا وعجمًا ...

وقد تأثر به (أبو العلاء المعرّيّ) في لزومياته ، غير أن (المتنبي) لم يكن يائسًا في تشاؤمه على نحو يأس أبي العلاء .. إنما هو يتشاءم تشاؤم المحروم الذي يحس بلذائذ ومسرات في الحياة لا يستطيع أن ينالها .. لم يكن المتنبي يرفض الدنيا ، وإنما كان يشعر إزاءها بالحرمان الشديد(٢) .

وهذا التشاؤم في شعر المتنبي أحد جوانب خمسة – عدها الدكتور شوقي ضيف – تجعلنا نعجب به ، هذا التشاؤم جعله برمًا بالدهر ، ساخطًا على الناس ، حتى لكأنه ثائر على الدنيا .. وهي ثورة يرجعها (ماسينيون)

---

(١) الديوان ٤٧/٣ .
(٢) راجع : الفن ومذاهبه في الشِّعْر العربيّ ص٣٤٥ ، ٣٤٦ " بتصرف " .



إلى قرمطيته[1] .

طموح عصامي يستنهض الهمم[*]

١٣ – وَلَسْتُ بِقانِعٍ مِن كُلِّ فَضلٍ ∴ بِأَن أُعزى إِلى جَدٍّ هُمامِ
١٤ – عَجِبتُ لِمَن لَهُ قَدٌّ وَحَدٌّ ∴ وَيَنبو نَبوَةَ القَضِمِ الكَهامِ
١٥ – وَمَن يَجِدُ الطَريقَ إِلى المَعالي ∴ فَلا يَذَرُ المَطِيَّ بِلا سَنامِ
١٦ – وَلَم أَرَ في عُيوبِ الناسِ شَيئًا ∴ كَنَقصِ القادِرينَ عَلى التَمامِ

في الناس مَن هو (عصامي) وفيهم مَن هو (عظامي) ، وفيهم (العصامي العظامي) ، وهناك فئة لا ورثت هذا ولا حققت ذاك ..

فعامر بن الطفيل عصامي عظامي ، يقول[2] :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ ∴ وَفَارِسَهَا الْمَشْهُورَ فِي كُلِّ مَوْكِبِ
فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ ∴ أَبَى اللَّهُ أَنْ أَسْمُوَ بِأُمٍّ وَلَا أَبِ
ولكنّني أحمي حماها وأتّقي ∴ أذاها وأرمي من رماها بمنكبي

والتغلبيون بعد عمرو بن كلثوم (عظاميون) ، نعى عليهم الشاعر اتكالهم على أمجادهم القديمة المسجلة في معلقة (عمرو) ، واستنامتهم قائلاً[3] :

ألهى بني تغْلبٍ عن كلِّ مكرمةٍ ∴ قصيدةٌ قالها عمرُو بنُ كلثومِ
يروونها أبدا مذ كان أولهم ∴ يا للرجال لشعر غير مسؤوم

والعظامي شريف النسب رفيع الحسب لا ينفعه هذا ولا يفيده ذاك إذا

---

(١) السابق ص٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(*) العصامي : نسبة إلى (عصام بن شهبر) حاجب النعمان بن المنذر .. قال فيه النابغة :

نَفسُ عِصامٍ سَوَّدَت عِصاما ∴ وَعَلَّمَتهُ الكَرَّ وَالإِقداما
وَصَيَّرَتهُ مَلِكًا هُماما ∴ حَتّى عَلا وَجاوَزَ الأَقواما

ديوان النابغة ص٢٤٧ – جمع الشيخ الطاهر بن عاشور – الشركة التونسية .. وانظر : ص٣٣٢ أيضًا .. والعصامي : هو الذي يبني مجده بيده ، ويصنع شرفه بنفسه ، لا اعتمادًا على حسب ، ولا اتكالاً على نسب .

(٢) العقد الفريد ١٤٩/٢ .. وانظر : ديوان المتنبي – شرح البرقوقي ٤٧/٢ .

(٣) الأغاني ١٦٥/٢ ، والشِّعْر والشعراء ٢٣٦/١ .



كانت نفسه دنيئة حقيرة ، كما قال الشاعر :

ولا ينفع الأصل من هاشم ∴ إذا كانت النفس من باهله

ودينا الحنيف يرد التفاخر بالأنساب والاتكال على الأحساب ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (النجم : ٣٩) ، ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (المؤمنون : ١٠١) .. ويقول الرسول ﷺ : « ... **وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ** »[1] ، ويقول لذوي قرباه : « **اشتَرُوا لأنفسكم ، لا أُغني عنكم من الله شيئًا** »[2] .. والعصاميون لا يتكلون على حسب أو نسب ، قال عبد الله بن معاوية :

لَسنا وَإن كَرُمَت أوائِلُنا ∴ يَومًا عَلى الأحسابِ نَتَّكِلُ
نَبني كَما كانَت أوائِلُنا ∴ تَبني وَنَفعَلُ مِثلَ ما فَعَلوا

وقال آخر :

كُن ابنَ مَن شِئتَ واكتَسِب أدَبًا ∴ يُغنيكَ مَحمُودُهُ عَنِ النَسَبِ
إنَّ الفَتى مَن يُقولُ ها أنا ذا ∴ لَيسَ الفَتى مَن يُقولُ كانَ أبي

والمتنبي (عصامي) بصرف النظر عن نسبه ، وشعره ذاخر بأبيات يذكر فيها عصاميته ، يقول[3] :

لا بِقَومي شَرُفتُ بَل شَرُفوا بي ∴ وَبِنَفسي فَخَرتُ لا بِجُدودي

وقال[4] :

أنا ابنُ مَن بَعضُهُ يَفوقُ أبا الـ ـباحِثِ وَالنَجلُ بَعضُ مَن نَجَلَه
وَإنّما يَذكُرُ الجُدودَ لَهُم ∴ مَن نَفَروهُ وَأنفَدوا حِيَلَه

فهو يرى أن الفخر بالآباء والأجداد إنما هو للعاجزين الذين لا يستطيعون أن ينهضوا بأنفسهم ليصنعوا مجدهم بأيديهم .. ثم راح – بعد

---

(١) من حديث رواه مسلم وغيره .
(٢) متفق عليه .
(٣) الديوان ٦٤/٢ .
(٤) السابق ٣٨٣/٣ .



هذين البيتين اللذين يرد بهما على الباحثين عن نسبه – يذكر انتسابه إلى البأس والشدة والسيف والرمح ... إلخ .

وهاهو في ميميته هذه يصرح بذلك ، ولا يقنع بمجد موروث عن آباء وأجداد ، إنما يُشيّد مجده بيده ، ثم يستطرد في ذلك المعنى مقررًا أن مَن أوتي جسدًا قادرًا ورزق إمكانات تعينه على تحقيق أمجاد ثم لا يستغلها ، يكون حاله باعثًا على العجب ..

ويبدو أن الشاعر هنا يشير إلى شعب مصر الذي ركن إلى الدعة والراحة قانعًا بما له من حضارة قديمة ، فصار كقبيلة تغلب .

وهو بذلك يحثهم على الثورة ، ويستنهض هممهم ، وحين يفعلون فإنهم سيخلعون كافورًا .

ومدى حقد وغضب وكراهية المتنبي كانت أوضح حين تمنى لو نهض فتى مصري لضرب عنق كافور ، وذلك في قصيدة (عيد) .

يقول[1] :

أَلا فَتىً يورِدُ الهِنديَّ هامَتَهُ ∴ كَيما تَزولُ شُكوكُ الناسِ وَالتُّهَمُ

لكأني بالمتنبي وقد فشل في تحقيق هدفه وبلوغ مأربه أخذ يرسم الطريق لغيره ، ويحدد له معالمها ، ويحثه على اغتنام الفرص التي يتمنى لو أتيحت له .. فهو القائل[2] :

أُريدُ مِن زَمَني ذا أَن يُبَلِّغَني ∴ ما لَيسَ يَبلُغُهُ مِن نَفسِهِ الزَّمَنُ
لا تَلقَ دَهرَكَ إِلّا غَيرَ مُكتَرِثٍ ∴ مادامَ يَصحَبُ فيهِ روحَكَ البَدَنُ
فَما يَدومُ سُرورُ ما سُرِرتَ بِهِ ∴ وَلا يَرُدُّ عَلَيكَ الفائِتَ الحَزَنُ

إنه يحفز النفوس إلى الجد ، والسعي والدأب ، والمضي في طريق المعالي ، وارتياد موارد العز والمجد والرقي .

---

(١) الديوان ٢٨١/٤ .
(٢) السابق ٣٦٤/٤ .



يريد أن يكون الناس مثله ، أصحاب همم عالية ، وعزائم قوية ، وطموحات غير محدودة .. وإذا كان هو قد وضعت في طريقه العوائق ، فغيره أتيحت له الفرص ، وهيئت له السبل ، لكنه ضل ونبا ، ولم يذهب أسنمة إبله إعياء وإجهادًا من كثرة الأسفار .

وإنه ليتحسر على أولئك ، ويعجب لحالهم ، ويرى أن أكبر عيب على الإطلاق أن تتاح الفرصة للمرء ليرقى بها صوب التمام والكمال ، ثم هو يتقاعس ، ويستسلم للنقص ، ويتخاذل ، ويرضى بالقليل .. إنه دنيء الهمّة صغيرها ، ضعيف النفس حقيرها .

كأن المتنبي يرمي أهل مصر بالنفاق والعجز والاستكانة إلى مجد قديم ، أضاعوه في مخالطة اللئام ، ومصانعة المنحرفين من الحكام ، بالاستسلام لكافور وأمثال كافور .. وهذه الاتهامات تذكرة للغافلين ، واستثارة للقادرين .. بل ربما كانت دعوة للثورة على كافور .. إنه يعجب لأهل مصر الذين يستطيعون الإطاحة بكافور ذلك العبد ، ولكنهم لم يفعلوا[1] .

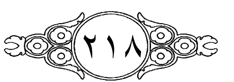
ولكن : هنا سؤال يطرح نفسه : ترى ألو أعطى كافور المتنبي ولاية يحكمها وحقق أمله ، أيكون رأيه في مصر وأهلها كذلك ؟!

كلا .. وإذا كان القرآن الكريم وصف المنافقين قائلاً : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (التوبة : ٥٨) فإن ذلك حاصل في كثير من المسلمين .. نراهم في أيامنا هذه ، بل وفي كُلّ عصر .. ومَن كان فيه مثل ذلك ففيه خصلة من النفاق .

وقد أورد العكبري – في شرحه للديوان – هذا البيت :

---

(١) اتجاهات وآراء ص١١١ " بتصرف " .



وَلَـم أرَ فـي عُيـوبِ النـاسِ شَـيئًا ∴ كَـنَقصِ القـادِرينَ عَلـى التَّمـامِ

ضمن أبيات ، ذكر أنها " نوادر لم تأت في شعر غيره ، وهي مما تخرق العقول .. وقال : فهذا الذي لم يأت شاعر بمثله ، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء ، ويؤتي الحكمة مَن يشاء "(١) .

الفارس الأسير والحلم الضائع

١٧ – أَقَمـتُ بِـأَرضِ مِصـرَ فَـلا وَرائـي ∴ تَخُـبُّ بِـيَ المَطِـيُّ وَلا أَمـامي

١٨ – وَمَلَّنِـيَ الفِـراشُ وَكـانَ جَنبـي ∴ يَمَـلُّ لِقـاءَهُ فـي كُـلِّ عـامِ

١٩ – قَليـلٌ عائِـدي سَـقِمٌ فُـؤادي ∴ كَثيـرٌ حاسِـدي صَـعبٌ مَرامـي

٢٠ – عَليـلُ الجِسـمِ مُمتَنِـعُ القِيـامِ ∴ شَـديدُ السُّـكرِ مِـن غَيـرِ المُـدامِ

حكم (كافور) على (المتنبي) حكمًا قاسيًا ، إذ حدد إقامته .. وصار الشاعر وآماله العريضة وأحلامه الوردية في قفص ، مفتاحه بيد كافور .. تبدد الحلم ، وضاع الأمل ، وخاب السعي .. وانقلبت الأوضاع رأسًا على عقب ..

كان المتنبي ذاهبًا إلى مصر يحدوه الأمل وتدفعه أحلامه لأن يكون واليًا أو أميرًا يحقق في ولايته ما لم يحققه الملوك ، ثم ينطلق بعد ذلك مكوّنًا دولة عظمى أو إمبراطورية .

تلك كانت غايته التي ظل يرتحل من أجلها ، ويتعب ويجد ويذهب أسنمة إبله طمعًا في تحقيقها .. وإنه لمطلب عظيم ، عبّر عنه بقوله :

أَهُـمُّ بِشَـيءٍ وَاللَيـالي كَأَنَّهـا ∴ تُطـارِدُني عَـن كَونِـهِ وَأُطـارِدُ

ومن ثَمّ كان ما فعله كافور ليس مجرد لطمة قوية ، بل هدمًا للآمال ، وتحطيمًا للأحلام ..

(١) البيتان ١/١٦١ .

إنـه لـم يكتـف بحرمانـه مـن الولايـة ، بـل (حـدّد إقامتـه) ، ومنعـه مـن الخروج من مصر .

كانت تلك الإقامة (الإجبارية) تعجيزًا للمتنبي عبّر عنه بقوله :

أَقَمـتُ بِـأَرضِ مِصـرَ فَـلا وَرائـي ∴ تَخُـبُّ بِـيَ المَطِـيُّ وَلا أَمـامي

وهاهو يعيش وحيدًا ، غريبًا ، محدود الحركة ، فلا هو ذاهب ولا هو آت ، لا رائح ولا غاد ، لا متقدم ولا متأخر ، لا يسعى إلى كبير ولا إلى صغير .. لقد حرم من كُلّ الآمال والأعمال ، كبيرها وصغيرها ، عظيمها وحقيرها .. فالهدف الأكبر الذي كان نصب عينيه – لأنه الأسمى والأغلى – حُرم منه .. وأما ما وراءه فأشياء تافهة ، ومع ذلك حرم منها هي الأخرى .. لقد منع من كُلّ شيء ، ومنع عنه كُلّ شيء .

إن هول المأساة ، وفظاعة الخطب ، وعظم المصيبة تتضح حين يُقارَن حاله في بلاط سيف الدولة بحاله عند كافور ..

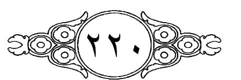
لقد كان نجمًا متألقًا أيما تألق ، " فأصبح بمثابة القائد الذي كان ملء الدنيا ، ثم إذا به في لحظة واحدة يُبعَد عن قيادته ، ويُسلب الأوسمة والنياشين ، ثم يودع في السجون .. ألا يوحي ذلك بمقدار ما يعتمل في نفسه من حزن دفين ؟! "[(١)] .

لقد ذبحه كافور ذبحًا ، وقلل من غروره ، وكبح من جماحه ، وكف من غربه .. وكانت الدنيا قبل مجيئه إلى مصر كالغابة أمامه ، يقول ما يشاء ويفعل ما يشاء ، ويُدل على مَن يشاء ، فإذا ما جد الجد ، وتعرض للمؤاخذة شد عصا الترحال هاربًا أو مسافرًا ..

" أمّا في مصر فقد التصق بالأرض رغم أنفه ؛ لأن حاكمها كان رجلاً

---

(١) في ميزان النقد الأدبي ص٢٠٢ .



، داهية ، فيه ذكاء ومكر وسياسة ، هيّأ للشاعر أسباب القول ، ولكنه – أيضًا – جنّد له عيون الملاحظة وأسباب المؤاخذة .. مما جعله ينأى بنفسه عن جموح الخيال ، ويركن إلى أصالة الواقع .. "[1] .

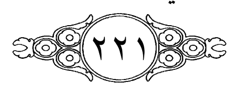
كانت الفترة التي قضاها المتنبي في مصر أخطر فترات حياته ، وأشدها أثرًا في نفسه ، " لقد حورب فيها حربًا نفسية رهيبة ، إذ أهمله كافور إهمالاً بعد فترة وجيزة من وصوله مصر ، بعد أن كان هناك – عند سيف الدولة – ملء السمع والبصر .. ومن ثَمّ أحدث هذا الإهمال جرحًا عميقًا في نفسه ... "[2] ، ثم ما لبث أن أعقب الإهمال تحديد إقامة ، ورصد عيون وجواسيس حوله .

من هنا كان عظم الخطب وهول المأساة ، تحملها ألفاظه : **(أَقَمتُ)** فالإقامة – كما أسلفنا – شيء يتعبه ، وهو هنا مكره عليها .. وقوله : " **بِأَرضِ مِصرَ** " فيه استنكار أن يحدث له ذلك على أرض مصر ، تلك البلد التي وفد إليها الشاعر تتراقص الأحلام أمام عينيه ، يتخيل نفسه جالسًا على كرسي ولاية من ولاياتها ، فإذا بالآمال تتبدد ، والأحلام تتبخر ، والسعي يخيب ..

وكان لجوؤه إلى مصر بمثابة تسلل إلى ملجأ أخير ، فكانت الصدمة قوية ؛ إذ إنه يقدر مصر تقديرًا خاصًّا ، ومن هنا ذهب الدكتور (طه حسين) إلى أن شعره في مصر أقل سقطًا من شعره في حلب .. وكان شعره في مصر " أشبه بشعر جبار يئن ويحن ويتذكر ويرمز ، وبخاصة حين وجد نفسه محاصرًا ومراقبًا ويدس عليه في الحين بعد الحين للتعرف على

---

(١) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ص٢٩١ " بتصرف " .
(٢) الخيال الشِّعْريّ عند أبي الطيب المتنبي ص١٢٧ " بتصرف قليل " .



اتجاهاته نحو كافور "[1] .

شعر المتنبي أن الدنيا كُلّها ضده ، وأن الباب الأخير قد أوصد في وجهه ، والطريق انقطعت به ، وهو – وحده – يقف في الميدان ، فخارت قواه ، وانهارت نفسه ؛ إذ يرى كُلّ ما رسمه وخطط له يضيع ، وصار يعاني صنوفًا من الضغط النفسي والتقييد والعنت ..

لذا آثر الفلاة والهجير ، وتوحّد مع الناقة ، ولاذ بربه وسيفه ، وما دفعه إلى ذلك إلاّ اغترابه .

لقد كان المتنبي " يعدو عدوًا سريعًا وراء طموحه ، وكان أشق شيء على نفسه أن يرى الزمن واقفًا بليدًا .. وإذا كان الزمن فيما قبل من رواة قصائده – على حدّ تعبيره[*] – فإنه في مصر قد أصبح عذابًا له ، في البداية كان الزمن مجرد انتظار لوعد ، ثم أضحى عذابًا حين أحسن أنه (مراقب) من قِبَل كافور .. وحين تحقق أن ما أمله لن يجيء أصبح الزمن عذابًا وقهرًا ... "[2] .

وقد زاد من مأساته ما رآه من سلبية في شعب مصر ؛ إذ يسكتون على ما يكرهون ، صاروا كلهم – في نظر المتنبي – إمّعة ، لا رأي لهم ولا عقل، وإنما مجرد تبع .

هاهم على دين ملكهم ، يحبون مَن أحب ، ويكرهون مَن كره ، ومن هنا كان تحاشيهم له ، ونفورهم منه ، لا لشيء إلاّ تبعية لكافور .. وما أشبه حاله بحال طرفة بن العبد القائل[3] :

---

(١) دراسات في النص الشِّعْريّ ص١٨٧ ، ١٨٨ " بتصرف " .

(*) **وَمـا الـدَهرُ إلّا مِـن رُواةِ قَلائِـدي ∴ إذا قُلتُ شِعرًا أَصبَحَ الدَهرُ مُنشِدًا**

(٢) دراسات في النص الشِّعْريّ ص١٩٣ ، ١٩٤ " بتصرف " .

(٣) ديوانه ص٤٩ ، والبيتان من المعلقة .. وراجع كتابنا : تمرد طرفة .



وَمَا زالَ تَشرابي الخُمورَ وَلَذّتي ∴ وَبَيعي وَإنفاقي طَريفي وَمُتلَدي
إلى أن تَحامَتني العَشيرَةُ كُلّها ∴ وَأُفرِدتُ إِفرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ

وهكذا صار المتنبي غريبًا في مصر ، وسبب ذلك سقم فؤاده ، وهو لا يجهل السبب وراء ما حدث له ، إنه كثرة حساده ، وبعد أمله ، وطموحه ، وعلو همّته .

لذلك كُلّه اغتاظ من مصر وأهلها ، وعدَّهُم خصومًا له ؛ إذ وقفوا ضده مع خصمه ، أو على الأقل سكتوا عن ظلمه وطغيانه ، بل رضوا أن يحكمهم عبد ليس منهم .

هذه الكراهية الشديدة ، والسخط البالغ ، سجله في شعره في قصائد أخرى ، يقول وهو مفارق مصر في قصيدته (عيد)(١) :

إنّي نَزَلتُ بِكَذّابينَ ضَيفُهُمُ ∴ عَنِ القِرى وَعَنِ التَّرحالِ مَحدودُ
جودُ الرِجالِ مِنَ الأَيدي وَجودُهُمُ ∴ مِنَ اللِسانِ فَلا كانوا وَلا الجودُ
ما يَقبِضُ المَوتُ نَفسًا مِن نُفوسِهِمُ ∴ إِلّا وَفي يَدِهِ مِن نَتنِها عودُ
أَكُلّما اغتالَ عَبدُ السوءِ سَيِّدَهُ ∴ أَو خانَهُ فَلَهُ في مِصرَ تَمهيدُ
صارَ الخَصِيُّ إِمامَ الآبِقينَ بِها ∴ فَالحُرُّ مُستَعبَدٌ وَالعَبدُ مَعبودُ
نامَت نَواطيرُ مِصرٍ عَن ثَعالِبِها ∴ فَقَد بَشِمنَ وَما تَفنى العَناقيدُ

إلى قوله :

ما كُنتُ أَحسَبُني أَحيا إِلى زَمَنٍ ∴ يُسيءُ بي فيهِ كَلبٌ وَهوَ مَحمودُ
وَلا تَوَهَّمتُ أَنَّ الناسَ قَد فُقِدوا ∴ وَأَنَّ مِثلَ أَبي البَيضاءِ مَوجودُ
وَأَنَّ ذا الأَسوَدَ المَثقوبَ مِشفَرُهُ ∴ تُطيعُهُ ذي العَضاريطَ الرَعاديدُ

يقول الدكتور (طه حسين) عن بيته :

نامَت نَواطيرُ مِصرٍ عَن ثَعالِبِها ∴ فَقَد بَشِمنَ وَما تَفنى العَناقيدُ

" ولست أعرف أصدق في مصر ولا أبرع في تصويرها من هذا البيت

(١) الديوان ٢/١٤٢-١٤٥ .. والنواطير : جمع ناطور أي السيد الشريف . ثعالبها : عبيدها وأرذالها . العناقيد : الأموال . بشمن : أي أصابتهم تخمة من كثرة أخذ الأموال ونهبها . والعضاريط : جمع عضروط وهو الذي يخدم الناس بطعام بطنه .

الأخير .. وما أرى إلاّ أن المتنبي قد أُلهم البلاغة والحكمة حقًّا حين وفق لهذا البيت الذي يختصر لونًا من حياة مصر منذ أبعد عهودها بالتاريخ إلى هذا العهد الذي نحيا فيه .. ولو أن التاريخ أراد أن يحصي الثعالب التي عدت على مصر وأموالها فأخذت منها ما أطاقت ولم تطق حتى أدركها البشم وما فوق البشم ، ونواطيرها نائمة ، وقادتها غافلون ، وأموالها مع ذلك لا تفنى ولا تنفد ، ودول الثعالب يتلو بعضها بعضًا ، ويقفو بعضها إثر بعض .. أقول : لو أراد التاريخ إحصاء هذه الثعالب لما استطاع " .

" ولست أدري أيأتي يوم يكذب فيه هذا البيت من شعر المتنبي فلا تنام نواطير مصر ، ولا تبشم الثعالب فيها ، ولا يعدو الماكرون القادرون على أهلها الآمنين الغافلين ؟ ... "[١] .

وقال أيضًا[٢] :

وَمــاذا بِمِصــرَ مِــنَ المُضــحِكاتِ	.·.	**وَلَكِنَّــهُ ضَــحِكٌ كَالبُكــا**
بِهــا نَبَطِــيٌّ مِــنَ اهــلِ السَّــوادِ	.·.	**يُــدَرِّسُ أنســابَ أهــلِ الفَــلا**

وقال[٣] :

مِــن أيَّــةِ الطُّــرقِ يَــأتي نَحــوَكَ الكَــرَمُ	.·.	**أيــنَ المَحــاجِمُ يــا كــافورُ وَالجَلَــمُ**
جــازَ الأُلَــى مَلَكَــت كَفَّــاكَ قَــدرَهُمُ	.·.	**فعُرِّفــوا بِــكَ أنَّ الكَلــبَ فَــوقَهُمُ**
لا شَــيءَ أَقــبَحُ مِــن فَحــلٍ لَــهُ ذَكَــرٌ	.·.	**تَقــودُهُ أَمَــةٌ لَيسَــت لَهــا رَحِــمُ**
ســاداتُ كُــلِّ أُنــاسٍ مِــن نُفوسِــهِمِ	.·.	**وَســادَةُ المُســلِمينَ الأَعبُــدُ القَــزَمُ**
أَغايَــةُ الــدينِ أَن تُحفــوا شَــوارِبَكُم	.·.	**يــا أُمَّــةً ضَــحِكَت مِــن جَهلِهــا الأُمَــمُ**

... إلى غير ذلك مما قاله في مصر وكافور .

يقول الدكتور (مصطفى الشكعة)[٤] : " لم يقف الأمر بالمتنبي عند

---

(١) مع المتنبي ص٣٣٤ .
(٢) الديوان ١/١٦٧ .
(٣) السابق ٤٠/٢٨٠ ، ٢٨١ .
(٤) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ص٣٤٧-٣٤٩ .



سب كافور وهجائه ، وإنما اكتسح في طريقه مصر التي يحكمها كافور ، والمصريين الذين رضوا به حاكمًا وقبلوه أميرًا ... وفي اندفاعه الشديد وكراهيته المتفجرة يتجه الشاعر إلى المسلمين بعامة ، وإلى أهل مصر بخاصة فيخصهم برشاش كثيف مما أمطره على رأس كافور من هجاء وسباب .. كانت حملة المتنبي على كافور والأرض التي يعيش عليها شديدة عنيدة ، وتعدى القول فيها حدود الشِّعْر الجَيِّد إلى مجال الشتم الكريه والسب البذيء الذي لا يحمل أن يصدر عن عَلَم كبير من أعلام الأمة العربيّة كالمتنبي " .

إن المتنبي نظر إلى مصر وشعبها بعين السخط ، ولو نال ما تمنى هناك لنظر بعين الرضا(*) .. غير أن نظرته تنم عن معرفته بتاريخ مصر منذ الفراعنة .. وأراني متفقًا مع الدكتور (طه حسين) فيما ذهب إليه ، والتاريخ خير شاهد .

يقول الشيخ محمود شاكر – في حديثه عن قصيدة (عيد) – : إن أبا الطيب " ذم مصر وأهلها ، ووصفهم بالكذب والمماطلة ، وما كان من ولاية كافور الأسود الخصي عليها ، وما كان يجري من المكر فيها وفي سياستها ... " إلى أن يقول : " ونحن نقدم العذر لأبي الطيب فيما ذمّ به مصر ، وما ذكر من أخلاقها ، فقد كان الرجل منكوبًا في نفسه وآماله ، وقلبه وهواه ، وزاده القوم كيدًا ، وأثبت عليه الأسود كافور عداوة باغية ... " .

" وليس يمنعنا من شهادة الحق – ولو على أنفسنا – ما يأتي به بعض الناس من الغضب الباغي (للقومية) .. وقد ذكر أبو الطيب عيوبًا لا تزال

(*) وَعَينُ الرِّضا عَن كُلِّ عَيبٍ كَليلَةٌ ∴ وَلَكِنَّ عَينَ السُخطِ تُبدي المَساوِيا



متأصلة في مصر ، ولا خير في الغضب من ذكرها ، بل الخير كُلّ الخير في معرفتها والتنبه لها والعمل على إصلاحها " .

" والحقيقة التي لا تُجحد أن أبا الطيب قد نفذ ببصيرته إلى ما كان يسل مصر ويقتلها من الخُلُق الفاسد .. وليس أبو الطيب وحده هو الذي عرف ذلك يومئذ وأدركه ، بل قد عرف ذلك كثير من أهل عصره ، وإذا أنت قرأت التاريخ الذي بين أيدينا ، وقفت على ذلك ، وعلمت أن الرجل كان بصيرًا نافذًا إلى ضمائر الناس يجلوها ويكشف عنها ... "(١) .

الزائرة الحَيِيَّة

٢١ – وَزائِرَتي كَأَنَّ بِها حَياءً ∴ فَلَيسَ تَزورُ إِلّا في الظَّلامِ
٢٢ – بَذَلتُ لَها المَطارِفَ وَالحَشايا ∴ فَعافَتها وَباتَت في عِظامي
٢٣ – يَضيقُ الجِلدُ عَن نَفسي وَعَنها ∴ فَتوسِعُهُ بِأَنواعِ السِّقامِ
٢٤ – إِذا ما فارَقَتني غَسَّلَتني ∴ كَأَنّا عاكِفانِ عَلى حَرامِ
٢٥ – كَأَنَّ الصُّبحَ يَطرُدُها فَتَجري ∴ مَدامِعُها بِأَربَعَةٍ سِجامِ
٢٦ – أُراقِبُ وَقتَها مِن غَيرِ شَوقٍ ∴ مُراقَبَةَ المَشوقِ المُستَهامِ
٢٧ – وَيَصدُقُ وَعدُها وَالصِدقُ شَرٌّ ∴ إِذا أَلقاكَ في الكُرَبِ العِظامِ
٢٨ – أَبِنتَ الدَهرِ عِندي كُلُّ بِنتٍ ∴ فَكَيفَ وَصَلتِ أَنتِ مِنَ الزِحامِ
٢٩ – جَرَحتِ مُجَرَّحًا لَم يَبقَ فيهِ ∴ مَكانٌ لِلسُّيوفِ وَلا السِهامِ

إذا كان الناس قد امتنعوا عن زيارة المتنبي إرضاء لحاكمهم ، فإن زائرة قد استغلت خلاء المكان من الناس ، وتسللت ليلاً إمعانًا في التخفي حتى لا

---

(١) المتنبي ص٣٧٠ ، ٣٧١ .. ثم ذكر الشيخ أبياتًا للقاضي التنوخي الكبير قالها حين قدم مصر وخرج كارهًا .. فوصف أهل مصر بأنهم ضباع ، وهم شر الخلق في شر البقاع ... إلى غير ذلك من نقص وجهل ... إلخ .



يراها أحد ، وجاءته في الظلام ، كالحسناء العاشقة الحيية التي تستحيي من العذال ، وتتخفى من الرقباء .

وإذا كان الناس قد خشوا من كافور فإن الحُمَّى – هي الأخرى – تتسلل حتى لا يشي بها أحد .

إنها زائرة غير مرغوب فيها ، وزيارتها ليست محببة لديه ، هاهي لا تأتي إلاّ في الظلام .. ذلك الظلام المزعج المخيف الذي تناوله الشعراء من خلال وصفهم الليل ، فقال امرؤ القيس :

وَلَيلٍ كَمَوْجِ البَحرِ أرخى سُدولَهُ ∴ عَلَيَّ بِأنواعِ الهُمومِ لِيَبتَلي

وقال النابغة :

كِليني لِهَمٍّ يا أَمَيمَةَ ناصِبِ ∴ وَلَيلٍ أُقاسيهِ بَطيءِ الكَواكِبِ

وما الظلام في أبيات المتنبي هذه إلاّ ظلمات نفس المتنبي العاجزة التي لا تستطيع فكاكًا من قيود كافور .

ويحاول الشاعر أن يلهّي تلك الزائرة بأي شيء عساها تقنع به ، إلاّ أنها أبت إلاّ العظام .. وحقّ لها أن تفعل ما تشاء ، وتبيت أينما تريد ؛ إذ صار المتنبي مقعدًا لا حول له ولا قوة .

وإنما دعاه إلى هذا المسلك التخييلي في وصف الحمى تلك الوحدة والغربة النفسية التي كثيرًا ما تتيح لمَن يصاب بها أن يكثر من الحديث إلى نفسه ، وأن يكثر من شطحات الخيال ، ومن هنا نفسر هذا التأني في وصفه للحمى ، وفي الرمز إليها بامرأة عاشقة مدلهة أو متهالكة ، بدلاً من أن يعبر عنها تعبيرًا مباشرًا "[1] .

" وهو هنا لا يريد أن يصور الحمى في واقع الأمر بقدر ما يريد أن يصور نفسه الوحيدة المنعزلة في هذه الدنيا التي ليس فيها أحد يزوره أو

(١) الخيال الشِّعْريّ عند أبي الطيب المتنبي ص١٠٦ .



يسأل عنه ، إلاّ هذه الحمى التي تزوره ولا تبخل عليه بمعاودة الزيارة ، هذا هو الذي تبقى له من الزوار والعواد ... "(١) .

وقد عاب الثعالبي على المتنبي قوله :

إذا ما فارَقتني غَسَّلَتني ∴ كَأنّا عاكِفانِ عَلى حَرامِ

وقال : " وَلَيْسَ الْحَرَام أخص بالاغتسال مِنْهُ من الْحَلَال "(٢) .

ويعلق الدكتور مُحمّد عبد الرحمن شعيب على نقد الثعالبي قائلاً : " ونحن هنا مع المتنبي ، فقد اقتصر الثعالبي على مناقشة البيت على أساس من النظرة الشرعية ، مُغفلاً اعتبارًا مهمًّا ، وشيئًا ذا خطر .. فالمتنبي لا ينظر إلى الموقف من تلك الوجهة التي ينظر منها الثعالبي .. ولكنه يصور حالته بعد مفارقة الحمى له ، وقد أعرقت بدنه ، وصبّبت عرقه ، وأسالته كثيرًا مدرارًا ، شأن الخائف المضطرب دائمًا .. أغفل الثعالبي الاعتبار النفسي والحالة الشعورية التي تستولي على مقترف الإثم ومرتكب الخطيئة ، حيث يظن أن العيون كُلّها ترصده ، وأن الناس كُلّهم يراقبونه ، فيعتريه الخوف والوجل والندم ، ويشعر بالخطيئة واقتراف الإثم ، فلا يكاد ينفصل عن إثمه حتى يسيل جلده عرقًا ، ويتصبب ماء .. وبذلك فإن المتنبي يستشعر مرارة هذا اللقاء لبنت الدهر التي تطرقه ليلاً .. ويستشعر مرارة هذا الفراق الذي سيتركه خائر القوى ، ضعيف العزيمة ، متصبب العرق .. وتلك الحالة الشعورية الأليمة ، والفراق المعقب للحسرة ، والندم المثير للعرق الذي هو مظهر من مظاهر الخوف والاضطراب ، أو الضعف والاستخذاء ، لا يستشعرها غير العاكف على حرام "(٣) .

---

(١) السابق ص١٠٧ .
(٢) يتيمة الدهر ٩٠/١ .
(٣) المتنبي بين ناقديه ص١٠٣ ، ١٠٤ – ط/ ثانية – دار المعارف .



وتأمل قوله : " **الكُرَبِ العِظَامِ** " تشعر بمدى ثقل المصائب على نفسه ، ومدى اليأس والإحباط والفشل .. وكيف لا ؟ وقد أناخت الدنيا عليه بكلكلها كما تمطى الليل بصلبه وأردف أعجاز وناء بكلكله على امرئ القيس من قبل.

ثم انظر كيف كانت الحمى صادقة الوعد لا تخلفه بحيث صار المتنبي عارفًا بوقتها ، ومن ثَمّ أخذ يراقبه ، في حين أن كافورًا أخلف وعده ؟

و(صدق الوعد) قد يكون ضارًّا أحيانًا ، حين يكون الوعد في حقيقته وعيدًا ينتج عنه شر وفساد .. فالتراجع عن الوعد – أي الوعيد – محبّب .. بينما صدق الوعد مكروه .

والحقيقة أن (**وَعدها**) وعيد .. أي بالشر والإفساد .

و(بنات الدهر) بشتى صنوفها وألوانها قد أحاطب به ، وأقامت (عنده) ، وتزاحمت عليه ، فلا مكان خال بحيث يمكن أن تصل إليه (بنت) أخرى ، ومن ثَمّ فهو يعجب لـ (**بِنت الدَهرِ**) هذه (الحمى) كيف استطاعت أن تجد سبيلاً تتسلل من خلاله للوصول إليه .. إنه لم يعد يتحمل مصائب أخرى .. وهذا ناطق بأن الشاعر قد وصل إلى قمة اليأس والإحباط .

وهذا (**الدَّهر**) الذي كان من رواة قصائده – كما أسلفنا – ، وكان المتنبي يسابقه في الوصول إلى مراده ، هاهو الدهر نفسه يوكل إحدى بناته لكي تفعل به ما تفعل ، إنها بنت لا تعرف الرحمة ، أوليست من فيح جهنم كما يقول الرسول ﷺ ؟(*) .

وإذا كان المتنبي قد جعلها (**بِنتَ الدَهرِ**) فإن (ابن المعذّل) جعلها (**بنت**

(*) قال ﷺ : « الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ، فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ » .



المنية) في قوله[1] :

وبنـــــتُ المنيـــــة تنتـــــابني ∴ هـــــدوًّا وتطرقنـــــي سُـــــحْرهْ

... إلخ .. وقد ذكرها الجرجاني في الوساطة ، لكنه لم يفضل واحدًا على الثاني .

ويعلق الدكتور مُحمّد نايل – رحمه الله – على أبيات الزائرة الحيية قائلاً : " وهكذا استطاع الخيال المبدع أن يخلع على هذه الزائرة البغيضة صورة العاشقة الهائمة ، ويرسم حولها المواقف والمشاهد ، والظلال والألوان ، لتأخذ صورة الحب الصحيح ، بما فيه من صبابة وتهالك ، ولقاء وفراق ، وحياء من الرقباء ، ومطاردة واستئثار ، ولوعة وبكاء ، وصدق ووفاء ... حتى تفرد بهذه التجربة الحية ، والصورة الخالدة ، مما لم يحم حولها خيال شاعر سواه "[2] .

ولا مجال للمفاضلة هنا بين المتنبي وعبد الصمد ؛ لأن جراحات المتنبي النفسية أخطر وأعظم من آلامه الجسدية التي يتحدث عنها (ابن المعذّل) ، وهذه هي عظمة شعر المتنبي ، فهو أكبر من أن يكون خاصًّا به ، أو معالجًا لحادثة معينة ، إنه كما يقول القاضي الفاضل : " يتحدث عن خواطر الناس ، وهذا سر انكباب الناس عليه "[3] .. ولم يكن أبو العلاء المعرّيّ مبالغًا أو خابطًا خبط عشواء حين سمى ديوان المتنبي (معجز أحمد) .

إن المتنبي بسبب ما كان يعانيه ويقاسيه من الأسر والتقييد أصيب بصدمة نفسية قللت من مناعة جسمه ومقاومته للحمى ..

لكنني أكاد أشعر أن القاضي الجرجاني يريد أن يفضل ابن المعذّل ، إلاّ

---

(١) راجع الوساطة – للقاضي الجرجاني ص١٢١ .
(٢) اتجاهات وآراء ص١١٣ .
(٣) تجديد ذكرى أبي الطيب – عبد الوهاب عزام ص٣٢٠ .



أنه خشي أن يُتهم بالجَوْر وعدم النزاهة في وساطته .

وكان حريًّا به أن يجهر برأيه ، وهو ذوقه ، وليس بالضرورة أن يقتنع به قارئه .. تأمل مليًّا قوله : " وأنت إذا قست أبيات أبي الطيب بها ، وقابلت اللفظ باللفظ ، والمعنى بالمعنى ، وكنت من أهل البصر ، وكان لك حظ في النقد ، تبيّنت الفاضل من المفضول "[1] .

وقال : " وكأن المتنبي قصد تنكب معانيها – يقصد قصيدة ابن المعذّل – فلم يلم منها بشيء " .. وهذا له معنيان عندي : اختلاف توجه كُلّ شاعر .. وهذا هو الظن الحسن .. والثاني : أن المتنبي عجز عن مجاراة عبد الصمد بن المعذّل ولم يلحق به .. ويبدو لي أنه أراد الثاني ..

ثم يصيح المتنبي صيحة استغاثة ، ويتمنى أمنية مكروب : هل يبرأ مما هو فيه ليستأنف مسيره ويواصل رحلته ؟!

إن الذي يعانيه حقيقة هو ذلك (التعجيز) وليس (العجز) عن السفر والترحال والتنقل .. والعنان والزمام اللذان يتمنى أن تطلق يده حُرّة للتصرف فيهما ما هما إلاّ الراحلتان اللتان يتمنى أن يرحل على إحداهما فارًّا ومتخلصًا من هذه القيود .. إنهما وسيلته إلى الغاية الكبرى الآن (الحرية) .

هل سيتاح لتلك النفس الطموح والهمة العالية مواصلة رحلة البحث عن المجد والعلا ؟ ولا يشفي غليل صدره سوى الخروج من هذا المأزق ، وهو تطلع إلى شيء حرم منه .

٣٠ – أَلا يا لَيتَ شِعْرَ يَدي أَتُمسي ∴ تَصَرَّفُ في عِنانٍ أَو زِمامِ

---

(١) الوساطة ص١٢١ .



٣١ – وَهَلْ أرمي هَوايَ بِراقِصاتٍ ∴ مُحَلّاةِ المَقاوِدِ بِاللُّغامِ
٣٢ – فَرُبَّتَما شَفَيتُ غَليلَ صَدري ∴ بِسَيرٍ أَو قَناةٍ أَو حُسامِ

يقول صاحب اليتيمة عن هذين البيتين(١) : " وَهُوَ أحسن مَا قيل فِي وصف محنة نهكت صَاحبهَا واشتدت بِهِ ، ثمَّ عَاد إِلَى حَال السَّلامَة وَقد هذبته تِلْكَ الْحَال وزادته صفاء وسهولة " .

أقول : وفي البيت الأوّل ما يبين عن مدى حلاوة الحلم وغلائه في نفس الشاعر ؛ إذ صار أمله هوى .

ثم إنه يرى الإبل التي هي أداة الهرب من هذا السجن وكان قبلاً – في بداية القصيدة – راحلته يتوحد معها ، عيونها عينه إن حار ، وبغامها بغامه ، يراها هنا راقصة مزينة بالحلي .

وكأن أهدافه كانت تشرد منه يمنة ويسرة ، فهي في حاجة إلى إبل تتراقص كذلك لتمكنه من صيدها .

إنها أمنيات محروم ، ونفثات مكروب ، وأحلام فارس أسير .

٣٣ – وَضاقَت خُطَّةٌ فَخَلَصتُ مِنها ∴ خَلاصَ الخَمرِ مِن نَسجِ الفِدامِ

ويستجمع قواه ليكون قادرًا على استئناف المسيرة مؤكدًا أنه قادر على الخطوة الأولى ، وهي الخلاص من ذلك الأسر ، وإن رصد كافور من العيون والجواسيس ما رصد .. وحينئذ لا مجال لوداع أو سلام .

طبٌّ قاصر وطبيب جاهل

٣٥ – يَقولُ لِيَ الطَّبيبُ أَكَلتَ شَيئًا ∴ وَداؤُكَ في شَرابِكَ وَالطَّعامِ
٣٦ – وَما في طِبِّهِ أَنّي جَوادٌ ∴ أَضَرَّ بِجِسمِهِ طولُ الجِمامِ

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر – الثعالبي – تح/ د/ مفيد قميحة ٢٢٦/١ – ط/ ثانية – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨٣م .



٣٧ – تَعَـوَّدَ أَن يُغَبِّـرَ فـي السَّـرايا ∴ وَيَـدخُلَ مِـن قَتـامٍ فـي قَتـامِ

٣٨ – فَأُمسِـكَ لا يُطـالُ لَـهُ فَيَرعـى ∴ وَلا هُـوَ فـي العَليـقِ وَلا اللِّجـامِ

يرى المتنبي طبيبه عاجزًا ، وطبّه قاصرًا عن تشخيص دائه الحقيقي .. إن من جهل الطبيب أنه يشخص داء المتنبي كما يشخص لسائر المرضى ، وهذا أقوى دليل على جهله .. ألا يعلم أن المتنبي نسيج وحده ؟ ولكنه معذور لأن طبّه الذي تعلمه ليس فيه أن المريض **(جَوادٌ)** فارس ، كُلّ عشقه وهوايته إثارة الغبار ، وإذا به يحال بينه وبين تلك اللذة ، ثم لم ينشغل بشيء بعد .

وهنا " تتسع حواشي الصورة ، وتمتد ذيولها ، حتى يتبادل (الجواد الشاعر) مع (الجواد الفارس) ، وتنزوي – ولا نقول : تختفي – صورة النموذج القائل حين تزاحمها صورة النموذج المقاتل ، دون أن تنفي الثانية الأولى أو تستبعدها تمامًا ، فمعاناة الفنان في ساحة الكلمات صراع لا يقل في ضراوته عن صراع المحارب في حومة الوغى ، وكلاهما في مظهره الصوري لا يزال جوادًا " .

" وقد يتملكنا العجب لأننا إزاء جواد كسير مضرور .. وبناء الصورة ذاته قد سوغ ذلك الانكسار ، حين جعله مرهونًا بصيغ المبني للمجهول في البيت الأخير ..

فهذا الجواد لم يقعد بذاته ، وإنما قيدته قوة لا قِبَل له بها ، فلا هو في فسحة من رباطه حتى يرعى ، ولا هو في السفر حتى يعتلف مما في مخلاته من زاد ، ولا هو في اللجام حتى يتهيأ لما تتهيأ له الخيل من شئون " .

" ويمكنك – دون عنت – أن تتدرج من هذا البناء إلى دلالته الثانية لتتبيّن أنك إزاء فارس ، أو جواد – فلا فرق – محاصر ، لا هو قانع بما

بين يديه حتى يقيم ، ولا هو في حل من أمره حتى يرحل "[١] .

٣٩ – **فَإن أَمرَض فَما مَرِضَ اصطِباري ∴ وَإن أُحمَم فَما حُمَّ اعتِزامي**

٤٠ – **وَإن أَسلَم فَما أَبقى وَلَكِن ∴ سَلِمتُ مِنَ الحِمامِ إِلى الحِمامِ**

وإذا كانت الحمى قد نالت من جسده فإن نفسًا طموحة وهمّة عالية تدفعانه دفعًا إلى التحدي ، تحدي تلك الملمات ، فهو الطموح القوي الذي لم يمرض صبره ولا عزمه ولا تصميمه .

كما أنه لا يفرح فرحًا طاغيًا بسلامته ، وذلك أنه إن لم يمت بالحمى مات بغيرها " تعددت الأسباب والموت واحد " وهذا استسلام للقضاء ، ويقين بالموت .

٤١ – **تَمَتَّع مِن سُهادٍ أَو رُقادٍ ∴ وَلا تَأمُل كَرىً تَحتَ الرِّجامِ**

٤٢ – **فَإِنَّ لِثالِثِ الحالَينِ مَعنىً ∴ سِوى مَعنى انتِباهِكَ وَالمَنامِ**

هذان هما البيتان الأخيران في القصيدة ، ويفسرهما النقاد بأن المتنبي كان يعتقد مذهب التناسخ ، أو على الأقل يعرفه ، فالإشارة هنا إلى ثالث الحالين يقصد بها التناسخ الذي لا يقع فيه – كما يقول مَن يؤمن به – موت ولا نوم[٢] .

وقال ابن العديم : " هذا ينبئ عن اعتقاد الحشيشية "[٣] .

وقال ابن جني معلقًا على البيتين : " أرجو ألا يكون أراد بذلك أن نومة القبر لا انتباه لها "[٤] .

وكأن ابن جني – صديق المتنبي – الذي كان مولعًا بشعره ، ويسبر

---

(١) شعر المتنبي : قراءة أخرى ص٣٥ ، ٣٦ – د/ مُحمّد فتوح .
(٢) انظر : الفن ومذاهبه في الشّعْر العربيّ ص٣٠٩ ، والديوان – البرقوقي ٩٦/١ .
(٣) راجع : ترجمة المتنبي – ابن العديم ، والمتنبي – شاكر ص٦٢٦ .
(٤) اليتيمة ٢١٥/١ .



غوره ، حتى إن المتنبي حين كان يسأل عن لفظة ، أو تركيب يبدو مخالفًا لقواعد اللّغة .. كان يقول : لو كان صديقنا أبو الفتح – أي ابن جني – حاضرًا لفسّره .. كأنه – فيما يبدو – كان يشير إلى شيء يغمز في عقيدة المتنبي ..

وأرى أن الأمر أيسر من هذا التكلف في التأويل .. فهو يريد أن يقول : إن الموت أمر آخر غير النوم واليقظة ، وأن حياة القبر (البرزخية) تختلف كذلك عن حياتنا هذه .. وإن كان الموت شبيهًا بالنوم في عدم الحركة وغير ذلك فهو الموتة الصغرى كما يقول الرسول ﷺ .. ويقول ربنا جل شأنه : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ (الأنعام : من ٦٠) ، ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ (الزمر : من ٤٢) .

ويبدو أن الحكم على عقائد الناس صار أمرًا سهلاً ، دون صدور ما يدل على فسق أو كفر أو اعتقاد مذهب باطل من المحكوم عليه .

إن ألفاظ البيتين ليس فيهما ما يشير إلى تناسخ أو غيره ، والمتنبي أشار إلى اختلاف بين كُلّ من اليقظة والنوم من جهة ، والموت من جهة أخرى ، إلاّ أنه لم يوضح ماهية هذا الاختلاف .

يقول الدكتور مصطفى الشكعة : " لما كان مغرمًا بالإثارة ختم قصيدته بهذين البيتين اللذين اختلف فيهما الشراح ، فذهب بعضهم إلى تكفيره بتهمة عدم إيمانه بالبعث والنشور "(١) .

إنني أرى أن الشّاعر يؤمن بالحياة البرزخية تلك التي تختلف تمامًا عن

(١) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ص٣٣٠ .



حياتنا هذه .. فهذه دار تكليف وامتحان لا دار جزاء ، وأما البرزخ فأول دار الجزاء ، فيه عذاب ونعيم ، وليس فيه نوم .

بعض آراء النقاد في القصيدة

١ – **قال القاضي الجرجاني** في وساطته[١] : " وهذه القصيدة كلها مختارة ، لا يُعلم لأحد في معناها مثلها ، والأبيات التي وصف فيها الحمى أفراد ، قد اخترع أكثر معانيها ، وسهل في ألفاظها ، فجاءت مطبوعة مصنوعة .. وهذا القسم من الشِّعْر هو المطمع المؤيس " .

٢ – **وقال المقريزي**[٢] : " وهي أحسن ما وصفت به الحمى " .

٣ – **وقال الدكتور طه حسين**[٣] : " هذه الميمية التي قالها حين أصابته الحمى في مصر من أرق الشِّعْر العربيّ كله ، وأعذبه وأرقاه ، وأشده استثارة للحزن وتحريقًا للقلوب الحساسة الشاعرة " .

ويقول : " وما أشك في أن لهذه القصيدة قيمتها الفنية ، ولكني لا أشك في أنها لم تكلف الشّاعر من الجهد والعناء ما تعوّد أن يتكلفه في غيرها من قصائده ، وإنما فاضت بها نفسه ، وانطلق بها لسانه ، وجرى بها قلمه في غير تكلف ولا عسر " .

٤ – **وقال أنيس المقدسي**[٤] : " وقصائده الكافورية من أسلس قصائده وأحلاها معنى ، وأجملها إيقاعًا .. ومن بدائعه في هذا الطور ميميته المشهورة في وصف حاله في مصر ، ووصف حمى أصابته ، نظمها

(١) الوساطة ص١٢١ .
(٢) المتنبي – شاكر ص٦٩٤ .
(٣) مع المتنبي ص٣١٩ .
(٤) أمراء الشِّعْر العباسي ص٣٦٠ .



وهو في الخامسة والأربعين ، فجاءت غاية الغايات من حسن الانسجام ، ودقة التعبير ، وحسن الاختراع " .

٥ – **وقال الدكتور نايل** معلقًا على القصيدة : " ما أظن أن أحدًا يأسف على وقت يقضيه مع المتنبي ، يقرأ له ، ويتأمله ، ويعيش مع وجدانه الحي ، ومشاعره الصادقة ، وفنه الساحر ، وتصويره النابض ، إنه يحملك على أن تستغرق معه ، وأن تشاركه عواطفه حين يرضى ، وحين يغضب ... وهذه القصيدة نموذج لفن المتنبي .. وما أحسب أنها خير قصائده ، فإن ديوانه مليء بأمثالها ، بل بما هو أروع منها .. وشعر المتنبي شيء نادر بين الآداب ؛ لأنه يزخر بالمشاعر الصادقة ، والتجارب الواعية ، والأفكار النابضة ، ينتزعها من واقع الحياة .. وهذه السمات هي التي كتبت لشعره الخلود "(١) .

* * *

(١) اتجاهات وآراء ص١٢٤ .



من القصيدة النونية لأبى العلاء المعري فى فقد أبيه

لمحة عن الشاعر(١) (٣٦٣ـــ ٤٤٩هـ /٩٧٣ ـــ١٠٥٧م)

أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحارث بن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن النعمان بن عدى بن غطفان بن عمرو بن بريح بن جذيمة بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان ابن عمران بن إلحاف بن قضاعة التنوخى المعرى اللغوى الشاعر، كان متضلعاً فى فنون الأدب وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة، ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨هـ فأقام بها سنة وسبعة أشهر، وهو من بيت علم كبير فى بلده، ولما مات وقف على قبره أربعة وثمانون شاعراً يرثونه، وكان يلعب بالشطرنج والنرد، وإذا أراد التاليف أملى على كاتبه على بن عبدالله بن أبى هاشم، قرأ النحو واللغة على أبيه بالمعرة، وعلى محمد بن عبدالله بن سعد النحوى بحلب، وله التصانيف الكثيرة المشهورة والرسائل المأثورة، وله من النظم (لزوم ما يلزم) وهو كبير يقع فى خمسة أجزاء أو ما يقاربها، وله (سقط الزند) أيضاً، وشرحه بنفسه، وسماه: (ضوء السقط)، وله كتاباً سماه (الأيك والغصون) وهو المعروف بـ (الهمزة والردف) يقارب المائة جزء فى الأدب أيضاً، ومن وقف على المجلد الأول بعد المائة من كتاب (الهمزة والردف) قال: لاأعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد، وكان علامة عصره، وله (تاج الحرة) فى النساء وأخلاقهن وعظاتهن فى أربع مئة كراس، (وعبث الوليد ـ ط) شرح به ونقد ديوان البحترى، (رسالة الملائكة ـ

---

(١) ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان ص١١٣: ص١١٦، وينظر الأعلام للزركلى جـ١ ط١ بيروت سنة ١٣٨٩ هـ سنة ١٩٦٩ م . ص١٥٠ ، ص١٥١ .



ط) طبعة صغيرة، و(رسالة الغفران ـ ط) وهو من أشهر كتبه، و(ملقى السبيل ـ ط) وهو رسالة، و(مجموع رسائله ـ ط)، و(خطبة الفصيح) ضمنها كل ما حواه فصيح ثعلب، و(الرسائل الإغريقية ـ خ)، و(الرسائل المنبجية ـ خ)، و(الفصول والغايات ـ ط) طبع الجزء الأول منه .

ولكثير من الباحثين تصانيف فى آراء المعرى وفلسفته، منها ليوسف البديعى (أوج التحرى عن حيثية أبى العلاء المعرى) ولكمال الدين بن العديم (الإنصاف والتحرى فى دفع الظلم والتجرى عن أبى العلاء المعرى ـ ط) ولعبدالعزيز الميمنى (أبو العلاء المعرى وما إليه ـ ط)، ولزكى المحاسنى (أبو العلاء المعرى ناقد المجتمع ـ ط)، ولسامى الكيالى (أبو العلا المعرى . ط) و لطه حسين (ذكرى أبى العلاء ـ ط) و(مع أبى العلاء المعرى فى سجنه ـ ط)، ولأحمد تيمور (أبو العلاء المعرى نسبه وأخباره وشعره ـ ط) رسالة، ولعباس محمود العقاد (رجعة أبى العلاء ـ ط) ولوزارة المعارف المصرية (آثار أبى العلاء المعرى ـ ط) .

وأخذ عنه أبو القاسم على بن المحسن التنوخى، والخطيب أبو زكريا التبريزى وغيرهما، وقد ترجم كثير من شعره إلى غير العربية .

وكانت ولادته يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاث مائة بمعرة النعمان، وعمى من الجدرى أول سنة سبع وستين، غشى يمنى عينيه بياض وذهبت اليسرى جملة، قال الحافظ السلفى: أخبرنى أبو محمد عبدالله بن الوليد بن غريب الإيادى أنه دخل مع عمه على أبى العلاء يزوره، فرأه قاعداً على سجادة لبد، وهو شيخ، قال: فدعا لى ومسح على رأسى وكنت صبياً، قال: وكأنى أنظر إليه الساعة وإلى عينيه إحداهما نادرة والأخرى غائرة جداً وهو مجدر الوجه، نحيف الجسم، ولما فرغ

من تصنيف كتاب (اللامع العزيزى) فى شرح شعر المتنبى وقرئ عليه أخذ الجماعة فى وصفه فقال أبو العلاء: كأنما نظر المتنبى إلى بلحظ الغيب حيث يقول:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

واختصر ديوان أبى تمام وشرحه وسماه (ذكرى حبيب) وديوان البحترى وسماه (عبث الوليد) وديوان المتنبى وسماه (معجز أحمد) وتكلم عن غريب أشعارهم ومعانيها ومآخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم، وتولى الانتصار لهم والنقد فى بعض المواضع عليهم، والتوجيه فى أماكن لخطئهم .

ودخل بغداد سنة ثمان وتسعين وثلاث مائة، ودخلها ثانية سنة تسع وتسعين، وأقام بها سنة وسبعة أشهر، ثم رجع إلى المعرة ولزم منزله، وشرع فى التصنيف وأخذ عنه الناس، وسار إلى الطلبة من الآفاق، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار، وسمى نفسه (رهين المحبسين) للزومه منزله ولذهاب عينيه، وكان يحرم إيلام الحيوان، مكث مدة خمس وأربعين سنة لا يأكل اللحم تديناً لأنه كان يرى رأى الحكماء المتقدمين وهم لايأكلونه كى لايذبحوا الحيوان ففيه تعذيب له وهم لا يرون الإيلام فى جميع الحيوانات، وكان يلبس خشن الثياب .

وعمل الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة، ومن شعره فى (اللزوم) قوله :

لا تطلبن بآلـــة لك رتبـــة قلم البليغ بغير جد معـزل
سكن السما كان السماء كلاهما هذا له رمح وهـذا أعـزل

وتوفى يوم الجمعة ثالث . وقيل: ثانى . شهر ربيع الأول، وقيل: ثالث عشرة سنة تسع وأربعين وأربعمائة بالمعرة، وبلغنى أنه أوصى أن يكتب على قبره هذا

البيت :

هـذا جنـــاه أبـى علــى ومـــا جنيت على أحـــد

وهو أيضاً متعلق باعتقاد الحكماء فإنهم يقولون: إيجاد الولد وإخراجه إلى هذا العالم جناية عليه، لأنه يتعرض للحوادث والآفات.

وكان مرضه ثلاثة أيام، ومات فى اليوم الرابع، ولم يكن عنده غير بنى عمه فقال لهم فى اليوم الثالث: اكتبوا عنى، فتناولوا الدوى والأقلام، فأملى عليهم غير الصواب فقال القاضى أبو محمد عبدالله التنوخى: أحسن الله عزاءكم فى الشيخ فإنه ميت، فمات ثانى يوم، ولما توفى رثاه تلميذه أبو الحسن على بن همام بقوله :

إن كنت لم ترق الدماء زهادة فلقد أرقت اليوم من جفنى دما

سيرت ذكرك فى البـــلاد كأنـه مسك فســامعـه يضمخ أو فما

وأرى الحجيج إذا أرادوا ليلـــة ذكراك أخرج فديــة من أحرمــا

وقد أشار فى البيت الأول إلى ما كان يعتقده ويتدين به من عدم الذبح كما تقدم ذكره .

وقبره أشار فى البيت الأول إلى ما كان يعتقده ويتدين به من عدم الذبح كما تقدم ذكره .

وقبره فى ساحة من دور أهله، وعلى الساحة باب صغير قديم، وهو على غاية ما يكون من الإهمال وترك القيام بمصالحه، وأهله لايحتفلون به .

والتنوخى ـ بفتح التاء المثناة من فوقها وضم النون المخففة وبعد الواو خاء معجمة ـ نسبة إلى تنوخ، وهو اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً بالبحرين، وتحالفوا على التناصر، وأقاموا هناك فسموا تنوخاً، والتنوخ: الإقامة، وهذه القبيلة إحدى القبائل الثلاث التى هى نصارى العرب وهم: بهراء، وتنوخ، وتغلب، والمعرى ــ

بفتح الميم والعين المهملة وتشديد الراء ــ نسبة إلى معرة النعمان، وهى بلدة صغيرة بالشام بالقرب من حماة وشيزر، فنسبت إلى النعمان بن بشير الأنصارى ـ رضى الله تعالى عنه ـ فإنه تديرها فنسبت إليه ، وأخذها الفرنج من المسلمين فى محرم سنة ٤٩٢هـ ولم تزل بأيدى الفرنج من يومئذ إلى أن فتحها عماد الدين زنكى بن آق سنقر سنة تسع وعشرين وخمسمائة، ومن على أهلها بأملاكهم .

الأبيات (١)

١ ــ أبى حكمت فيه الليالى ولم تزل
رماح المنايا قادرات على الطعن(٢)

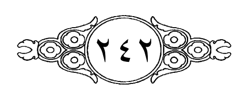
٢ ــ مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى
وسهد المنى والجيب والذيل والردن(٣)

---

(١) ينظر النصوص الأدبية والبلاغة . د / يوسف البيومى وآخرون ص٨٤ : ص٩١ .
وينظر لسان العرب والقاموس المحيط ومختار الصحاح والمصباح المنير .

(٢) حكمت : الحكم : القضاء ، وأصله المنع ، يقال : حكمت عليه بكذا إذا منعته من خلافه فلم يقدر على الخروج من ذلك ، وحكمت بين القوم : فصلت بينهم ، وحكمت الليالى فيه : أى قضت فيه بالموت .
رماح : جمع ومفرده الرمح ، ورمحه : طعنه بالرمح .
المنايا : جمع منية ، وهى الموت ، واشتقاقها من منى له أى قدر لانها مقدرة .
الطعن : الطعن هو الضرب والوخز ، يقال : طعنه بالرمح كمنعه ونصره أى ضربه ووخزه فهو مطعون وطعين ، والمطعان : الكثير الطعن للعدو ، وتطاعنوا فى الحرب : تضاربوا .

(٣) مضى : معنى الشئ يمضى بالكسر مضياً : ذهب، ومضى فى الأمر يمضى مضاء : نفذ، وأمضى الأمر : أنفذه ، وهى هنا بمعنى الموت .
طاهر : من الطهر وهو نقيض النجاسة ، والتطهر : التنزه والكف عن الإثم .
الجثمان: بالضم : الجسم والشخص ، ويقال : ما أحسن جثمان الرجل وجسمانه: أى جسده .
والنفس : الروح ، والجسد .



٣ ـ فياليت شعرى هل يخف وقــــاره

إذا صار (أحد) فى القيامة كالعهن[١]

٤ ـ وهل يـرد الحوض الـروى مبــادراً

مع الناس أم يأبى الزحـام فيستأنى[٢]

٥ ـ جهلنا فلم نعلم على الحرص ـ ماالذى

يــراد بنـــا والعلــم للـــــه ذى المـن[٣]

الكرى : النعاس ، وقد كرى كرضى كرى فهو كر وكريان وكرى وهى كرية : نعس .

سهد : بالضم الأرق ، وبضم السين والهاء : القليل النوم ، وسهده تهيداً فهو مسهد .

المنى : مفردها المنية ، والأمانى واحدتها الأمنية .

الجيب : جيب القميص ونحوه بالفتح : طوقه والجمع جيوب ، الجيب : أى القلب والصدر وجيب الأرض : مدخلها .

الذيل : آخر كل شئ ، ومن الإزار والثوب : ماجر ، يقال : فلان تبختر فجر ذيله ، وأذيال الناس: أواخر منهم ، والذيل واحد أذيال القميص وذيوله .

الردن : أردن : أصل الكم والجمع أردان ، وأردن القميص وردنه : جعل له ردناً .

(١) وقاره : الوقار بالفتح : الحلم والرزانة ، والتوقير : التعظيم والترزين وقوله تعالى (مالكم لاترجون لله وقارا) أى لا تخافون لله عظمة .

أحد : بضمتين : جبل بالمدينة .العهن : القطعة من العهن : للصوف أو المصبوغ ألواناً والجمع عهون .

(٢) الحوض : واحد الأحواض والحياض ، وحاض الرجل : اتخذ حوضاً ، واستحوض الماء: اجتمع واتخذ لنفسه حوضاً ، ويقصد بالحوض هنا حوض النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة .

الروى : الكثير الماء ، والروى أيضاً : سحابة عظيم القطر شديدة الوقع مثل السقى .

يستأنى : ينتظر ويتأتى ويتمهل، يقال : تأنى فى الأمر : ترفق وتنظر، واستأنى به : انتظر به وتثبت ، وأنى أنياً : تأخر وأبطأ .

(٣) جهلنا : الجهل ضد العلم ، وتجاهل : أرى من نفسه ذلك وليس به ، واستجهله : عده جاهلاً واستخفه أيضاً ، والتجهيل : النسبة إلى الجهل .

الحرص : الجشع ، وقد حرص على الشئ يحرص حرصاً فهو حريص .

المن : الإنعام ، يقال : من عليه مناً : أنعم ، واصطنع عنده صنيعة ومنة : امتن .



٦ ـ إذا غيب المرء استسر حديثه

ولم تخبر الأفكار عنه بما يغنى(١)

٧ ـ أمولى القوافى كم أراك انقيادها

لك الفصحاء العرب كالعجم اللكن(٢)

٨ ـ هنيئاً لك البيت الجديد موسداً

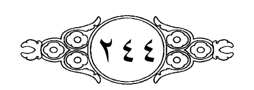
يمينك فيه بالسعادة واليمن(٣)

---

(١) غيب : الغيب كل ما غاب عنك ، وقوم غيب وغياب وغيب : غائبون ، وغيابة كل شئ : ما سترك منه ، وغيب هنا : يقصد بها الراحلون ممن وضعوا فى قبورهم .
استسر : يقال : استسر القمر : أى خف ليلة السرار فربما كان ليلة وربما كان ليلتين .
الأفكار : جمع فكر وهو إعمال النظر فى الشئ .
يغنى : يكفى ، ويقال : تغانوا : استغنى بعضهم عن بعض ، وتغنيت : استغنيت، ويقال: أغنيت عنك أى أجزأت، وما يغنى عنك هذا : أى ما يجزئ عنك وما ينفعك .

(٢) مولى : المالك والصاحب .
القوافى : جمع قافية ، وهى آخر كلمة فى البيت ، أواخر حرف ساكن فيه إلى أول ساكن يليه مع الحركة التى قبل الساكن، أو هى الحرف التى تبنى عليه القصيدة ، ومولى القوافى : صاحبها .
العجم : ضد العرب والواحد عجمى ، والأعجم الذى لايفصح ولايبين كلامه وإن كان من العرب ، وهو كذلك الذى فى لسانه عجمة وإن أفصح بالعجمية .
اللكن : الألكن : هو الذى لا يقيم العربية لعجمة لسانه ، واللكنة : عجمة فى اللسان وعى ، يقال : رجل الكن : بين اللكن .

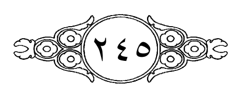
(٣) هنيئاً : الهنئ والمهنأ : مأأتاك بلا مشقة .
موسداً : الوساد المتكأ والمخدة كالوسادة والجمع وسد ووسائد ، ووسدته الشئ توسيداً فتوسده : إذا جعلته تحت رأسه .
اليمن : البركة ، وقد يمن فلان على قومه على ما لم يسم فاعله فهو ميمون : أى صار مباركاً عليهم ، وتيمن به : تبرك .



٩ ـ مجاور سكن فى ديار بعيدة
من الحى سقيا للديار وللسكن(١)
١٠ ـ طلبت يقيناً من (جهينة) عنهم
ولن تخبرينى يا(جهين) سوى الظن(٢)
١١ ـ فإن تعهدينى لا أزال مسائلا
فإنى لم أعط اليقين فأستغنى(٣)
١٢ ـ وإن لم يكن للفضل ثم مزية
على النقص فالويل الطويل من الغبن(٤)

---

(١) مجاور : هو الجار ، ويقال : جاوره مجاورة وجواراً : صار جاره .
سكن : السكن بسكون الكاف : أهل الدار ، والمسكن : المنزل ، والمراد بها هنا أهل القبور .
سقيا : السقيا : هى السحابة العظيمة القطر ، ويقال : سقاه تسقية وأسقاه : قال له سقاك الله أو سقياً ، فهى دعاء لنزول المطر ، ويقصد بها هنا الدعاء لأهل القبور بالرحمة .
(٢) يقيناً : اليقين هو العلم والرأى الصائب .
جهينة : اسم قبيلة ، ويقال فى المثل (وعند جهينة الخبر اليقين) وفى القاموس المحيط (وعند جفينة الخبر اليقين) ومورده أن حصين بن عمرو بن معاوية بن عمرو ابن كلاب خرج ومعه رجل من بنى جهينة يقال له الأخنس ، فنزلا منزلاً ، فقام الجهنى إلى الكلابى فقتله وأخذ ماله ، وكانت صخرة بنت عمرو بن معاوية تبكيه فى المواسم ، فقال الأخنس :
نسائل عن حصين كل ركب   وعن جهينة الخبر اليقين
إنها تعرف الأمر معرفة يقينية .
(٣) تعهدينني : تعرفينني ، والشئ المعهود : المعروف .
(٤) للفضل : الفضل ضد النقص ، والتفاضل : التمازى والزيادة ، يقال : فضله تفضيلاً : مزاه ، وتفضل : تمزى أو تطول ، وأفضل عليه فى الحسب وعنه : زاد .



١٣ ــ سأبكى إذا غنى ابن ورقاء بهجة
وإن كان ما يعنيه ضد الذى أعنى(١)

١٤ ــ ونادبة فى مسمعى كل قينة
تغرد باللحن البرئ عن اللحن(٢)

١٥ ــ وأحمل فيك الحزن حيا فإن أمت
وألقاك لم أسلك طريقاً إلى الحزن(٣)

١٦ ــ وبعدك لايهوى الفؤاد مسرة
وإن خان فى وصل السرور فلا يهنى

مزية : الفضيلة ، يقال : مزيت فلاناً : فضلته ، وتمزيت علينا يافلان : رأيت لك الفضل علينا . الغبن : غبن الشئ وفيه غبنا : نسيه ، أو أغفله أو غلط فيه ، وغبن رأيه غبانة وغبنا: ضعف فهو غبين ومغبون ، وغبنه فى البيع يغبنه غبنا : خدعه ، والتغابن : أن يغبن بعضهم بعضاً ، والغبن : الضعف والنسيان ، والغابن : الفاتر عن العمل .

(١) ورقاء : الحمامة والذئبة والجمع وراقى ووراق .
بهجة : الحسن ، والابتهاج : السرور ، والتبهيج : التحسين ويقال : بهج بهاجة فهو بهيج وهى مبهاج : فرح ، بهج : أفرح وسر .

(٢) ونادبة : هى التى تبكى الميت وتعدد محاسنه ، والاسم الندبة بالضم .
قينة : هى الأمة المغنية أو أعم ، والقين : العبد ، والجمع القيان ، وقال ابن السكيت هى الأمة البيضاء مغنية كانت أو غير مغنية وقيل تختص بالمغنية .
تغرد : تطرب ، يقال غرد تغريداً وأغرد وتغرد : رفع صوته وطرب به .
اللحن : كررت هذه الكلمة فى هذا الشطر ، فالأول تعنى الطرب فى الأصوات والكلمة الثانية تعنى الخطأ .

(٣) يهوى : يحب ، يقال هوى به هوى فهو هوٍ : أحبه . مسره : من السرور ، يقال سره سروراً وسراً وسرى ومسرة : أفرحه ، وسُرّ هو بالضم والاسم السرور .



جماليات النص الموضوعية

يصف الشاعر ما فعلت به الليالى، حيث قضت بموت أبيه، ولم تزل تقضى على الناس بهذا القضاء المحتوم، ويتحدث عما كان يتصف به أبوه من صفات كريمة، فقد كان طاهراً، عفيفاً صافى النفس، مهتماً بالأمور العظيمة وحريصاً على التجمل بالأمانة والنزاهة والسماحة وحسن الاعتقاد، عفيفاً عن المحرمات وعما لايحله الله، ولما كان أبوه متصفاً بهذه الصفات الكريمة ومتسماً بهذه السمات النبيلة حرص الشاعر على أن يعرف ما يصير إليه أبوه يوم القيامة، أيحتفظ بما اتصف به من صفات وسمات آنذاك أم تتغير وتأتى صفات أخرى تتطلبها الحياة الآخرة، ويقول إنه على الرغم من حرصنا على معرفة مايؤول إليه حال الإنسان بعد موته فإننا نجهل ذلك لأن علمه عند الله تعالى، والمرء إذا وضع فى قبره خفى أمره، وصار أمره مغيباً لا تستطيع الأفكار أن تغنيه أوتكفيه .

وينتقل الشاعر من الحديث عن يوم القيامة وما يؤل إليه أمر الإنسان إلى خطاب أبيه فيقول له هنيئاً لك أيها الشاعر الفصيح الذى انقادت له قوافى الشعر انقياداً فبلغ فيها مبلغاً عظيماً وشأناً كبيراً حتى انقاد له فصحاء العرب . . . هنيئاً لك البيت الجديد الذى لاشقة فيه ولاتعب ولانصب، وإنما فيه الخير واليمن والسعادة، هنيئاً لك بمجاورة أهل القبور وسكانها، ويدعو الشاعر أن ينزل المطر ويجود الغيث على أهل تلك القبور ليحيوا حياة طيبة وتظللهم رحمات الله وفضله .

ويطلب الشاعر الخبر اليقين من أهله عن أهل القبور، فلم يستطيعوا أن يجيبوا سؤاله، فأضحى فى تردد حول حقيقة ما بعد الموت، فطلب من جهينة وهى مضرب المثل فى العلم والمعرفة أن تجيبه سؤاله، ولو أجابته لا ستغنى واكتفى بكلامها عما سواه، وأما إذا لم تجبه وظل فى شكه وحيرته فالويل

للأحياء من كثرة ما يصيبهم من النقص والغفلة والنسيان، ويعود الشاعر فيخبر بأنه سيظل يبكى أباه حتى إن الطيور والحمائم تشاركه حزنه وألمه فى فقد أبيه فأضحى تغريدها بكاء ونواحاً،وأصبح غناء الأمة المغنية المطربة أنغاماً نادبة.

ويصف الشاعر فى ختام هذه الأبيات مدى ما يعانيه بعد فقد أبيه، حيث فقد الراحة والنعيم والسرور، وأضحى الحزن يظلل حياته وأنه لن يهدأ إلا إذا لقى أباه .

جماليات النص الفنية

استخدم الشاعر فى هذه الأبيات بعض الألوان البلاغية، كالمجاز العقلى فى قوله (حكمت في الليالى) فإسناد الفعل حكمت إلى الليالى مجاز عقلى أو استعارة مكنية لأن الليالى لاتقضى ولاتحكم وإنما هى زمن لذلك، ومن الاستعارة المكنية كذلك قوله (واحمل فيك الحزن حيا) حيث صور الحزن شيئا يحمل، ومن الاستعارة المكنية كذلك قوله (لايهوى الفؤاد)، وقوله (وإن خان الفؤاد) حيث جعل الفؤاد شيئاً يهوى ويخون، كما استخدم التشبيه البليغ فى قوله (رماح المنايا) حيث يشبه المنايا بالرماح وهو من من إضافة المشبه به إلى المشبه، ويمكن أن يكون هذا المثال من باب الاستعارة المكنية، وقوله (إذا سار أحد فى القيامة كالعهن)، وقوله مشبهاً العرب أمام قوافى أبيه كالعجم الذين لايفصحون فى قوله (لك الفصحاء العرب كالعجم اللكن) .

واستخدم الشاعر الكناية فى أبياته بكثرة إذ استخدم فى بيت واحد سبع كنايات هى قوله (طاهر الجثمان) كناية عن عفة جوارحه، وقوله (طاهر النفس) كناية عن اعتقاده الحسن، وقوله (طاهر الكرى) كناية عن سمو أمانيه وتفكيره فى عظيم الأمور، وقوله (طاهر الجيب) كناية عن أمانته شرفه نزاهته وساحته، وقوله (طاهر الذيل) كناية عن عفته وبعده عن المحرمات، وقوله (طاهر الردن) كناية عن بعده عما لايحل له، وقوله (

استسر حديثه) كناية عن الموت .

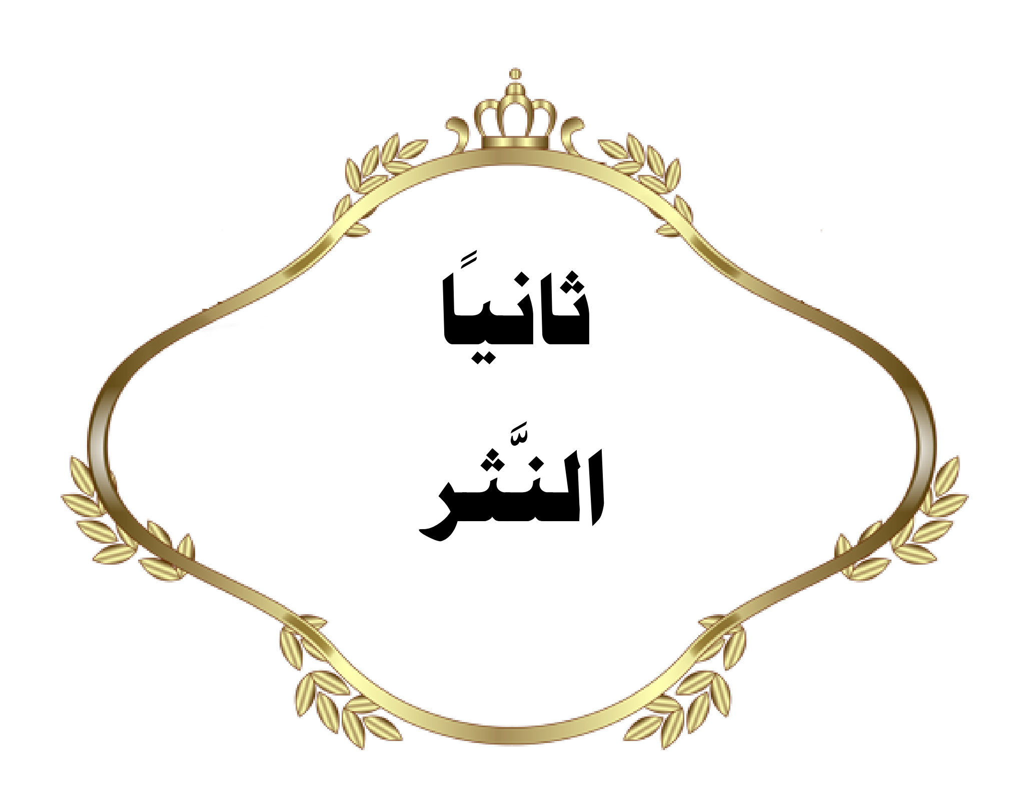
واستخدم الشاعر المجاز المرسل فى قوله (أمولى القوافى) حيث أطلق القوافى وأراد الشعر على سبيل المجاز المرسل، وعلاقته الجزئية، واستعان ـ كذلك ــ بالإيجاز بالحذف فى قوله (فإن تعهدينى لاأزال سائلاً) فحاولى أن تجيبى سؤالى كى أستغنى بالشئ وأكتفى به عما سواه، فالمحذوف هنا الجواب .

واستخدم الشاعر فى أبياته بعض الأساليب الإنشائية كالتمنى فى قوله (فياليت شعرى) والاستفهام فى قوله (هل يخف وقاره) وقوله (وهل يرد الحوض) والشرط فى قوله (إذا غيب المرء استسر حديثه) وقوله (فإن تعهدينى . .) وقوله (وإن لم يكن للفضل . .) واستخدم أسلوب التكثير فى قوله (كم أراك انقيادها) .

واستخدم الشاعر الإطناب لتقوية الحكم تارة، ولتقرير الحكم ثانية، وللإيضاح ثالثة، فمن الأول قوله (جهلنا فلم نعلم على الحرص) فقوى الجهل بعد العلم (فلم نعلم) ومن الثانى (لله ذى المن) فقوله (ذى المن) فيه إشارة إلى أن الله هو صاحب المن والإنعام ومن أجل ذلك اختص سبحانه وتعالى بعلم ما بعد الحياة الدنيا، ومن الثالث قوله (استسر حديثه ولم تخبر الأفكار عنه) فإسرار الحديث يقضى على تطلعات الأفكار.

ونلحظ ــ كذلك ــ استخدام الشاعر للجناس فى قوله (يمينك واليمن) فالكلمة الأولى تعنى اليد اليمنى والثانية تعنى البركة، وقوله (تغرد باللحن البرئ عن اللحن) فالأولى تعنى الطرب والغناء، والثانية تعنى الخطأ .

ونلمح جذور الرومانسية فى البيتين (سأبكى . . .) و(نادبة . . .) حيث خلع الشاعر على الكون ما يعانيه من حزن وهم، فالحمامة أضحى بكاؤها بكاء فى مسمعه والقينة أضحت ألحانها أنغاماً نادبة، فكأن هذه الأمور قد شاركته حزنه وهمه لفقد أبيه .



ثانيًا

النَّثر



من الوصايا العبّاسيّة

وصية المأمون لأخيه المعتصم حين حضرته الوفاة

قال : يَا أَبَا إِسْحَاقَ ، ادْنُ مِنّي وَاتَّعِظْ بِمَا تَرَى ، وَخُذْ بِسِيرَةِ أَخِيكَ فِي الْقُرْآنِ ، وَاعْمَلْ فِي الْخِلَافَةِ إِذَا طَوَّقَكَهَا اللَّهُ عَمَلَ الْمُرِيدِ لِلَّهِ ، الْخَائِفِ مِنْ عِقَابِهِ وَعَذَابِهِ ، وَلَا تَغْتَرَّ بِاللَّهِ وَمُهْلَتِهِ ، فَكَأَنَّ قَدْ نَزَلَ بِكَ الْمَوْتُ .. وَلَا تَغْفَلْ أَمْرَ الرَّعِيَّةِ ، الرعيّةَ الرعيّةَ ، الْعَوَامَّ الْعَوَامَّ ، فَإِنَّ الْمُلْكَ بِهِمْ ، وَبِتَعَهُّدِكَ المسلمين والمنفعة لَهُمْ .. اللَّهَ اللَّهَ فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا يَنْهِيَنَّ إِلَيْكَ أَمْرٌ فِيهِ صَلَاحٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَمَنْفَعَةٌ إِلَّا قَدَّمْتَهُ وَآثَرْتَهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ هَوَاكَ ، وَخُذْ مِنْ أَقْوِيَائِهِمْ لِضُعَفَائِهِمْ ، وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ ، وَأَنْصِفْ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ بِالْحَقِ بَيْنَهُمْ ، وَقَرِّبْهُمْ ، وَتَأَنَّ بِهِمْ ، وَعَجِّلِ الرِّحْلَةَ عَنِّي ، وَالْقُدُومَ إِلَى دَارِ مُلْكِكَ بِالْعِرَاقِ ، وَانْظُرْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ أَنْتَ بِسَاحَتِهِمْ ، فَلَا تَغْفَلْ عَنْهُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَالْخُرَّمِيَّةُ فَأَغْزِهِمْ ذَا حَزَامَةٍ وَصَرَامَةٍ وَجَلَدٍ ، وَاكْنُفْهُ بِالْأَمْوَالِ والسلاح وَالْجُنُودِ من الفرسان والرجالة ، فَإِنْ طَالَتْ مُدَّتُهُمْ فَتَجَرَّدْ لَهُمْ بِمَنْ مَعَكَ مِنْ أَنْصَارِكَ وَأَوْلِيَائِكَ ، وَاعْمَلْ فِي ذَلِكَ عَمَلَ مُقَدِّمِ النِّيَّةِ فِيهِ ، رَاجِيًا ثَوَابَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، واعلم أن العظة إذا طالت أوجبت على السامع لها والموصي بها الحجة ، فاتق الله في أمرك كُلّه ولا تفتن .

فلما اشتد به الوجع ، دعاه ثانية فقال : يا أبا إسحاق ، عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله ﷺ لتقومنّ بحق الله فى عباده ، ولتؤثرنّ طاعة الله على معصيته ، إذا أنا نقلتها من غيرك إليك ، قال : اللهم نعم .. قَالَ : فانظر من كنت تسمعني أقدمه على لساني ، فأضعف له التقدمة [عبد الله بْن طاهر] أقره على عمله ، ولا تهجه ، فقد عرفت الذي سلف منكما أيام حياتي وبحضرتي ، استعطفه بقلبك ، وخصه ببرك ، فقد عرفت بلاءه

وغناءه عن أخيك .. و[إسحاق بْن إبراهيم][(1)] فأشركه في ذلك فإنه أهل له ، وأهل بيتك ، فقد علمت إنه لا بقية فيهم ، وإن كان بعضهم يظهر الصيانة لنفسه .. [عبد الوهاب] عليك به من بين أهلك ، فقدمه عليهم ، وصير أمرهم إليه ، و[أبو عبد الله بن أبي دؤاد][(2)] فلا يفارقك ، وأشركه في المشورة في كل أمرك ، فإنه موضع لذلك منك ، ولا تتخذن بعدي وزيرًا تلقي إليه شيئًا ، فقد علمت ما نكبني به [يحيى بْن أكثم] في معاملة الناس ، وخبث سيرته ، حتى أبان الله ذلك منه في صحة مني ، فصرت إلى معارضته ! قاليا له ، غير راض بما صنع في أموال الله وصدقاته ، لا جزاه الله عن الإسلام خيرا ! وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين عَلِيّ بْن أبي طالب رضي الله عنه

فأحسن صحبتهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، واقبل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغفلها في كُلّ سنة عند محلها ، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى .. ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ربكم ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : من ١٠٢) .. اتقوا الله واعملوا له ، اتقوا الله في أموركم كُلّها .. أستودعكم الله ونفسي ، وأستغفر الله مما سلف ، وأستغفر الله مما كان مني ، إنه كان غفارًا ، فإنه ليعلم كيف ندمي على ذنوبي ، فعليه توكلت من عظيمها ، وإليه أنيب ، ولا قوة إلاّ بالله ، حسبي الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على **مُحمّد** نبي الهدى والرحمة[(3)] .

(١) إسحاق بن إبراهيم الخزاعي ، ابن عم طاهر بن الحسين ، كان نائبًا للمأمون على بغداد .
(٢) هو أحمد بن أبي دؤاد – أبو عبد الله القاضي ، الذي تولى كبر المجادلة مع الإمام أحمد بن حنبل في مسألة خلق القرآن – وهو معتزلي ، أصيب بالفالج في أوّل خلافة الواثق .. ت ٢٤٠هـ .. راجع كتابنا : الأدب العباسي – تاريخ وقضايا .
(٣) تاريخ الطبري ٦٤٨/٨-٦٥٠ ، والكامل لابن الأثير ٤٢٩/٦-٤٣١ .



التعليـــق

إنها وصية مودّع ، وحين يكون موفّقًا يوصي بما يُرضي الله ، ويردّ الحقوق إلى أصحابها ، والتراجع عمّا يكون قد أخطأ فيه ، فهو مُقبل على حساب عسير ، يحاسب على الصغير والكبير ، والفتيل والقطمير ..

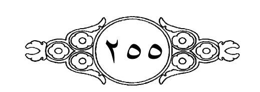
وعلى قدر المسئولية يكون الحساب ..

- ونلاحظ أنه في بداية الوصية يدعو أخاه إلى ألاّ يحيد عن نهجه في (مسألة خلق القرآن) ، هذا المذهب الذي أقنعه به المعتزلة ..

وهو أمر عجيب حَقًّا !! وقد كانت هذه الوصية سببًا في إنزال العذاب بالإمام أحمد بن حنبل ، وظل الإمام ثابتًا كالطود الأشم ، وتعاقب الخلفاء على هذا النهج حتى جاء المتوكل ..

- وفي الفقرة الثّانية : يفرض المأمون على المعتصم ملأه وحاشيته ، وكان حريًّا به أن يدعه ليختار رعيته كيفما يشاء .. لكنه حدّد له أسماء ، أوصاه أن يُبقي عليها ، وهم : عبد الله بن طاهر ، وأبو عبد الله بن أبي دؤاد ، وإسحاق بن إبراهيم ، وعبد الوهاب ..
- ثم أوصاه بأبناء عليّ بن أبي طالب ، بأن يحسن إليهم ، ويتجاوز عن مسيئهم ، ولا يقطع صلته ، ويراعي حقوقهم ..

وعجيب أمر المأمون !! فهو يعهد بالخلافة من بعده إلى عليّ الرضا ابن موسى الكاظم ، وقد كان ورعًا تقيًّا ، وكان المأمون يقدره ... وقد حار الدارسون في تصرف المأمون إزاء أبناء عليّ : فذهب بعضهم إلى أنه ربما يكون ذلك تكفيرًا عمّا ارتكبه الخلفاء من قبل في حق هؤلاء .. وربما كان المأمون يهدف إلى وحدة الأمة بدلاً من فرقتها ، خاصة أن هناك حروبًا مستعرة بينه وبين أطراف أخرى ... وهذه هي السياسة ..



ويلاحظ أن الوصية قد جاءت في ألفاظ وعبارات سلسة مفهومة لا تحتاج إلى جهد في فهمها ..

وقد ابتعدت عن التكلف ، فليس فيها زينة لفظية ..

ونجد فيها تأثرًا بخطبة الصديق ﷺ حين قال : " **القوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له** " .. وقال المأمون : " **وَخُذْ مِنْ أَقْوِيَائِهِمْ لِضُعَفَائِهِمْ** " .

فن المقامة عند بديع الزمان الهمذاني

المقامة البغداذية نموذجًا

فن المقامة

في المصطلح :

المقامة في اللّغة[١] : هي المجلس ، فمقامات الناس مجالسهم ونواديهم .. قال العباس بن مرداس السلمي :

فَأَيِّيَ ما وَأَيُّكَ كانَ شَرًّا .·. فَسيقَ إلى المَقامَةِ لا يَراها

كما تطلق – مجازًا – على القوم الجالسين في ذلك المجلس ، قال زهير :

وَفيهِم مَقاماتٌ حِسانٌ وُجوهُهُم .·. وَأَندِيَةٌ يَنتابُها القَولُ وَالفِعلُ

وقال لبيد :

وَمَقامَةٍ غُلْبِ الرِقابِ كَأَنَّهُم .·. جِنٌّ لَدى طَرَفِ الحَصيرِ قِيامُ

والمُقامة – بضم الميم – كالمقام والمقام ، أي الإقامة ، قال لبيد :

عَفَتِ الدِيارُ مَحَلُّها فَمُقامُها .·. بِمَنىً تَأَبَّدَ غَولُها فَرِجامُها

وفي الذكر الحكيم : ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ...﴾ (فاطر : من ٣٥) .

أمّا المقامة في اصطلاح أهل الأدب والنقد ، فهي[٢] : أحاديث أدبية ، بليغة ، منثورة ، مسجوعة ، تقوم على حدث طريف ، بطلها نموذج إنساني مُكْدٍ ومتسول ، ولها راوٍ ، وبطل .

---

(١) راجع لذلك : لسان العرب ، وفن المقامات بين المشرق والمغرب – د/ يوسف نور عوض – مكتبة الطالب الجامعي – مكة المكرمة ، والمقامة – د/ شوقي ضيف – سلسلة فنون الأدب العربيّ ... وغيرها من المراجع التي سترد بعد .

(٢) السابق نفسه .

ومغزى الحديث فيها : مفارقة أدبية ، أو مسألة دينية ، أو سخرية ، في مغامرة مضحكة ، وتنطوي على نقد ، أو ثورة ، أو سخرية ، في إطار من صبغة لفظية وبلاغية .. وقد تتضمن أبياتًا من الشِّعْر ، للمؤلف أو لغيره .

وعرفها آخرون بأنها(١) : حكاية أدبية قصيرة ، يدور أغلبها حول الكدية والاحتيال لجلب الرزق ، وتشتمل على نكتة أدبية تستهوي الحاضرين .

وقد ذهب الدكتور شوقي ضيف(٢) ، إلى أن بديع الزمان الهمذاني هو أوّل مَن أعطى كلمة (مقامة) معناها الاصطلاحي بين الأدباء ؛ إذ عبر بها عن مقاماته المعروفة ، وهي جميعها تصور أحاديث تلقى في جماعات .. فكلمة (مقامة) عنده قريبة المعنى من كلمة (حديث) .. هذا الحديث يصاغ في شكل قصص قصيرة يتأنق في ألفاظها وأساليبها ، ويتخذ لقصصه جميعًا راويًا واحدًا هو (عيسى بن هشام) .. وبطلاً واحدًا هو (أبو الفتح الإسكندري) الذي يظهر في شكل أديب شحاذ ، لا يزال يروع الناس بمواقفه بينهم ، وما يجري على لسانه من فصاحة .

بديع الزمان الهمذاني(*)

هو : أحمد بن الحسين بن يحيى .. كنيته : أبو الفضل .. لقبه : بديع الزمان .. والهمذاني نسبة إلى همذان .

ولد بهمذان – في إيران – سنة ٣٥٨هـ تقريبًا ، وتوفي في سنة ٣٩٨هـ

---

(١) د/ حجاب – حوليات دار العلوم ٦٩/٨ ص٨٥ نقلاً عن : المقامة بين الشرق والغرب ص١٣ .

(٢) المقامة ص٨ .

(*) راجع ترجمته في : يتيمة الدهر – الثعالبي ، وبديع الزمان الهمذاني – مارون عبود ، وبديع الزمان – د/ مصطفى الشكعة ... وغيرها .



.. أي أنه مات ابن أربعين عامًا .

يقول عن نفسه : أنا عبد الشيخ ، واسمي أحمد ، وهمذان المولد ، وتغلب المورد ، ومضر المحتد .. إذًا هو عربي وليس فارسيًّا .

نشأ بهمذان ، واختلف إلى دروس العلم والأدب ، وكانت " همذان من المكانة الثقافية والنشاط الأدبي بحيث نشأت كثيرًا من أعلام الفضل والأدب في القرن الرابع ... "[١] .

وكان من أهم أساتذته : أحمد بن فارس ، صاحب كتاب (المجمل) ، فاغترف من علمه ، ونهل من فيضه .

ويلاحظ " أن أعلام همذان كانوا يغادرونها وهم في مقتبل أعمارهم ، ويفرون منها مطوفين بالأمصار المجاورة تارة ، والأقطار النائية تارة أخرى... " .. وحين أتم بديع الزمان الثّانية والعشرين من عمره خرج من همذان وغادرها كشأن سائر العلماء ..

ويرى الدكتور مصطفى الشكعة[٢] أن لهجرة بديع الزمان وإخوانه من أدباء العصر الهمذانيين سببين :

الأوّل : هو غرام طلاب الأدب والعلم بالتنقل من بلدة إلى أخرى ؛ حيث يلتقون بكبار الأدباء المشهورين اللامعين ، فيفيدون من علمهم ، ويتصلون بأمراء العصر ووزرائه فيغترفون من برهم ومنحهم ؛ حيث كان هؤلاء يعقدون مجالس أدبية تجمع أدباء العصر وفضلاءه .

الثّاني : أن مدينة همذان شديدة البرودة ، كثيرة الثلوج أغلب العام .

ولذلك هجوها ، فقال بديع الزمان :

همذان لي بلد أقول بفضله ∴ لكنه من أقبح البلدان

---

(١) بديع الزمان – د/ الشكعة ص٣٧ وما بعدها .
(٢) بديع الزمان – د/ الشكعة ص٣٧ وما بعدها .



صبيانه في القبح مثل شيوخه ∴ وشيوخه في العقل كالصبيان

ونزل بساحة (الصاحب بن عباد) – في أصبهان – وكان الصاحب حينئذ " منارة أصبهان وشعلتها المضيئة بما جمعت ندوته من الشعراء والأدباء ، الذين يربى عددهم – فيما يُقال – على شعراء الرشيد .

ولم تطل إقامته هناك ، قيل : إنه وشي به لدى الصاحب ، لمقامه عنده وحظوته لديه .. ومن ثَمّ اتجه إلى جرجان ، وهي بلدة لها مكانة علمية مشهورة ، ففيها نشأ عبد القاهر الجرجاني ، والقاضي عليّ بن العزيز الجرجاني .. وهناك أقام في كنف أبي سعد مُحمّد بن منصور .

وما لبث أن هجر جرجان إلى نيسابور ، فأقام بها مدة ، وهي مدينة الفضل والعلم والأدب .. وكان بها آنئذ شيخ عصره في علوم اللّغة والبلاغة وأيام العرب وأمثالها (أبو بكر الخوارزمي) .. والتقى به بديع الزمان فلم يحسن الخوارزمي لقاءه .. وصارت بينهما خصومة أدت إلى مناظرة بينهما.

ومن ثَمّ لم يطب لبديع الزمان الإقامة في نيسابور ، فغادرها متجهًا إلى سجستان ، وكان أميرها الأديب الفاضل الأمير خلف بن أحمد ، وقد وجد البديع عنده التكريم والإجلال وأهدى إليه مقاماته[1] .

ومن سجستان إلى غزنة ؛ حيث عاصمة السلطان (محمود الغزنوي) الذي عاش البديع إلى جانبه عيشة راضية .. ثم إلى هراة ؛ حيث كانت وفاته هناك .. وقيل : إنه مات مسمومًا ، وقيل : إنه أصيب بغيبوبة فظن أنه مات ، وعجل بدفنه ، فأفاق في قبره ، وسمع صوته في الليل ، فنبش عنه فوجد ميتًا من هول القبر ، وقد أمسك لحيته بيده[2] .

---

(١) راجع للتفصيل : بديع الزمان – د/ الشكعة ، ورأي في المقامات – د/ عبد الرحمن ياغي ، وفن المقامات بين المشرق والمغرب .

(٢) بديع الزمان – د/ الشكعة ص٥٧ وهو ينقل عن وفيات الأعيان ٦٨/١ ، وشذرات الذهب ١٥٠/٣ .



فقره وبؤسه :

عاش بديع الزمان فقيرًا ، بائسًا ، مع أنه كان أديبًا ، بليغًا ، ذكيًّا ، نبيهًا ، سريع الخاطر ، صافي الذهن .

بيد أنه – فيما يبدو – كان قليل الحيلة ، أو على الأقل لم يكن يحسن استخدام الحيل .. ولا يغرنك أنه كتب مقاماته قائمة على الحيل ، كما أنه امتهن مهنة الكُدْيَة الوضيعة ، إذ أغلب الظن أنه دُفع إليها دفعًا(1) ..

ومن ثَمّ نراه يواسي نفسه في مثل قوله(2) :

[يا أبا الفضل ، ليس هذا بزمانك ، وليست هذه بدارك ، ولا السوق سوق متاعك ، بئست الكتب وما وسقت ، والأقلام وما اتسقت ، والمحابر وما سقت ، والأسجاع إذا اتسقت ...] .

وليس بديع الزمان بدعًا من الأدباء والعلماء في كُلّ عصر ، فكم من عالم وشاعر ومبدع وعبقري أصابهم الجوع ، وعضهم الفقر بنابه ، بينما الجهال والحمقى يرفلون في العز والنعيم ومتاع الدنيا !!

تَمُوتُ الأُسْدُ في الغاباتِ جوعًا ∴ وَلَحمُ الضَأنِ تَأكُلُهُ الكِلابُ
وَعَبدٌ قَد يَنامُ عَلى حَريرٍ ∴ وَذو نَسَبٍ مَفارِشُهُ التُّرابُ

وقال الشّاعر :

وَلَو كانَتِ الأَرزاقُ تَجري عَلى الحِجا ∴ هَلَكنَ إِذَن مِن جَهلِهِنَّ البَهائِمُ

متى ألّف البديع مقاماته ؟

يكاد الباحثون يجمعون على أن البديع ألّف مقاماته أثناء إقامته بنيسابور .. ولعله أنشأ بها أربعين مقامة فقط ، ثم رأى أن يزيد عليها بعد ، فزادها ستًّا ، ثم خمسًا أخرى ، حتى نيفت على

(1) راجع : فن المقامات بين المشرق والمغرب ص49 .
(2) السابق نقلاً عن خزانةابن حجة ص125 .



الخمسين[1] .. وقيل غير ذلك[2] .

أوّل مَن ابتدع المقامة :

المشهور بين أهل الأدب أن بديع الزمان هو مبتدع فن المقامة ، وقيل : إنه نقلها من الفارسية إلى العربيّة ..

ذهب إلى ذلك الأستاذ أحمد ضيف[3] ، وكارل بروكلمان[4] ، وقد ردّ عليهما الدكتور يوسف نور عوض[5] .

وذهب آخرون إلى أن مبتدع هذا الفن هو (ابن دريد) ، وأن الهمذاني كان مقلدًا له وتابعًا ، ومتأثرًا به ..

وممن رأى ذلك : الحصري القيرواني ، وتابعه الدكتور زكي مبارك ، لكنه قال[6] : " ومع أن ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات ، فإن عمل بديع الزمان في هذا الفن أقوى وأظهر ، وطريقته في القص تختلف عن طريقة ابن دريد .. والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن في أذهانهم غير فن بديع الزمان ، فهو بذلك منشئ هذا الفن في اللّغة العربيّة " .

ويقول الدكتور زكي مبارك[7] : " إن الحريري هو الذي أذاع الغلط بين الناس بأن بديع الزمان هو أوّل مَن أنشأ فن المقامات ، حين قال في مقدمة مقاماته : [... ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان ، وعلامة همذان] "

(١) المقامة – د/ شوقي ضيف ص١٧ ، ١٨ .
(٢) بديع الزمان – دار الشكعة ص٢٣٠ .
(٣) النثر الفني ٢٠٣/١ .
(٤) دائرة المعارف الإسلاميّة (مقامة) .
(٥) فن المقامات ص١٣ .
(٦) النثر الفني ٢٠١/١ .
(٧) النثر الفني ١٩٨/١ .. وانظر : مقدمة مقامات الحريري .



ومهما يكن من أمر – فيما يتعلق بأصول فن المقامة – " فبإمكاننا أن نجزم بأن فكرة المقامة كما نعرفها كانت موجودة ، وأن أوّل مَن التقطها ليحدث منها جنسًا أدبيًّا جديدًا : الهمذاني ؛ إذ ليس من الضروري كلما وجدنا أنفسنا أمام تجديد ما أن نبحث له عن نموذج بأي ثمن من الأثمان ؛ لأن أبسط قواعد العدل تقتضي منا أن نعطي للاستنباط الشخصي نصيبه "(١) .

ويقول مارون عبود(٢) : " إن خطة المقامات هي من عمل البديع ، فلا لابن فارس ولا لابن دريد يد في صنعها ، فالهمذاني هو الذي ألبسها هذا الطراز الموشى .. لكنه جمع مادة المقامات من هنا وهناك .. ويعد الجاحظ أوّل مَن أثر في البديع من خلال كتابه (البخلاء) .

مجتمع الهمذاني :

في مجتمع ذاخر بالمتناقضات ، مليء بالصراعات : سياسية ، واجتماعية ، وثقافية ، وفكرية ، وفي شتى مناحي الحياة .. وتفاوت بين الطبقات .. في ذلك المجتمع ولدت مقامات بديع الزمان .

لقد كان الصراع محتدمًا بين الفرق والمذاهب ، والملل والنحل .. كان هناك أهل السنة ، والشيعة ، والمعتزلة .. ثم الزنج والحشاشون .. وصراع آخر أحمى أطلق عليه (الشعوبية) ؛ حيث علت أصوات أدباء العجم وشعرائهم ونقادهم .. وأطلقت أيادي الساسة منهم يصرفون شئون الحكم كيفما يروقهم ، وتحكموا في الخلفاء ، يعزلون من يشاءون ، ويولون من يشاءون ، حتى بلغ بهم الأمر أن نصبوا وعزلوا سبعة خلفاء خلال أربعة

(١) دائرة المعارف الإسلاميّة ، وفن المقامات .
(٢) بديع الزمان الهمذاني ص٣٤ .



عشر عامًا .

وكأنما أرادوا أن يعوضوا الغبن الذي لحقهم أيام دولة بني أمية .. وكان من نتائج ذلك أن بعض أعلامهم طاولوا الحكام ونافسوا الخلفاء والأمراء ، فكانت منزلتهم لدى الشعب عالية .. مثل البرامكة ، ومن قبلهم أبو مسلم الخرساني ... وغيرهم .

وشاعت موجة اللهو والمجون والخلاعة ، وكثرت الجواري والقينات ، وفي مقابل ذلك ظهرت حركة الزهد والتصوف .

مجتمـــع ملـــيء " بالآمـــال الخائبـــة ، والادعـــاءات الخادعـــة ، والتدليس ، والنفاق ... "[1] .

وزاد عدد الأثرياء حتى إن الأموال كانت تقدر بالملايين ، وذلك على حساب الفقراء .. وضمت طبقة الأثرياء الخلفاء ، والولاة ، والأمراء ، والوزراء ، والحجاب ، وبعض الأدباء .

وظهر التفنن والتأنق في بناء القصور والحدائق ، والبذخ والإسراف في المطعم والمشرب والملبس .

بينما هناك طبقة بائسة ، يائسة ، فقيرة ، معدمة ، لا تكاد تجد قوت يومها ، مما اضطر بعضهم إلى التسول كوسيلة للحصول على الطعام .. وقد ضمت هذه الطبقة بعض الشعراء والأدباء والعلماء الذين أبت عليهم عزتهم وأنفتهم أن يذلوا أنفسهم ، ويريقوا ماء وجوههم على أعتاب الخلفاء والأثرياء .

في هذا المجتمع ظهرت المقامات في " إطار ما يعرف بأدب الكُدية ، أو الأدب المضاد للبطولة ، وهو أدب تلجأ إليه الأمم عندما تعم الفوضى السياسية

---

(١) المفارقة في مقامات بديع الزمان – أحمد خريس – مجلة جذور ص٣٥٧ .



، وينتشر الظلم الاجتماعي ، فيكون بمثابة العين الناقدة ... " .

" ومثلما يقود الوضع التاريخي السيء إلى التشاؤم ، وفقدان الأمل ، فإنه يقود – أيضًا – إلى تقوية حس الهجاء لدى محترفي الأدب ، بتعويل على السخرية والفكاهة .. فالسخرية هي العلاج الأمثل لتجاوز رداءة الزمن وناسه ، وهي الرد الأمثل عند الشعور بالعجز عن ردّ الأمور إلى نصابها ... "(١) .

كان بديع الزمان شاهدًا على ذلك العصر بكل ما فيه ، وطاله الظلم الاجتماعي ، حيث عاش فقيرًا بائسًا ، بينما الجهال وأراذل الناس من حوله يرفلون في النعيم .. فكانت مقاماته تنفيسًا عمّا يقاسي من هموم ، ويعاني من ظلم .

لقد "كان هبوط الخلافة في القرن الرابع ارتفاعًا للأدب .. وما من عصر حفل بالأدباء والعلماء والشعراء كهذا العصر ، أليس هو عصر المتنبي ، وابن العميد ، وابن عباد ، والخوارزمي ، وبديع الزمان ، والتوحيدي ، والصابي ، وابن فارس ، وابن دريد ، والشريف الرضي ... "(٢) إلخ إلخ .

---

(١) المفارقة في مقامات بديع الزمان – أحمد خريس – مجلة جذور ص٣٥٧ ، ٣٥٨ .
(٢) بديع الزمان – مارون عبود ص١٤ .



أبو الفتح الإسكندري وعيسى بن هشام
البطل والراوي

(١) البطـــل :

كان الفقر حليفًا لطائفة من الأدباء والعلماء في ذلك الزمان ، حتى ليقول أبو حيان التوحيدي(١) : " القوت لم يكن إليه سبيل إلاّ بإخلاق المروءة ، وتجرع الأسى ، ومقاساة الحرقة ، ولذع الحرمان ، والصبر على ألوان من الهوان وألوان ... " .

ولم يجد بعض الفقراء سبيلاً للارتزاق إلاّ أن يحتالوا ليقتلوا الجوع قبل أن يقتلهم .. ومن ثَمّ وجدت ظاهرة (الكدية) ، وبرزت بشكل سافر على أيدي الساسانيين .

الساسانيون :

وآل ساسان – كما هو معروف – أسرة فارسية حكمت الفرس مدة من الزمان ، وقد ذكرهم البحتريّ في سينيته بقوله :

أَتَسَلّى عَنِ الحُظُوظِ وَآسى ∴ لِمَحَلٍّ مِن آلِ ساسانَ دَرسِ

وافتخر بشار بانتسابه إليهم في بائيته قائلاً :

جَدّي الَّذي أَسمو بِهِ ∴ كِسرى وَساسانُ أَبي

فهل أراد بديع الزمان الهمذاني أن يشير إلى أنهم قوم ذلوا بعد عز ، وصاروا سوقة بعد أن كانوا ملوكًا ؟! وأن لسان حالهم يشكو مع حرقة بنت النعمان بن المنذر(٢) :

فَبينا نَسوسُ الناسَ وَالأمرُ أمرنا ∴ إذا نَحنُ فيهم سوقةٌ نتنصّفُ

---

(١) حماسة أبي تمام – شرح المرزوقي – رقم ٤٤٩ ، وبشرح التبريزي – رقم ٥٠ .
(٢) حماسة أبي تمام – شرح المرزوقي – رقم ٤٤٩ ، وبشرح التبريزي – رقم ٥٠ .

فَـــأفّ لِـــدنيا لا يـــدومُ نَعيمهـــا ∴ تَقلّـــبُ تـــاراتٍ بنـــا وتصـــرّفُ

لقد غدر الزمان بآل ساسان ، حتى اضطروا إلى الاحتيال لسد فقرهم ، وإشباع حاجاتهم .

ويـرى الإمـام مُحمّـد عبـده[1] : أن الساسـانيين هـم شـراذم الأمـراء الفارسيين، الذين أَبَوا الدخول في الإسلام ، بعد فتح بلاد فارس ، وانطلقوا هائمين على وجوههم بعد أن افتقروا وذلوا .. فصارت النسبة إليهم نسبة عار وهوان.

وقد كثر هؤلاء الساسانيون أيام بديع الزمان ، وكان منهم أدباء وشعراء، نذكر منهم : الأحنف العكبري ، القائل :

عشـــتُ فـــي ذلـــةٍ وقلـــةِ مـــال ∴ واغتـــرابٍ فـــي معشـــر أنـــدال
بالأمـــاني أقـــول لا بالمعـــاني ∴ فغـــذائي حـــلاوة الآمـــال

وقال :

علـــى أنـــي بحمـــد اللـــــه فـــي بيـــتٍ مـــن المجـــد
بـــإخواني بنـــي ساســـان أهـــل الجـــد والحـــد

والشاعر أبو دلف مسعر بن المهلهل الخزرجي ، الذي كان " قريبًا من نفس بديع الزمان ، بل لعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا : إن البديع كان ينزله من نفسه منزلة الأستاذ المعلم .. يتعرف أخباره ، ويروي أشعاره ، كما كانت رحلاته وتطوافه في الأرض الواسعة موضع عجبه واستظرافه ، وشيخوخته وحكمته وتجاربه ، وأستاذيته في حرفته موضع تأمله واستعجابه ... "[2] .

من هنا اختار بديع الزمان لمقاماته بطلاً ساسانيًا هو (أبو الفتح) ،

---

(١) شرح مقامات بديع الزمان ص٨٩ .
(٢) النموذج الإنساني ص٥٨ .



وجعله (إسكندريًّا) نسبة إلى الإسكندرية ، حيث يقول :

إسْكَنْدَرِيَّةَ دَارِي ∴ لَوْ قَرَّ فِيهَا قَرَارِي

ولكن : أي إسكندرية تلك التي انتسب إليها أبو الفتح من بين ثلاث عشرة بلدة تُسمّى بهذا الاسم ؟

قيل : إنها إسكندرية الأندلس ، التي بناها المقدوني على ضفاف النهر الأعظم – نهر أشبيلية – ، حيث يقول أبو الفتح في المقامة الجرجانية :

[من الثغور الأموية ، والبلاد الإسكندرية]

والمقصود بالثغور الأموية – فيما يبدو – بلاد الأندلس ، لكن الدكتور مصطفى الشكعة ينقل عن الدكتور عبد الوهاب عزام أن صحتها (الآموية) وليس (الأموية) ، وعلى ذلك فالإسكندرية المقصودة هي التي تقع على نهر آموي (جيحون)(١) .

أبو الفتح بين الواقع والخيال :

اختلف الدارسون حول شخصية أبي الفتح ، فذهب بعضهم إلى أنها شخصية خيالية لا أساس لها في واقع الحياة ودنيا الناس .

لكن سماته وصفاته وأفعاله وتصرفاته توجد وتصدق على شخصيات عديدة في المجتمع ..

وربما كان أبو الفتح هو بديع الزمان نفسه ، فبينهما أوجه شبه كثيرة .. فحال بديع الزمان هو حال أبي الفتح من حيث : الفقر ، الجوع ، الذكاء ، النبوغ ، الموهبة الأدبية .. وكذلك في السخط على المجتمع الذي نطق به على لسان أبي الفتح حين قال :

هذا الزمان شوم ∴ كما تراه غشوم
الحمق فيه مليح ∴ والعقل عيب ولوم

---

(١) راجع : بديع الزمان ص٢٣٤ .



والمــــــال طيــــــف ولكــــــن ∴ حــــــول اللئــــــام يحــــــوم

إلى غير ذلك من مظاهر التمرد والثورة والسخط على المجتمع .

ويصف الهمذاني أبا الفتح بأنه : [رجل الفصاحة ، يدعوها فتجيبه ، والبلاغة يأمرها فتطيعه ...][(١)] .

فأبو الفتح يمكن أن يكون (المعادل) لبديع الزمان ومَن على شاكلته من الأدباء الذين قست عليهم ظروف الحياة الاجتماعية والسياسية فآدت ظهورهم ، ولم تيسر لمقدراتهم الإنسانية والفنية النمو والازدهار ، فسخطوا على المجتمع ، وسخروا منه كما سخر منهم ، وراحوا يتكسبون بأدبهم ، ويستغلون غفلة الناس وسذاجتهم ، ويهجون من خلال حيلهم كُلّ طبقات المجتمع ، مع إبرازهم للتناقض الصارخ بين حياة طبقاته ... "[(٢)] .

إذًا أبو الفتح الإسكندري شخصية صنعها بديع الزمان ..

ويظهر أبو الفتح في المقامات في صورة أديب ماكر ، متلون ، يلبس لكل حالة لبوسها ، ويتقمص شخصيات شتى .. فقد تقمص شخصية الزاهد، والخطيب ، والأعمى ، والقراد ، والشاعر ، والدجال ... وهو تارة شاب ، وأخرى شيخ عجوز هرم .

(٢) الراوي : عيسى بن هشام :

يقوم عيسى بن هشام بدور الراوية الذي يحكي ما رآه من أبي الفتح الإسكندري ، حيث يعمل عيسى بالتجارة ، ويتنقل في أرجاء المملكة العربيّة الإسلاميّة ، وتضطره الظروف إلى لقاء أبي الفتح في كُلّ بلدة نزلها ، أو قطر زاره .. ويكشف عيسى بن هشام شخصية أبي الفتح رغم تنكره وخداعه ومكره

---

(١) مقامات بديع الزمان ص١٢١ .

(٢) النموذج الإنساني ص٦٨ – د/ خفاجي في : الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثّاني ، ورأي في المقامات – د/ ياغي .



وختله ؛ إذ يظل يتربص به حتى يكشفه فيفضحه .

" وشخصية الراوي (عيسى بن هشام) ذات أهمية خاصة في مقامات الهمذاني ؛ لأنه هو الذي يمهد لظهور البطل ، وهو الذي يتابعه حيثما وجد .. وفي كُلّ ذلك يحسن طريقة التقديم فيجعلها الصدفة ، أو يجعلها المناسبة ، أو ما إلى ذلك ... " .

" وعلى العكس من شخصية الإسكندري ، لم يعش ابن هشام مشردًا ، بل كان في معظم حالاته رافلاً في أثواب العز والنعيم .. كما نجده محوطًا بالأصدقاء والوجهاء ، لا هَمّ لهم سوى السمر والشرب والطرب ، بل إنه بلغ ولاية البصرة في المقامة الخلفية ... "[1] .

وإذا كانت أغلب مقامات الهمذاني تقوم على ثنائية (الراوي – البطل) فإن بعضها قد يقتصر على الراوي الذي يلعب شخصية البطل في الوقت نفسه ، بينما يغيب أبو الفتح تمامًا .. نجد ذلك في المقامات : التميمية ، البشرية ، البغداذية ...[2] .

مسرح الأحداث :

مسرح الأحداث في المقامات رحب جِدًّا ؛ إذ تكاد المقامات تغطي " معظم بقاع الدولة الإسلاميّة ، لاسيما في المشرق ، ولا نعرف لذلك التعدد سببًا سوى التكدي في بقاع مطروقة ، تتيح للإسكندري فرصة أكبر في خداع مَن لا يعرفونه " .

" وكذلك رغبة الهمذاني الضمنية – ربما – انتقاد ذلك الشتات الذي

(١) فن المقامات ص١٢٩–١٣١ .
(٢) راجع : المقامات وباكورة قصص الشطار ص٣٤ .



وقع للدولة الإسلاميّة في عصره ، وأطاع بوحدتها المركزية "[1] .. وهو يشير – كذلك – إلى أن ذلك الواقع المصور ، والفساد الضارب في عصره ليس مقصورًا على بلد دون بلد ، وإنما هو وباء عام في كُلّ الأمصار ، لا يستثنى من ذلك مصر دون مصر .

ويعقد الدكتور مصطفى ناصف وجه شبه بين أبي الفتح والصاحب في الشِّعْر القديم ، فيقول : " وأبو الفتح الإسكندري هو الصورة المتحولة عن الصاحب القديم في القصيدة القديمة .. الصاحب القديم يعين على البكاء ، والصاحب الجديد يعين على الضحك الذي لا يبالي " .

ويوازن بين الرحلة في القصيدة القديمة والرحلة في المقامات ، فيرى : " أن الرحلة القديمة كانت تطهيرًا للنفس والعزيمة ، وابتعاثًا للقلق والغامض والجليل ، وأما الرحلة الجديدة فكانت تلويثًا وتشويشًا وإيثارًا للفرقة والانقسام في داخل النفس والجماعة ... "[2] .

وربما أراد الهمذاني أن يشعرنا بغربته ، تمامًا كما كان الشّاعر القديم في مقدمة قصيدته[3] .

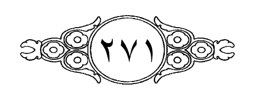
اللّغة والأسلوب في المقامات :

١ – تذخر المقامات بالكثير من الألفاظ الغريبة ، كما في المقامة القردية التي تستعمل فيها كلمة (الرجلة) جمعًا لـ (رجل) ، وهو جمع شاذ ، لم تكن هناك ضرورة لاستخدامه .

وقوله في المقامة الموصلية : [فأخذه الجف ، وملكته الأكف] قاصدًا بالجف : الجمهور ..

---

(١) المفارقة في مقامات بديع الزمان – مجلة جذور ص٣٦٠ .
(٢) محاورات مع النثر العربيّ ص٢٠٤ .
(٣) فن المقامات ص١٣١ .



ولعل المقامة الحمدانية أكثر المقامات ألفاظًا مهملة وحوشية غير مسموعة[1] .

وكانت المقامات في عصر الترف ، ترف في مناحي الحياة ، وأهمها الترف العقلي الذي أصاب كثيرًا من العلوم في ذلك العصر .. فكان " لابد في عصر بديع الزمان من البحث عن رفاهية لغوية ، رفاهية تنطوي على قدر لا بأس به من حذف نشاط كثير .. الرفاهية عود إلى الجذور لا يخلو من سخرية .. وفي ذلك ثناء ضمني على الماضي بوجه عام ، وفيه قدر من تصوير أحلام اليقظة ... "[2] .

٢ – اختار الهمذاني لمقاماته صيغة (السجع) التي حازت إعجاب كثير من الأدباء والنقاد في ذلك الزمان ، وقد أظهر براعته في استخدامها ، وكان لا يترك السجع إلاّ نادرًا ، تسعفه في ذلك حافظة نادرة ، وبديهة حاضرة ، وذكاء حاد ، وإحساس دقيق باللّغة ومرادفاتها وأبنيتها واستعمالاتها المختلفة .. وسجعه خفيف رشيق ، أغلبه غير متكلف ..

ومما خفف من سجعه روح الفكاهة التي تخللت مقاماته ، فجعلتها أكثر قبولاً ، وأسرع علوقًا للأذهان .

ويتميز سجعه بالقصر غالبًا ، وضبط الأنغام ، كما كان يضيف إليه بعض المحسنات البديعية من جناس وغيره[3] .

٣ – الاقتباس : وهذا الاقتباس قد يكون من الشِّعْر القديم ، أو من القرآن

(١) راجع : المقامة – د/ شوقي ضيف ص٤٢ .
(٢) محاورات مع النثر العربيّ ص١٨٢ .
(٣) راجع : المقامة – د/ شوقي ضيف ص٣٢ وما بعدها ، وبديع الزمان – د/ الشكعة ص٢٦٠ .

الكريم ، و الحديث الشريف ، والأمثال العربيّة .

٤ – الشِّعْر في المقامات : في المقامات شعر كثير ، قد يكون من تأليف البديع نفسه ، أو من شعر غيره – كما ذكرت – .. والمقامات التي تخلو من الشِّعْر قليلة ، مثل : (المضيرية ، والشيرازية ، والصيمرية ، والدينارية) .

٥ – وأسلوب الهمذاني يتراوح بين الرقة والعذوبة ، والتعقيد والخشونة ، حسبما يتطلب الموضوع " فهو يكيل بكيلين ، ويكتب بقلمين "(١) .

٦ – وفي المقامات من ألوان البيان : تشبيه واستعارة .. وفيها مجاز لغوي .. ومن البديع الجناس ، حيث أكثر من الجناس الناقص ، كما في المقامة القريضية :

[قلنا فيما نقول في جرير والفرزدق ؟ وأيهما أسبق ؟ فقال : جرير أرق شعرًا ، وأغزر غزرًا ، والفرزدق أمتن صخرًا ، وأكثر فخرًا ، وجرير أوجع هجوًا ، وأشرف يومًا ، والفرزدق أكثر رومًا ، وأكرم قومًا]

٧ – لقد كان ابتكار البديع في الألفاظ أكثر من ابتكاره في المعاني ، فكان يعول على الكلام المستعمل ، لعلمه أنه أشد تأثيرًا في النفوس ، وقلما ذكر آية أو حديثًا أو كلمة مأثورة بحروفها ، بل يكتفي بالإيماء إليها ، ثم يمضي ..

وأدرك البديع أن الجملة الطويلة ضعيفة الوقع ، ولذلك اختار جملاً خفيفة سريعة(٢) .

---

(١) راجع : فن المقامات ص١٣٧ .
(٢) بديع الزمان – مارون عبود ص٤٤ " بإيجاز " .



بين المقامة والقصة :

اختلف الدارسون – كذلك – في هذه القضية ، فهناك مَن يذهب إلى أن المقامةقصة ، وأنها قد سدت بابًا ناقصًا ، وغطت جانبًا مهملاً في الأدب العربيّ القديم : ذلك أن " المقامة باعتبارها شكلاً أدبيًا جديدًا استطاع أن يغطي بعض جوانب القصور في أدب التراث ، وبخاصة فيما يتعلق بالقصة والأقصوصة بمفهومها الفني الحديث "(١) .

ويرى الدكتور حجاب : أن أسلوب المقامة أسلوب قصصي حواري يهدف إلى تعليم الناشئين الفصيح من القول ، ويمدهم بالغريب من الألفاظ ..

" والناحية القصصية في المقامات لا تشكل هدفًا أصيلاً ، بل إنها وسيلة لتلك الغايات .. ومن ثَمّ خلت إلى حدّ ما من العقدة أو الحبكة القصصية التي هي حجر الزاوية في هذا البناء "(٢) .

بينما يذهب الدكتور (يوسف نور الدِّين عوض) إلى أن " المقامة قصة قصيرة تشتمل على حبكة شاملة ، ذات موضوع ، وأبطالها لا يخرجون عن الإطار الذي رسمه لهم الكاتب في واقعهم الدرامي ، وهذا يتوافق توافقًا تامًّا مع مفهومنا للحركة الدرامية ، وذلك بالطبع لا ينفي وجود اختلاف عن فن القصة "(٣) .

أمّا الدكتور مصطفى الشكعة فيرى : أن معالم القصة ليست واضحة في كُلّ مقامات بديع الزمان ، بل هي تنعدم تمامًا في كثير منها ، ويتقلص ظلها في عدد كبير آخر ، ولكنها واضحة ناجحة الأركان في البعض الآخر.

ويدلل الدكتور الشكعة على عناصر القص ونجاح بديع الزمان فيها من

(١) المقامات وباكورة قصص الشطار ص١٣ .
(٢) ظاهرة المقامات – حوليات دار العلوم ص٦٨ ، ٦٩ نقلاً عن فن المقامات ص٩ .
(٣) فن المقامات ص٦٣ .



خلال بعض المقامات ، كالمقامة الموصلية .. فالقصة في روحها تكاد تكون كاملة الأركان .. والعقدة في القصة محبوكة ، والانتقال واضح ، والحركة سريعة ، والعرض موفق خال من الفجوات ، والقصة بعد ذلك مليئة بالمفاجآت والوقائع المثيرة ، ولا تلبث القصة أن تنتهي نهاية فنية طيبة ...[1] .

بل إن الدكتور الشكعة سمّى كتابه : (بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربيّة والمقالة الصحفية) .

نص المقامة البغدادية[*]

لبديع الزمان الهمذاني

حَدَّثَنَا عِيَسى بْنُ هِشَامٍ ، قَالَ : اشْتَهَيْتُ الأَزَاذَ[2] ، وأَنَا بِبَغْدَاذَ[3] ، وَلَيِسَ مَعْي عَقْدٌ عَلى نَقْدٍ[4] ، فَخَرَجْتُ أَنْتَهِزُ مَحَالَّهُ[5] ، حَتَّى أَحَلَّنِي[6] الكَرْخَ[7] ، فَإِذَا أَنَا بِسَوادِيٍّ[8] ، يَسُوقُ بِالجَهْدِ حِمِارَهُ ،

(١) بديع الزمان ص٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ .. وانظر : تعليقه على المقامة البشرية ص٢٩٥ .

(*) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني – الشيخ مُحمّد عبده ص٥٥ ، وكذا بشرح محيي الدِّين عبد الحميد ص٦٦ وشرح الألفاظ منهما .

(٢) الأزاذ : من أجود أنواع التمور .

(٣) بغداذ : هكذا بالمعجمة ليتحقق السجع .

(٤) العقد : هو ما نسميه بـ (الصرة) وهي قطعة من قماش تربط على النقود ، قال الإمام مُحمّد عبده : " في العادة أن مَن معه نقد يعقد عليه وعاءه من كيس ونحوه ، فإذا انتفى العقد على النقد فقد انتفى النقد ، ففيه كناية عن فقد النقد " .

(٥) أنتهز محاله : أي أبحث عن الأماكن التي يباع فيها أو يتوقع وجوده بها . وأنتهزها : أغتنمها وفيه كناية عن شدة ولعه بالأزاذ .

(٦) أحلني : أنزلني ، والضمير فيه يعود على الأزاذ ؛ لأنه هو الباعث له على الخروج والمسير .

(٧) الكرخ : موضع ببغداد في الجانب الغربي منها .

(٨) السوادي : نسبة إلى السواد ، وسمي العراق سوادًا لاكتساء أرضه بالخضرة ، وهذه الخضرة



وَيَطَرِّفُ بِالعَقْدِ إِزَارَهُ[١] .

فَقُلْتُ : ظَفِرْنَا – وَاللهِ – بِصَيْدٍ[٢] ، وَحَيَّاكَ اللهُ أَبَا زَيْدٍ .. مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ وَأَيْنَ نَزَلْتَ ؟ وَمَتَى وَافَيْتَ ؟ وَهَلُمَّ إِلَى البَيْتِ .

فَقَالَ السَّوادِيُّ : لَسْتُ بِأَبِي زَيْدٍ ، وَلَكِنِّي أَبْو عُبَيْدٍ .

فَقُلْتُ : نَعَمْ ، لَعَنَ اللهُ الشَّيطَانَ ، وَأَبْعَدَ النِّسْيانَ ، أَنْسَانِيكَ طُولُ العَهْدِ ، وَاتْصَالُ البُعْدِ .. فَكَيْفَ حَالُ أَبِيكَ ؟ أَشَابٌ كَعَهْدِي[٣] ، أَمْ شَابَ بَعْدِي ؟

فَقَالَ : قَدْ نَبَتَ الرَّبِيعُ عَلَى دِمْنَتِهِ[٤] ، وَأَرْجُو أَنْ يُصَيِّرَهُ اللهُ إِلَى جَنَّتِهِ ، فَقُلْتُ : إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَلاَ حَوْلَ ولاَ قُوةَ إِلاَّ بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيم ، وَمَدَدْتُ يَدَ البِدَارِ[٥] ، إِلي الصِّدَارِ[٦] ، أُرِيدُ تَمْزِيقَهُ[٧] ، فَقَبَضَ السَّوادِيُّ عَلى خَصْرِي بِجُمْعِهِ[٨] ، وَقَالَ : نَشَدْتُكَ اللهَ لا مَزَّقْتَهُ[٩] .

فَقُلْتُ : هَلُمَّ إِلى البَيْتِ نُصِبْ غَدَاءً ، أَوْ إِلَى السُّوقِ نَشْتَرِ شِواءً ،

– فيما يبدو – تتراءى من بعيد سوادًا .

(١) الإزار : ما يشد في الوسط سابغًا إلى أسفل الساقين . يطرف الإزار : أي يرد أحد طرفيه على الآخر بما يعقد بينهما .

(٢) الصيد : هو ذاك السوادي القروي الذي رمى ابن هشام شباكه عليه لينال منه ما يريد .

(٣) أشاب كعهدي : أي هو باق في شبيبته كما عهدته ؟ أم شاب بعد ما فارقته ؟

(٤) نبت الربيع على دمنته : كناية عن موته ، والدمنة : ما بقي من آثار الديار بعد خرابها ورحيل أهلها عنها ، أي أنه مات من بعيد يكفي لتخرب الديار وينبت الربيع على آثارها ، أو أن الدمنة هي القبر .

(٥) البدار : المسارعة والمبادرة .

(٦) الصدار : ثوب قصير يلي الجسد .

(٧) أريد تمزيقه : أي الصدار ، وإنما فعل ذلك ليثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه كان صديقًا لأبيه ، وأن حزنه لموته عظيم ، وشق الثوب أعظم دليل على ذلك – وهو منهي عنه في الإسلام – .

(٨) بجمعه : أي بقبضة يده ، وإنما فعل ذلك لأنهاعتقد أن الرجل جاد في تمزيق ثيابه .

(٩) لم يكتف السوادي بمنعه وإنما استحلفه بالله ألاّ يفعل ، مما يدل على انطلاء الحيلة عليه .



وَالسُّوقُ أَقْرَبُ ، وَطَعَامُهُ أَطْيَبُ .

فَاسْتَفَزَّتْهُ(١) حُمَةُ(٢) القَرَمِ(٣) ، وَعَطَفَتْهُ عَاطِفَةُ اللَّقَمِ ، وَطَمِعَ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ وَقَعَ(٤) ، ثُمَّ أَتَيْنَا شَوَّاءً يَتَقَاطَرُ شِوَاؤُهُ عَرَقًا(٥) ، وَتَتَسَايَلُ جُوذَابَاتُهُ مَرَقًا(٦) .

فَقُلْتُ : افْرِزْ لأَبِي زَيْدٍ مِنْ هَذا الشِّواءِ ، ثُمَّ زِنْ لَهُ مِنْ تِلْكَ الحَلْواءِ ، واخْتَرْ لَهُ مِنْ تِلْكَ الأَطْباقِ ، وانْضِدْ عَلَيْهَا أَوْرَاقَ الرُّقَاقِ(٧) ، وَرُشَّ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ مَاءِ السُّمَاقِ(٨) ، لِيأْكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيًّا .

فَأنْخى الشَّواءُ بِسَاطُورِهِ(٩) ، عَلَى زُبْدَةِ تَنُّورِهِ(١٠) ، فَجَعَلَها كَالكُحْلِ سَحْقًا(١١) ، وَكَالطِّحْنِ دَقًّا ، ثُمَّ جَلسَ وَجَلَسْتُ ، ولا يَئِسَ وَلا يَئِسْتُ(١٢) ، حَتَّى اسْتَوفَيْنَا ، وَقُلْتُ لِصَاحِبِ الحَلْوَى : زِنْ لأَبِي زَيْدٍ مِنَ اللُّوزِينج(١)

---

(١) استفزته : دفعته وحركته واستخفته .

(٢) حمة : شدة .

(٣) القرم : الشهوة الشديدة إلى الطعام .

(٤) وقع : أي وقع فريسة في الفخ الذي نصبه له عيسى .

(٥) يتقاطر شواؤه عرقا : دلالة على سمن اللحم ودسمه ؛ لأن العرق هاهنا ما يفرز من دهنه ودسمه .

(٦) تتسايل جوذاباته : الجوذابة : الرغيب يخبز وفوقه قطعة لحم أو طائر ، فيطيب بما يسيل عليه من دهن دون حاجة إلى أدم .

(٧) انضد : رش . والرقاق : معروف .

(٨) السماق : حَب أحمر حامض صغير ، وشجره يشبه الرمان .

(٩) الساطور : سكين الجزار .

(١٠) موقد النار ، وأضاف الزبدة إلى التنور لأنها من خصائصه ولوازم الأكل من شوائه .

(١١) جعلها : أي الزبد – كالكحل سحقًا : لا ندري كيف تسحق الزبد ؟ قال الإمام مُحمّد عبده: " وسحق الزبدة حتى جعلها كالكحل أو الطحن – الدقيق – ليسهل ذوبانها بسرعة ، والرقاق لابد له من الزبدة حتى يطرى ويهنأ أكله مع الشواء ، فإن لم تكن زبدة فمرق " .

(١٢) ولا يئس ولا يئست : أي أخذ كُلّ منهما يأكل ولا يظهر له شبع ، طمعًا في إنفاذ ما بين أيديهما وحتى لا يترك للآخر فرصة يزيد عليه في الأكل .. ويروى (ولا نبست) أي لم ينبس واحد منهما ببنت شفه ؛ لأن الكلام سيعطله عن الطعام ، وبالتالي يعطي الفرصة للآخر ليزيد في التهام الأكل .

(١) اللوزينج : نوع من الحلوى يتخذ من الخبز ويسقى بدهن اللوز ويحشى بالجوز واللوز .



رِطْلَيْنِ ، فَهْوَ أَجْرَى فِي الحُلْوقِ[(١)] ، وَأَمْضَى فِي العُرُوقِ[(٢)] ، وَلْيَكُنْ لَيْلِيّ العُمْرِ[(٣)] ، يَوْمِيَّ النَّشْرِ[(٤)] ، رَقِيقَ القِشْرِ[(٥)] ، كَثِيفِ الحَشْو[(٦)] ، لُؤْلُؤِيَّ الدُّهْنِ ، كَوْكَبيَّ اللَّوْنِ[(٧)] ، يَذُوبُ كَالصَّمْغِ قَبْلَ المَضْغِ[(٨)] ، لِيَأْكُلَهُ أَبَو زَيْدٍ هَنِيًّا .

قَالَ : فَوَزَنَهُ ثُمَّ قَعَدَ وَقَعدْتُ ، وَجَرَّدَ وَجَرَّدْتُ[(٩)] ، حَتىَّ اسْتَوْفَيْنَاهُ ، ثُمَّ قُلْتُ : يَا أَبَا زَيْدٍ ، مَا أَحْوَجَنَا إِلَى مَاءٍ يُشَعْشِعُ[(١٠)] بِالثَّلْجِ ، لِيَقْمَعَ[(١١)] هَذِهِ الصَّارَّةَ[(١٢)] ، وَيَفْثأَ[(١٣)] هذِهِ اللُّقَمَ الحَارَّةَ .

اجْلِسْ يَا أَبَاَ زَيْدٍ حَتَّى نأْتِيكَ بِسَقَّاءٍ ، يَأْتِيكَ بِشَرْبَةِ ماءٍ ، ثُمَّ خَرَجْتُ وَجَلَسْتُ بِحَيْثُ أَرَاهُ ولاَ يَرَانِي ، أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ ، فَلَمَّا أَبْطَأْتُ عَلَيْهِ قَامَ السَّوادِيُّ إِلَى حِمَارِهِ ، فَاعْتَلَقَ الشَّوَّاءُ بِإِزَارِهِ[(١٤)] ، وَقَالَ : أَيْنَ ثَمَنُ ما أَكَلْتَ ؟

فَقَالَ أَبُو زَيْدٍ : أَكَلْتُهُ ضَيْفًا ، فَلَكَمَهُ لَكْمَةً ، وَثَنَّى عَلَيْهِ بِلَطْمَةٍ ، ثُمَّ قَالَ

---

(١) أجرى في الحلوق : أمضى سيرًا فيها لسهولته .
(٢) أمضى في العروق : أشد سريانًا فيها من غيره من أنواع الحلوى لسرعة هضمه .
(٣) ليلى العمر : أي صنع ليلاً ومضى عليه ليلة كاملة .
(٤) يومي النشر : أي خرج في النهار من المصنع .
(٥) رقة القشر : أن يكون الخبز المحشي رقيقًا ، ليكون أسهل وألطف .
(٦) كثيف الحشو : أي المكسرات التي يحشى بها تكون كثيرة .
(٧) دهن اللوز إذا كان صافيًا أشبه اللؤلؤ في لونه ، فما سقى به من الحلواء يكون في لمعانه أشبه بالكواكب .
(٨) يذوب كالصمغ قبل المضغ : كناية عن بلوغه من النضج والرقة وإتقان الصنع درجة عالية .
(٩) جرد وجردت : أي شمر عن سواعده حتى لا تعوقه ملابسه عن الطعام .
(١٠) يقشع : يخلط ويمزج .
(١١) يقمع : يطفئ ويقهر ويدفع .
(١٢) الصارة : العطش وشدة الحرارة .
(١٣) يفتأ : يخفف ويكسر .
(١٤) اعتلق الشواء بإزاره : أي تعلق بملابسه ليأخذ ثمن الطعام .



الشَّـوَّاءُ : هَـاكَ[١] ، وَمَتَـى دَعَوْنَـاكَ[٢] ؟ زِنْ يَـا أَخَـا القِحَـةِ[٣] عِشْرِينَ[٤] ، فَجَعَلَ السَّوَادِيُّ يَبْكِي ، وَيَحُلُّ عُقَدَهُ بِأَسْنَانِهِ[٥] ، وَيَقُولُ : كَمْ قُلْتُ لِذَاكَ القُرَيْدِ[٦] : أَنَا أَبُو عُبَيْدٍ ، وَهْوَ يَقُولُ : أَنْتَ أَبُو زَيْدٍ ، فَأَنْشَدْتُ :

أَعْمِـلْ لِرِزْقِـكَ كُـلَّ آلَـهْ ∴ لاَ تَقْعُـدَنَّ بِكُـلِّ حَالَـهْ

وَانْهَـضْ بِكُـلِّ عَظِيمَـةٍ ∴ فَـالمَرْءُ يَعْجِـزُ لاَ مَحَالَـهْ[٧]

التعليق على المقامة البغداذية

هذا عيسى بن هشام – الراوية – يقوم بدور البطل في هذه المقامة ، ولا يذكر أبو الفتح الإسكندري ..

اشتهى عيسى نوعًا من التمر ، ولم يكن يملك من النقد ما يدفعه ثمنًا لذلك التمر المُشتهى .. فماذا يفعل ؟

لابد له من الاحتيال – كما كان يفعل أبو الفتح – ليتحقق له مراده .

أخذ ابن هشام يبحث عن ذلك التمر في مظانه ، فيمّم وجهه شطر الكرخ ، ونزل بها .. ويبدو أن الكرخ كانت ذاخرة بهذا التمر .

إذًا وُجِد التمر ، ولكن لا يوجد ثمنه .. فليبحث عمن يضيّفه بأية

---

(١) هاك : أي خذ من اللكم واللطم .

(٢) متى دعوناك : متى كانت دعوتنا إليك لتنزل ضيفًا علينا وتأكل على حسابنا ؟

(٣) القحة : الوقاحة .

(٤) زن عشرين : أي أعط وزن عشرين درهمًا .

(٥) يحل عقده بأسنانه : أي يفك كيس النقود ليخرج ثمن الطعام ، وإنما يفكها بأسنانه ؛ لأنه أحكم وثاقها وربطها ربطًا جَيِّدًا حتى استعصت على الفك إلاّ بالأسنان .

(٦) قريد : تصغير قرد .

(٧) معنى البيتين : إذا كان لابد أن يصل المرء إلى عجز عن العمل فعليه في زمن القدرة أن ينهض إلى العظائم فينالها ويستوفي حظه منها قبل أن يدركه العجز ويحوطه الحرمان .



حيلة .. وهناك وجد ضالته في رجل قروي ، فلاح ، يسوق حمارًا له .. ويبدو أنهم في ذلك الزمان كانوا يرون ذلك الفلاح ساذجًا ، مغفلاً ، يسهل أن تستدرجه حتى تستخرج ما في جيبه .. ومن فوره رمى شباكه على ذلك الصيد ..

فبدأه بالتحية ، ثم أمطره بوابل من الأسئلة حتى لا يدع له فرصة التفكير ، ومن ثَمّ التشكك : [من أين أقبلت ؟ وأين نزلت ؟ ومتى وافيت ؟ وهلم إلى البيت] .

وقد اختار له اسمًا ، أي اسم ، فإن أصاب فبها ونعمت ، وإلا فليصرح هو باسمه .. [لستُ أبا زيد ، ولكني أبو عبيد] .

وأدرك عيسى أن الرجل يمكن أن يتشكك في معرفته به ؛ إذ هو لا يعرف اسمه .. وهنا نسب النسيان إلى الشيطان ، ثم طول المدة التي لم يره فيها .. ولم يكتف بذلك ، بل عاجله بسؤال عن أبيه ، الذي كان آخر عهده به شابًا ، أهو لا يزال على شبابه ؟ أم شاب بعده ؟

ويجيب المسكين : إن أباه قد مات منذ سنين ، ويسأل الله له الجنة .. فيسترجع عيسى ويحوقل ، ويمعن في إتقان دوره ، وإحكام تمثيل شخصية صديق ذلك الأب الميت .. فيهم بتمزيق ثيابه حزنًا على صديقه .. ويصدق المسكين تلك (التمثيلية) ، فيمنع عيسى من تمزيق ثيابه ، لكن عيسى يبدو مُصرًّا ، فما كان من (أبي زيد) إلاّ أن استحلفه بالله ألا يفعل .

الآن استسلم السّواديّ لذلك (الصديق) القديم لأبيه ، وخضع لتلك الصداقة .. فلينتقل (الممثل) إلى الفصل الثّاني من (المسرحية) .. هنا يريد عيسى أن يقوم بواجب ابن صديقه المزعوم .. فيعزمه على الطعام ، مخيرًا إياه بين البيت والسوق ، ولم يترك له فرصة الاختيار ، بل اختار له السوق

[لأنه أقرب ، وطعامه أطيب] .. ولم يكن لعيسى بيت ، ولو كان له بيت فليس به طعام ..

سال لعاب أبي زيد ، وجرى ريقه لذلك الطعام الطيب الذي لن يكلفه درهمًا واحدًا .. ولم يكن يدور بخلد ذلك المسكين أنه (عازم) كرهًا عنه ، وليس (معزومًا) ، وأنه سقط في شباك صياد ماهر ، ومخادع ماكر ..

لقد استطاع (عيسى) أن يُحكم الحيلة على ذلك القرويّ الفلاح .. ثم إنه – أي الفلاح – رجل طماع ، وقد استغل عيسى ذلك الطمع .

لقد كان هم (عيسى) أن يأكل تمرًا ، لكن ما المانع أن يترقى في طلبه طالما وجدت الفرصة ؟! لقد بات عليه أن يهتبلها ولا يضيعها ..

أخذ عيسى ضيفه – أو بالأحرى مضيفه – وذهبا إلى شوّاء (كبابجي) متميز ؛ إذ تفوح رائحة شوائه من بعد ، فيسيل له اللعاب .. إن لحمه دسم ، ويبدو أن عيسى لم يقع على أيّ شوّاء ، بل اختاره اختيارًا .

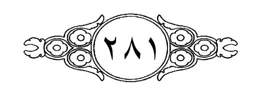
ويواصل عيسى إتقان دوره في القيام بحق ضيفه ، فيطلب إلى (الكبابجي) أن يقدم لأبي زيد – لاحظ (لأبي زيد) – من اللحم المشوي .. ومن الحلوى .. ومن سائر الأصناف التي عنده ..

قائلاً : [إفرز لأبي زيد .. ثم زن له .. ليأكله أبو زيد هنيًا] .. وكأنه هو (مضيف) فقط ، ولن يأكل ، وحتى إذا أكل فهي مشاركة واجبة تكريمًا للضيف .

في حين أنه بمجرد وضع الطعام انقضا عليه انقضاضًا ، وكأنهما في مباراة للأكل ، أيهما يلتهم أكثر من صاحبه ؟

شبع عيسى من اللحم ، والرقاق ، والزبد ، وماء السماق ، ومن سائر الأطباق ، واللوزينج .. إنه طعام (موصى عليه) .

والآن حان وقت (الحساب) ، ومعلوم أن عيسى ليس لديه نقد على



الإطلاق ، فكيف يفلت ويوقع ذلك الفلاح الساذج ؟

اخترع حيلة للهروب الذي لابد منه ؛ إذ قال لأبي زيد : [ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ...] فصدقه المسكين ، وذهب عيسى وانزوى بعيدًا ، مختبئًا ، يراقب الأحداث من بعيد .

وجاء (الكبابجي) إلى أبي زيد يطلب ثمن الطعام ، فأجاب : لقد أكلته ضيفًا ، وهنا ثارت ثائرة الكبابجي ، حيث لم يجد أمامه سوى أبي زيد .. فمَن ذا الذي (ضيفه) .. وانهال عليه لكمًا ولطمًا وضربًا ، يقول له : خذ .. هذه لكمة ، وتلك لطمة .. ادفع عشرين درهمًا وإلاّ أشبعناك بها ضربًا ، يا وقح .. ولم يجد المسكين بدًّا من أن يفك صرة نقوده بأسنانه ليدفع (الفاتورة) .

وهنا – فقط – تذكّر أن اسمه (أبو عبيد) وليس (أبا زيد) .. وكأنما يريد عيسى أن يقول : إن الرجل قَبِل أن يتنازل عن اسمه إزاء (أكلة كباب وبعض الحلوى) .. وما أكثر مَن يقدمون تنازلات في مقابل أموال ، أو وظائف ، أو ... ، أو ... .. ولم يكتشف السوادي أن عيسى كان قردًا محتالاً ، استطاع أن يوقعه في حبائله إلاّ بعد (الضرب والغرم) ، إنه – عيسى – رجل (ألعوبان) .

وينشد عيسى بن هشام بيتين من الشِّعْر ، معناهما : اسع سعيًا حثيثًا ، وجِدّ في سبيل تحصيل رزقك ، وإياك أن تقعد مستسلمًا .. لا تضيع الفرص ، وخذ حظك من الحياة قبل أن تعجِز وتحرم .

ملاحظـــــات

* هـذه المقامـة مـن المقامـات الفكاهيـة المرحـة ، التـي تصـلح أن تكـون نـواة لمسرحية كوميدية .. بل هي – كما يرى الدكتور مصطفى الشكعة – " على قصرها القمة الفكاهية التي وصل إليها بديع الزمان "(١) .
* ليس لأبـي الفتح الإسكندري وجود ألبتـة في المقامـة ، وإنما قام عيسى بدور الراوي والبطل في آن ، وهذه إحدى المقامات التي لا يذكر فيها أبو الفتح – كما أشرنا – .
* الكُدية والاحتيال واضحان جد الوضوح في المقامة ، وكما يقولون : " الحاجة أم الاختراع " .. فماذا يفعل فقير جائع لا يملك ما يسد به رمقه ؟! إنه يستسهل أن يمد يده في جيب ساذج ، بدلاً من أن يطلب حقه من المنوط به ذلك ..
* في المقامة بعض الألفاظ التي يعسر فهمها إلاّ بالرجوع إلى المعاجم .. وقد أجاد بديع الزمان إجادة فائقة في وصف الأطعمة ، وفصل ذلك تفصيلاً رائعًا ..
* السجع فيها واضح ، وقد يتكلفه كما في قوله [وأنا ببغداذ] ، وأحيانًا يستعصي عليه ، كما في قوله : [يومي النشر ، رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤي الدهن] .
* ختمت ببيتين من الشِّعْر هما من نظم بديع الزمان(٢) .
* وفيها اقتباس من القرآن الكريم وتضمين : وذلك في قوله : [لعن الله الشيطان

---

(١) بديع الزمان الهمذاني ص٢٦٦ ، والأدب في موكب الحضارة .
(٢) ذكر د/ مصطفى الشكعة أن الشِّعْر في مقامات البديع لا يقل عن خمسة أبيات .. راجع : بديع الزمان الهمذاني .



...] فهو من قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ...﴾ (الكهف : من ٦٣) ، وقوله : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة : من ١٥٦) .

* ومن كلام العرب : [نبت الربيع على دمنته] كناية عن موته .

* ومن الألوان البيانية : الكناية ، في قوله : [ليس معي عقد على نقد] .

* * *

أقصوصة (مريم الصناع) من كتاب البخلاء للجاحظ

مؤلف كتاب البخلاء هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ(**١٦٣ – ٢٥٥ هـ**): كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. مولده ووفاته في البصرة. مات والكتاب على صدره. قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه. له تصانيف كثيرة، منها" الحيوان – ط " أربعة مجلدات، و " البيان والتبيين – ط " و " سحر البيان – خ " و " التاج – ط " ويسمى أخلاق الملوك، و " البخلاء – ط " و " المحاسن والأضداد – ط " و " التبصر بالتجارة – ط " رسالة نشرت في مجلة المجمع العلمي العربيّ، و " مجموع رسائل – ط " اشتمل على أربع، هي: المعاد والمعاش، وكتمان السر وحفظ اللسان، والجد والهزل، والحسد والعداوة. وله: " الحنين إلى الأوطان – ط " رسالة. و " النبيّ والمتنبي " و " مسائل القرآن " و " العبر والاعتبار في النظر في معرفة الصانع وإبطال مقالة أهل الطبائع – خ " و " فضيلة المعتزلة " و " صياغة الكلام " و " الأصنام " و " كتاب المعلمين " و " الجواري " و " النساء " و " البلدان " و " جمهرة الملوك " و " الفرق في اللغة – خ " في تذكرة النوادر، و " البرصان والعرجان والعميان والحولان – ط " و " القول في البغال – ط " و " كتاب المغنين " و " الاستبداد والمشاورة في الحرب" [١]... وكان الجاحظ عالمًا اجتماعيًّا وناقدًا في كتاب البخلاء، يدرس أحوال الناس من خلال سلوكهم ومعاشهم، يحلّل أوضاع طبقة من المجتمع

---

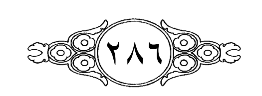
(١) راجع ترجمته في: إرشاد الأريب ٦: ٥٦ – ٨٠ والوفيات ١: ٣٨٨ وأمراء البيان ٣١١ – ٤٨٧، والأعلام للزركلي٥/٧٤، ومعجم المؤلفين٨/٧.

العباسي تأثّرت بعوامل طارئة جديدة.

وقد استهل الجاحظ كتابه(البخلاء) بردّ على صديق طلب إليه أن يحدّثه عن البخل ونوادره. وقد صدّره بمقدمة طويلة، حاول فيها أن يثير اهتمام القراء، وأن يشعرهم بشيء من الرغبة والتشويق. ومن المقدمة انتقل إلى إثبات رسالة سهل بن هارون التي بعث بها إلى بعض أقربائه، الذين اتّهموه بالبخل. وعمد الجاحظ أيضا إلى ذكر نوادر البخلاء وسرد قصصهم، بادئا بأهل مرو، وأهل خراسان، متوقفا عند أهل البصرة من المسجديين ممن يسميهم «أصحاب الجمع والمنع»، منتقلا إلى الأشحّاء من أصحابه ومعاصريه كزبيدة بن حميد، وأحمد بن خلف اليزيدي، وخالد بن يزيد، وأبي محمد الخزامي، والحارثي، والكندي، وابن أبي بردة، واسماعيل بن غزوان، وموسى بن عمران، والأصمعي، والمدائني وطرائف شتّى.

وقد استطاع من خلال هذه الأقاصيص أن يعطينا عيّنات صادقة عن كل حيلة، وكل نادرة بأسلوب قصصي طريف، وبراعه فنيّة رائعة. وبعد ذكر نوادره يجد الجاحظ أن البخل عندهم اقتصاد فني، ولهم في ذلك آراء قلما تخطر ببال إنسان. وللبخلاء عند الجاحظ أقوال كثيرة في وضع كل شيء موضعه، في إظهار منافع المأكولات وأضرارها...

<u>**وأما غاية الكتاب**</u> فترجع إلى أن الجاحظ أراد منه الترويح عن النفس، وإضحاك القارىء، وتصوير طبقة محددة ظهرت في المجتمع العباسي، أرادت أن تسلك طريقا جديدة من العادات والأخلاق التي لم يألفها العربي سابقا. وإن مؤثرات دخيلة أحدثت فجوات واسعة في عادات العرب وتقاليدهم، فكان منها انتشار البخل، وخاصة في العراق إبّان القرن الثالث الهجري. والحقيقة، فإن غاية



الكتاب تتعدّى الضحك والمرح، لتغدو أعمق وأشد، فإذا هي أقرب إلى الردع والتأنيب، والهزء والسخرية، وذلك من أجل المنفعة العامة والإفادة من أعمال البخلاء الشاذة إفادة تجعلهم يميلون إلى الكرم من غير إسراف، وإلى الجود في غير اقتصاد.

قال: «ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء تبيّن حجّة طريفة، أو تعرّف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة[1]» . وقد اتّبع الجاحظ أسلوبًا قصصيًّا إخباريًّا يربط الأخبار بعضها ببعض. وكانت أقصوصة البخيل قصيرة، لكنها جمعت عناصر القصة الكاملة، من مقدمة وعرض وعقدة، إلى حل وخاتمة. ولم تكن أقاصيص الجاحظ خاوية فارغة؛ بل كانت نابضة مليئة بالحياة تستمد موضوعاتها من وحي فريق من الأشحاء المسجديين والخراسانيين وغيرهم، اختاروا أحاديثهم، وانتقوا ألفاظهم بأنفسهم. من هنا نضجت أقصوصة البخيل عند أبي عثمان، واستمرت حارة دافئة يقظة، تدفىء النفس فتثيرها، وتوقظ العقل فتحركه تارة بين الاسترخاء والاستمتاع، وطورًا بين التصوير والتحكيم.

والموضوعية جليّة في الكتاب، إذ إن الجاحظ تجرّد من ذاته، وترك البخلاء أنفسهم يتحدثون عن قضاياهم، دون أن يدخل نفسه شريكا أو موجها في الصورة، أو في الموضوع. وكذلك التنوع الإبداعي؛ فلم تجر أقاصيصه على وتيرة واحدة؛ بل كانت كل منها تطغى على الأخرى من حيث النكهة والموضوع والأسلوب. فقد كان الجاحظ في كتاب «البخلاء» فنانا بطبعه اعتمد لونا أساسيا، وهو الذات البشرية. فغاص إلى أعماقها، يستنبط ما في جوانبها من عقد وغرابة وغموض. فهو لم يقص حكاياته لإثارة تلك الغرابة، وإنما للدلالة

(١) البخلاء ص٢٧، تح/أحمد العوامري، وعلي الجارم، طبع دار الكتب العلمية ٢٠٠١م.

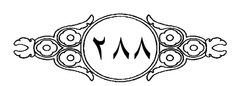
على تلك المواقف النفسية والتعقيدات التي كان يعانيها البخلاء في عصره. والأسلوب المسرحي الذي تحقق له في كل نادرة، وبخاصة في أقصوصة «مريم الصنّاع» و «شيخ النخالة» و «معّاذة العنبرية»، فإننا وبحق نجد أنفسنا أمام خشبة مسرح تقوم عليها هذه الشخصيات وتنهض وتتحرك كأنها من لحم ودم. وإذا كان كتاب «البخلاء» قمة في النقد الاجتماعي والأخلاقي، وصورة ترسم حقيقة طبقة معينة، فإن كتب الجاحظ كلها توازي قمة «البخلاء» شموخا. ولهذا قال ابن العميد: «كتب الجاحظ تعلم العقل أولا، والأدب ثانيا»[1].

أقصوصة مريم الصناع[2]:

أقبل على المسجديين شيخ فقال: هل شعرتم بموت مريم الصناع؛ فإنها كانت من ذوات الاقتصاد وصاحبة إصلاح. قالوا: فحدِّثنا عنها. قال: نوادرها كثيرة وحديثها طويل. ولكني أخبركم عن واحدة فيها كفاية. قالوا: وما هي قال: زوَّجت ابنتها وهي بنت اثنتي عشرةَ فحلَّتْها الذهب والفضة وكستها المرويَّ والوشي والقز والخز وعلقت المعصفر ودقت الطيب وعظمت أمرها من قدرها عند الأحماء . فقال لها زوجها: أنى هذا يا مريم؟ قالت: هو من عند الله . قال: دعي عنك الجملة وهاتي التفسير. والله ما كنتِ ذات مال قديماً ولا ورثتِه حديثاً. وما أنتِ بخائنة في نفسك ولا في مال بعلك. إلا أن تكوني قد وقعت على كنز وكيف دار الأمر فقد أسقطتِ عني مُؤْنةً وكفيتِني هذه النائبة. قالت:

(١) راجع في ذلك الفن ومذاهبه في النثري العربي، د/شوقي ضيف، ص ١٥٤، وما بعدها، و مقدمة تحقيق كتاب البخلاء للدكتور طه الحاجرى، طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٣م. ومقدمة تحقيق الأستاذ عباس عبدالساتر، في طبعة مكتبة الهلال ببيروت سنة ١٤١٩م.

(٢) البخلاء ٦٣_٦٤.



اعلم أني منذ يوم ولدتُها إلى أن زوجتُها كنتُ أرفع من دقيق كل عجنة حفنة. وكنا – كما قد علمت – نخبز في كل يوم مرة . فإذا اجتمع من ذلك مكوك(١) بعثُه .

قال زوجها: ثبَّتَ اللهُ رأيَك وأرشدَك ولقد أسعد الله مَن كنتِ له سكناً وبارك لمَن جُعلْتِ له إلفاً؛ ولهذا وشبهِه قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): من الذود إلى الذود إبل . وإني لأرجو أن يخرج ولدك على عرقك الصالح وعلى مذهبك المحمود. فنهض القوم بأجمعهم إلى جنازتها وصلوا عليها . ثم انكفأوا إلى زوجها فعزَّوْه على مصيبته وشاركوه في حزنه.

ثم اندفع شيخ منهم فقال: يا قوم لا تحقروا صغار الأمور؛ فإن كل كبير صغير. ومتى شاء الله أن يعظِّم صغيراً عظَّمه وأن يكثِّر قليلاً كثَّره. وهل بيوت الأموال إلا درهم إلى درهم، وهل الذهب إلا قيراط إلى جنب قيراط، وأليس كذلك رمل عالج وماء البحر، وهل اجتمعت أموال بيوت إلا بدرهم من هاهنا ودرهم من هاهنا؟!

تعليق عام:

هذه الأقصوصة أنموذج جيد للنثر الفني العباسي المصنوع، دال على طريقة بناء الجاحظ كتابه البخلاء، ودليل على وجود فن القصة في تراثنا باقتدار، ففيه عناصر القصة المختلفة من عنوان وشخوص وأحداث، وزمان ومكان، ومغزى، وبيان ذلك كالآتي:

(١) مكوك ومكاكي: المكوك: طاس يشرب به، أعلاه ضيق ووسطه واسع، وهو مكيال معروف لأهل العراق، والجمع مكاكيل ومكاكي على البدل كراهية التضعيف، وهو صاع ونصف.اللسان "١٠/ ٤٩١" مادة/ مكك.



فالعنوان"مريم الصناع" مكون من تركيب وصفي فيه ذكر لبطل القصة والصفة البارزة في شخصيتها.

والشخوص هي:

_**مريم**: شخصية نسائية رئيسة، وقد وصفت بأنها كانت صناعًا، أي:ماهرة، وتعد محور الأقصوصة.

_**الزوج**: شخصية مسيرة للأحداث عن طريق سؤالاته للبطلة!

_**الشيخ**: وُظِّف للتمهيد للأحداث، ولختمها والتعليق عليها.

_**المسجديون**: يمثلون الجمهور المستمع للأقصوصة.

_**البنت**: بنت مريم التي من أجلها كافحت وادخرت.

الأحداث:

تتكون هذه الأقصوصة من عدة أحداث مترابطة يمكن إيجازها في الآتي:

_ مدخل الأقصوصة ومقدمتها، وهو إقبال شيخ على المسجديين وسؤاله إياهم عن مريم الصناع.

_مشهد تجهيز مريم لابنتها وتزويجها، وتفاجؤ الزوج بهذه التجهيزات الكبيرة الغالية التي لا تتناسب مع حالته الاقتصادية. وهذا المشهد يمثل عنصر الإثارة والتشويق.

_استفسار الزوج من زوجته"مريم" عن مصدر الصرف على هذه التجهيزات الباهظة، وجواب مريم العجيب!

_ختام الأقصوصة:موقف المسجديين من وفاة مريم واتعاظهم بها.

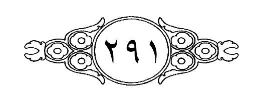


لغة الأقصوصة:

جاءت لغة سهلة مباشرة، واضحة ليس فيها غرابة أو تعقيد. كما جاءت موجزة كطبيعة المتحدثين، وواضحة مباشرة، وفيها حوار حكيم دال وعظي خاطف. وهو حوار خارجي موظف للانتقال من حدث إلى حدث، بطريقة منطقية.

وتتمثل القيمة الفنية لهذا النص القصصي في:

- أنموذج جيد لدراسة أسلوب الجاحظ عامة، وطريقته في عرض مادته العلمية بكتابه البخلاء خاصة.
- أنموذج للنثر الفني المطبوع، وأنموذج رائع للقصة القصيرة التراثية.
- الدعوة إلى الاقتصاد والاعتدال وحسن التدبير في المعيشة بحكمة وموعظة حسنة وطريقة عملية مقنعة.
- بيان الدور الإيجابي الحضاري للمرأة المسلمة في الجانبين:الاقتصادي والاجتماعي.
- تقديم أنموذج واقعي للحوار البناء بين الزوجين في قضايا وإشكالات الحياة.
- الأقصوصة أدب هادف بناء، اشتملت على المغزى من إبداعها، وهو وما جاء في ختامهاعلى لسان شيخ من المسجديين اندفع "فقال: يا قوم لا تحقروا صغار الأمور؛ فإن كل كبير صغير. ومتى شاء الله أن يعظِّم صغيراً عظَّمه وأن يكثِّر قليلاً كثَّره...".
- تقرير أهمية أسلوب التشويق والإثارة في مخاطبة الآخرين ودعوتهم، والذي تمثل في سؤال الزوج لمريم وإجابتها العجيبة، وفي موقف المسجديين من وفاة مريم.



- من سلبيات الأقصوصة صغر عمر البنت عند الزواج، والنظر إلى البنت على أنها نائبة وثقل وعبء، والكذب على رسول الله بنسبة حديث إليه لم تثبت نسبته، وهو(من الذود إلى الذود إبل[١]).

كما أنه ليس للزمان والمكان فاعلية في البناء القصصي؛ إذ أشير إليهما إشارة خاطفة في مثل العبارات:" المسجديين، ما كنت، ما أنت، مكوك، الجنازة، قديما، حديثًا، كنت، كنا، علمت.... مع ملاحظة غلبة الزمان الماضي على الحاضر!

(١)الذّود: من ثلاث إلى عشر، أي القليل ينضاف إلى مثله فيصير كثيرًا. وهو مقولة أو مثل عربي وليس حديثًا نبويًا شريفًا، راجع: أدب الكاتب لابن قتيبة١/٤١٠، وأمالي القالي١/١٤٦، وأمثال أبي عبيد ١٩٠، وجمهرة الأمثال ١/٤٦٢، وفصل المقال ٢٨٢، ومجمع الأمثال ١/٢٧٧، والمستقصى ١/٣٢٢، ونكتة الأمثال ١١٥، وتمثال الأمثال ٢٦٦، وزهر الأكم ٣/١٩، واللسان (ذود)، والمخصص ٧/١٢٩ و ١٤/٦٧ و ١٧/٩. .

من النثر المتصنع رسالة العماد الأصفهاني للبشرى بالانتصار في وقعة حطين

التعريف بقائل النص:

هو العماد الاصفهاني أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجا حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله المعروف بابن أخي العزيز، وقد توفي بدمشق سنة ٥٩٧ هـ. كان العماد فقيهاً شافعي المذهب، تفقه بالمدرسة النظامية زماناً، وأتقن الخلاف وفنون الأدب، وله من الشعر والرسائل ما يغني عن الإطالة في شرحه. عرفه الأمير الكبير نجم الدين أبو الشكر أيوب والد السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى، وكان يعرف عمه العزيز، فأحسن إليه وأكرمه وميزه عند الأعيان والأماثل، وعرفه السلطان صلاح الدين من جهة والده، ومدحه في ذلك الوقت بدمشق المحروسة، وعلت منزلته عند نور العين، وصار صاحب سره، وسيره إلى دار السلام بغداد رسولاً في أيام الإمام المستنجد، ولما عاد فوض إليه تدريس المدرسة المعروفة به في دمشق في شهر رجب سنة سبع وستين وخمسمائة، ثم رتبه في إشراف الديوان في سنة ثمان وستين، ولم يزل مستقيم الحال رخي البال، إلى أن توفي نور الدين... ثم بلغه خروج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية لأخذ دمشق، فانثنى عزمه عن قصد العراق، وعزم على العود إلى الشام وخرج من الموصل رابع جمادى الأولى سنة سبعين وخمسمائة، وسلك طريق البرية، فوصل إلى دمشق في ثامن جمادى الآخرة وصلاح الدين يومئذ نازل على حلب، ثم قصد خدمته وقد تسلم قلعة حمص في شعبان من

السنة، فحضر بين يديه وأنشده قصيدة أطال نفسه فيها، ثم لزم الباب ينزل لنزول السلطان ويرحل لرحيله، فاستمر يغشى مجالس السلطان وينشده في كل وقت مدائح ويعرض عليه ويقرب بصحبته القديمة، ولم يزل على ذلك حتى نظمه في سلك جماعته واستكتبه واعتمد عليه وقرب منه، فصار من جملة الصدور المعدودين والأماثل المشهورين، يضاهي الوزراء ويجري في مضمارهم. وكان القاضي الفاضل في أكثر أوقاته ينقطع عن خدمة السلطان ويتوفر على مصالح الديار المصرية، والعماد ملازم الباب بالشام وغيره وهو صاحب السر المكتوم.

وصنف التصانيف النافعة، من ذلك: كتاب " خريدة القصر وجريدة العصر " جعله ذيلاً على " زينة الدهر " تأليف أبي المعالي سعد بن علي الوراق الحظيري، والحظيري جعل كتابه ذيلاً على دمية القصر وعصر أهل العصر للباخرزي، والباخرزي جعل كتابه ذيلاً على " يتيمة الدهر " للثعالبي، وقد تقدم ذكر هؤلاء الثلاثة المؤلفين، والثعالبي جعل كتابه ذيلاً على كتاب " البارع " لهارون بن علي المنجم، وقد ذكر العماد في خريدته، الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وجمع شعراء العراق والعجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب، ولم يترك أحداً إلا النادر الخامي، وأحسن في هذا الكتاب، وهو في عشر مجلدات.

وصنف كتاب " البرق الشامي " في سبع مجلدات، وهو مجموع تاريخ، وبدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق إلى الشام، وما جرى له في خدمة السلطان نور الدين محمود، وكيفية تعلقه بخدمة السلطان صلاح الدين، وذكر شيئاً من الفتوحات بالشام، وهو من الكتب الممتعة، وإنما سماه " البرق

الشـامي " لأنـه شـبه أوقاتـه فـي تلـك الأيـام بـالبرق الخـاطف لطيبهـا وسـرعة انقضائها.

وصـنف كتـاب " الفـتح القسـي فـي الفـتح القدسـي " فـي مجلـدين، يتضـمن كيفية فتح البيت المقدس، وصنف كتاب " نصرة الفترة وعصره الفطرة في أخبار الدولة السلجوقية " وله ديوان رسائل وديوان شعر في أربع مجلدات، ونفسه في قصائده طويل، وله ديوان صغير جميعه دوبيت[١].

بيان مناسبة الرسالة:

هذا الـنص النثري–كمـا ورد فـي كتـب التـراث– قطعـة مـن خطـاب مرسـل علـى لسـان القائـد صـلاح الـدين، وهـو فـي عكـا؛ للبشـرى بانتصـاره فـي وقعـة حطين[٢].

فهي –إذن –رسالة سلطانية أدبية، أرسلها العماد الأصفهاني تبشر بنصر حطين التاريخي، وذلك باسم صلاح الدين.

---

(١) له ترجمة في: « معجم الأدباء لياقوت» ٨١/٧، وفيات الأعيان ١٤٧/٥، و«المختصر المحتاج اليه» لابن الدبيثي ١٢٢/١، «كامل ابن الاثير» ٧١/١٢، «تاريخ ابن الساعي» ص ٦١، «الـوافي» ١٣٢/١، «طبقـات السـبكي» ١٧٨/٦، «رحلـة ابـن جبيـر» ص ٤، «تكملـة المنـذري» ٢٨٨/٢، «الروضـتين» لابـي شـامة ١٤٤/١ و ١٤٨، «الوفيـات» ٢٢٣/٤، «معجـم ابـن الفـوطي» ٨٤٥/٢، «تكملـة ابـن الصـابوني» ص ٢٢٥، «ذيـل الروضـتين» ص ٢٣، «مرآة السبط» ٥٠٤/٨، «عبـر الـذهبي» ٢٩٩/٤، «تـاريخ ابـن كثيـر» ٣٠/١٣، «الشـذرات» ٣٣٢/٤، «نجـوم ابـن تغـري بردى» ١٧٦/٦، مقدمة «الخريدة» قسم العراق ٩١/١..

(٢)تاريخ الإسلام للإمام الذهبي٥٤/٤٠، طبع دار الكتاب العربي ببيروت سنة ١٩٩٢م..



النص مضبوطاً:

" قَالَ الْعِمَاد وَمن جملَة البشائر بكسرةِ حطين: "وَلما أحيط بالقوم آوى ملكُهم إِلَى جبل يعصمه من العوم، فأسمعه السَّيْف: لَا عَاصِم الْيَوْم، وَاسْتولى الخذلان عَلَيْهِم بأسرهم، وَبَردت أَيدي الْمُؤمنِينَ بَحر قَتلهمْ، وأسرهم وَلم يبْق لَهُم بَاقِيَة، وغصت بقتلاهم، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، أَرض الله الواسعة ونار الله الحامية، فَمَا يطَأ من يصل إِلَى خيمنا إِلَّا على رممهم البالية، وَأُسِر الْملك وَأَخُوهُ وبارونيته ومقدموه، وَلم يفلت مِنْهُم إِلَّا القومص وَهُوَ مسلوب، وَلَا بُد أن ندركه فَهُوَ مَطْلُوب.

وَقد كُنَّا نذرنا ضرب رَقَبَة الإبرنس صَاحب الكرك الغدار كَافِر الْكفَّار ونشيدة النَّار، فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ ضربنا عُنُقه سَرِيعًا وسرنا إِلَى عكا، وَهِي بَيْضَة ملكهم وواسطة سلكهم، ومركز دَائِرَة كفرهم وَمجمع جمع برهم وبحرهم، فتسلمناها بالأمان.

والصخرة المقدسة الْآن بِنَا تصرخ وتستغيث، وَعباد الله الصالحون قد وصلت إِلَيْهِم بوعد الله الصَّادِق الْمَوَارِيث، والبشارة بِفَتْح الْقُدس لَا تتأخر، والهمم بعد هَذَا الْفَتْح السّني على ذَلِك تتوفر، وَالْحَمْد لله الَّذِي تتمّ الصَّالِحَات بِحَمْدِهِ: {مَا يفتح الله للنَّاس من رَحْمَة فَلَا مُمْسك لَهَا وَمَا يمسك فَلَا مُرْسل لَهُ من بعده}(١).

---

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب للحموي(ت هـ) ٣/٣١٣، تح د/جمال الدين الشيال، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٧م، و كتاب الروضتين. لأبي شامة المقدسي٣/٣١٣، تح/إبراهيم الزيبق طبع مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة: ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م..

تعليق فني:

هذا النص النثري ذو قيم فكرية وفنية رائعة ماتعة، يمكن أن نوجزها في الآتي:

*أنه أنموذج للأدب المجاهد في سبيل نصرة الأمة في زمن كفاحها ضد المعتدين المخربين، **أدب هادف بنَّاء مبشّر**، إيجابي في دعوته إلى تخليص القدس. وهو نص من مجموع أدبي كبير للعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل حول الاستغاثات والاستنهاضات والبشارات. تصور الصراع الدامي المستمر بين الأيوبيين والصلبيين.

***أنه أنموذج لفن الرسالة الديوانية السلطانية**، فيها تقنيات التعبير الرسمية الفخمة عن الأمة سلطانًا ومجاهدين، وفيها أدوات تصوير لأعداء الله المنهزمين تصويرًا محقرًا ساخرًا من شأنه أن يخزي أهل الباطل، ويفرح أهل الحق، تطبيقًا للتوجيه النبوي الخالد:" **مَهْ يَا عُمَرُ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَلَامُهُ هَذَا أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ**(١)"

* ينقسم هذا النص إلى ثلاثة أفكار، هي:

- **الإعلان عن هزيمة الأعداء وقتل قوادهم في معركة حطين.**
- **الإعلان عن قتل صاحب الكرك وتسلم عكا.**

(١) قَالَه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لعُمَرُ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– لما قال لعبدالله بن رواحة: يَا ابْنَ رَوَاحَةَ: أَفِي حَرَمِ اللهِ، وَبَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– تَقُولُ الشِّعْرَ؟.وهو في السنن الكبرى للبيهقي، (باب: لَا بَأْسَ بِاسْتِمَاعِ الْحُدَاءِ ، وَنَشِيدِ الْأَعْرَابِ، كَثُرَ أَوْ قَلَّ)١٠/٣٨٥، وهو مروي عن أنس بن مالك. وسنن النسائي، باب استقبال الحج ٥/٢١١.



- الدعوة إلى تحرير القدس وتطهيرها من أيدي الصليبيين.

وهذه الأفكار مرتبة منطقيًّا، يربط بينها ثلاثة أمكنة: حطين، عكا، القدس. وهي تدور كلها حول غرض البشارة وما يترتب عليها من ثمار وعطاءات وفتوحات.

*اعتمد العماد على التناص الامتصاصي مع النص القرآني الكريم الوارد بسورة هود على لسان سيدنا نوح، حيث يقول الله تعالى:" **{قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(١)}**، وذلك في قوله:" **وَلما أحيط بالقوم آوى مِلكُهم إِلَى جبل يعصمه من العوم، فأسمعه السَّيْف: لَا عَاصِم الْيَوْم**". وفيه استعارة مشخصة للسيف، وتصوير لكثرة القتل والدماء بلفظة العوم، والتعبير عن القائد المظفر أو جيشه العظيم بالسيف، تعبيرًا عن قوته وفتوته . وفي ختام الرسالة نجد التناص الاقتباسي خير تذييل لها، وذلك في قوله:" **وَالْحَمْد لله الَّذِي تتمّ الصَّالِحَات بِحَمْدِهِ: {مَا يفتح الله للنَّاس من رَحْمَة فَلَا مُمْسك لَهَا وَمَا يمسك فَلَا مُرْسل لَهُ من بعده(٢)}**، فالانتصار في حطين رحمة إلهية مفتوحة لا ولن يتحكم فيها أو يغلقها أحد بإذن الله تعالى.

*التصوير الفني يكاد يوجد في كل عبارات الرسالة، مثل التصوير الاستعاري في قوله مجسمًا الخذلان:" **وَاسْتولى الخذلان عَلَيْهِم بأسرهم**"، **وَقوله مشخصًا**، "**بَردت أَيدي الْمُؤمنِينَ بَحر قَتلهم**" وقد أحدث طباقًا بين حالتي أهل الحق (أيدي المؤمنين) وأهل الباطل(حر قتلهم)، معبرًا عنهم بضمير الغائب،

(١) سورة هود، الآية ٤٣.

(٢) سورة فاطر، الآية ٢.



فقد صاروا أمرًا فائتًا ماضيًا لا وجود لهم!

وها هو العماد يوظف التصوير التشبيهي في قوله عن عكا:" **وَهِي بَيْضَة ملكهم وواسطة سلكهم، ومركز دَائِرَة كفرهم، وَمجمع جمع برهم وبحرهم**"؛ مما يدل على مكانة عكا وأهميتها في هذه المشبهات بها التي فيها مبالغة بيّنة دالة: سياسيًّا(**بَيْضَة ملكهم**) وعسكريًّا(**وواسطة سلكهم**)، **ودينيًّا(مركز دَائِرَة كفرهم)، وجغرافيًّا(مجمع جمع برهم وبحرهم)، وأثر ذلك** في الصراع الدائر بين الأيوبيين وهؤلاء الأعداء، وكون تسلم عكا ممهدًا للغاية العظمى وهي تحرير القدس وتخليصه من المعتدين.

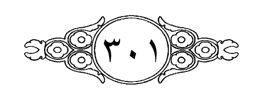
*وتجد الحرص على ذكر تفاصيل الحرب، بكل عزة وقوة ووضوح في الفقرة والفكرة الثانية في قول العماد:" **وَأُسِر الْملك وَأَخُوهُ وبارونيته ومقدموه، وَلم يفلت مِنْهُم إِلَّا القومص وَهُوَ مسلوب، وَلَا بُد أن ندركه فَهُوَ مَطْلُوب**". وواضح مدى تأثر العماد بالألفاظ الدخيلة من الصليبيين حينئذ في استخدامه لفظتي: (البارونية التي بمعنى العامة أو لقب) و(القومص التي هي رتبة دينية).

* وتأتي الفقرة الثالثة عن هم القدس الجاثم على النفوس عصرئذٍ، حيث يقول:" "**والصخرة المقدسة الْآن بِنَا تصرخ وتستغيث، وَعباد الله الصالحون قد وصلت إِلَيْهِم بوعد الله الصَّادِق الْمَوَارِيث، والبشارة بِفَتْح الْقُدس لَا تتأخر، والهمم بعد هَذَا الْفَتْح السّني على ذَلِك تتوفر**"؛ فهي عبارة دالة على الثقة الكاملة واليقين التام في أن استصراخ القدس لن يطول، واستخدام الأسلوب الخبري مناسب للمقام والسياق، ودال على أن هذه البشارة وهذا الفتح ثابتة دائمة مستقرة في النفوس والقلوب والعقول.

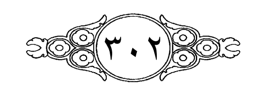
* كما بنيت هذه الرسالة على أعشاب البديع المنتشرة في هذا العصر، وفي مدرسة القاضي الفاضل ومن رادتها العماد الأصفهاني، حيث السجع في قوله: **(والبشارة بِفَتْح الْقُدس لَا تتأخر، والهمم بعد هَذَا الْفَتْح السّني على ذَلِك تتوفر)** ، والجناس في قوله: (العوم/اليوم، مسلوب/مطلوب)، والطباق في قوله: **(يعصم/لا عاصم) (بردت/حر)**، ، والترادف السياق أو التكرار المعنوي، في قوله: **(صَاحب الكرك الغدار كَافِر الْكفَّار ونشيدة النَّار)، وفي قوله:(بَيْضَة ملكهم وواسطة سلكهم، ومركز دَائِرَة كفرهم، وَمجمع جمع برهم وبحرهم)**...إلخ

المصادر و المراجع

- أبو الطيب المتنبي ، ر. بلاشير – ترجمة د/ إبراهيم الكيلاني – دمشق سنة ١٩٧٥م .
- أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ، د/ مصطفى الشكعة – عالم الكتب – بيروت .
- اتجاهات وآراء في النقد الحديث ، د/ مُحمّد نايل .
- أخبار البحتريّ ، الصولي – تح/ صالح الأشتر – دمشق ١٩٦٤م .
- الأدب في عصر العباسيين ، د/ مُحمّد زغلول سلام – منشأة المعارف – إسكندرية .
- الأدب في موكب الحضارة الإسلاميّة ، د/ مصطفى الشكعة .
- إعجاز القرآن ، للباقلاني – تح/ السيد صقر – دار المعارف – ط/ ثالثة – ذخائر العرب .
- الأغاني ، للأصفهاني (ساسي) ، ونسخة مصورة عن دار الكتب .
- أمراء الشِّعْر العربيّ في العصر العباسي ، أنيس المقدسي – دار العلم للملايين – بيروت سنة ١٩٦١م .
- إيوان المدائن بين البحتريّ والخاقاني ، د/ عبد السلام فهمي – دار البيان العربيّ – جدة سنة ١٩٨٣م .
- البحتريّ بين نقاد عصره ، صالح اليظي – دار الأندلس .
- بديع الزمان الهمذاني – رائد القصة العربيّة والمقالة الصحفية ، د/ مصطفى الشكعة – مكتبة القاهرة الحديثة سنة ١٩٥٩م .



- بديع الزمان الهمذاني ، مارون عبود – نوابغ الفكر العربيّ – دار المعارف – مصر سنة ١٩٦٣م .
- تاريخ الشِّعْر في العصر العباسي ، د/ يوسف خليف – دار الثقافة – القاهرة سنة ١٩٨١م .
- الحيوان للجاحظ – ت/ هارون – ط/ الحلبي الأولى .
- الخيال الشِّعْريّ عند أبي الطيب المتنبي ، د/ طه أبو كريشة ١٩٧٨م .
- الخيال الشِّعْريّ في شعر الوصف عند البحتريّ ، د/ طه أبو كريشة سنة ١٩٨٣م .
- دراسات في النص الشِّعْريّ ، د/ عبده بدوي – دار الرفاعي – الرياض – ط/ ثالثة سنة ١٩٨٤م .
- ديوان البحتريّ – تح/ حسن كامل الصيرفي – دار المعارف ١٩٦٣م .
- ديوان المتنبي – بشرح العكبري .
- رأي في المقامات ، د/ عبد الرحمن ياغي – دار الفكر للنشر والتوزيع – عمان – الأردن سنة ١٩٨٥م .
- الشِّعْر العباسي – تطوره وقيمه الفنية ، د/ مُحمّد أبو الأنوار – دار المعارف – ط/ ثانية سنة ١٩٨٧م .
- العشر والشعراء في العصر العباسي ، د/ مصطفى الشكعة – دار العلم للملايين سنة ١٩٩٥م .
- العصر العباسي الثّاني ، د/ شوقي ضيف – دار المعارف بمصر .
- فن الوصف وتطوره في الشِّعْر العربيّ ، إيليا الحاوي – دار الكتاب اللبناني – بيروت سنة ١٩٦٩م .



- الفن ومذاهبه في الشِّعْر العربيّ ، د/ شوقي ضيف – دار المعارف – ط/ سادسة .
- في ميزان النقد الأدبي ، د/ طه أبو كريشة – القاهرة سنة ١٩٧٦م .
- القيم الفنية المستحدثة في الشِّعْر العباسي ، د/ توفيق الفيل – ذات السلاسل – الكويت .
- اللّغة بين البلاغة والأسلوبية ، د/ مصطفى ناصف – النادي الأدبي – جدة .
- متعة تذوق الشِّعْر ، د/ أحمد درويش – دار غريب – القاهرة .
- المتنبي ، محمود شاكر – ط/ المدني .
- المتنبي بين ناقديه ، د/ مُحمّد عبد الرحمن شعيب – دار المعارف – ط/ ثانية .
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، د/ عبد الله الطيب – دار الفكر – ط/ ثانية سنة ١٩٧٠م .
- مطلع القصيدة العربيّة ودلالته النفسية ، د/ عبد الحليم حفني – الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧م .
- مع المتنبي ، د/ طه حسين – دار المعارف .

المحتـــوى